كتابي

١٠ قروش



حلمي مراد

ذات الوشاح..
لوحة فوتوغرافية من روائع الفنان "أرمان"

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

عدد خاص : أروع القصص

الكتاب السابع والسبعون

الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول — ١٤ شارع ٢٦ يوليو — بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

كتابى يرتاد بك آدابا جديدة

عزيزى القارىء ..

فى مثل هذا الشهر من العام الماضى ، قدمت لك أول عدد قصصى خاص من « كتابى » ،بعنوان « أروع القصص » .. واليوم اقدم لك – لثانى مرة – هذا العدد القصصى السنوى ، الذى يجمع لك باقة منتقاة من القصص ، تمثل أكثريتها آدابا غير مألوفة لديك ، تصور شعوبا وبلادا غير الشعوب والبلاد التى اعتدت ان تقرأ انتاجها الادبى فى كل مناسبة ، وكل مجلة ..

فأنت تقرأ مثلا فى هذا العدد قصة **من الادب اليابانى** ، تصور لك – بأجمل أسلوب – « مثالية » الحب ، وسمو العاطفة ، عند المرأة اليابانية ..

.. ثم تنتقل من اليابان الى .. **الهند** .. لتقرأ قصة هى على النقيض من سابقتها .. قصة تصور فيها مؤلفتها – الهندية ، المعاصرة – نزعة الواقعية ، الصارخة ، المفجعة ، فى عواطف زوجة – وام – هندية ..

.. ومن الهند تنتقل الى (**ايران**) . ولعلك لم تقرأ ، من قبل ، قصة من الادب الايرانى الحديث ، ومن ثم رأيت أن اقدم لك بين محتويات هذا العدد قصة طريفة من هذا الادب غير المألوف لك ، ترجمها عن الايرانية الاديب العراقى السيد « مهدى جاسم » .

وبعد (طهران) يطوف بك هذا العدد باقليم آخر من أقاليم الشرق الاوسط ، هو (**لبنان**) الشقيق ، فيروى لنا الاديب اللبنانى « كمال سنو » قصة عربية تجرى وقائعها – ولياليها الحمراء – فى مغانى بيروت ، وأجواء « علب الليل » المشهورة فيها ..

هذا عن الآداب « غير المألوفة » التى حرصت على تقديمها

اليك فى هذا العدد . أما نماذج الآداب «المألوفة» التى يتضمنها العدد ، بالاضافة الى ما سبق ذكره ، فمنها قصة **«انجليزية»** للروائى « روبرت لويس ستيفنسون » .. وعرض لمجموعة قصص **« فرنسية »** هى « المهزلة الانسانية » لبلزاك .. ثم بضع قصص واقعية **« أمريكية »** من قصص نجاح العصاميين .. الى جانب قصة **« تاريخية »** شائقة للمؤرخ الفنان « ماتانيا » .. وقصة **« نفسية »** من قصص العلاج النفسانى لحالات، وعقد مستعصية ..

وأرجو أن أكون بذلك قد وفقت الى امتاع ذهنك بهذه المادة المنوعة التى ضمنتها هذا العدد .

وتقبل تحياتى

حلمى مراد

فى العدد القادم

نتيجة مسابقتى «قصة ألبرتو مورافيا » و «ادوين درود»

ضاق نطاق هذا العدد عن نشر نتيجة المسابقة المنشورة فى صفحة ١٩٤ من العدد الاسبق ، بشأن اسم الكتاب الذى اخترته « مطبوعات كتابى » — من بين مؤلفات الاديب الايطالى « ألبرتو مورافيا » — لتقدمه فى عددها الثامن والثلاثين . (وقد رأيت أن العدد المذكور جمع لك قصصا من كتابى « قصص من روما » و « شهر العسل المر ») . وسوف ننشر اسم الفائز فى المسابقة فى العدد القادم .

كما ننشر فى العدد القادم باذن الله نتيجة مسابقة تكملة قصة « ديكنز » الناقصة المنشورة فى العدد السابق : « أدوين درود » .

نافذة كتابى تطل على العالم

رأيت وسمعت لك.. فى آسيا

للمحرر



قصة ٣٠ عاما من الصراع الدموى

بين ماوتسى تونج وكاى شيك على حكم ربع الجنس البشرى !

عزيزى القارىء ..

فى هذا الفصل أزمع أن أروى لك قصة اعجب وأخطر حقبة فى تاريخ الصين ، وهى الحقبة منذ عام ١٩٢٥ حتى اليوم .. بعد أن رويت لك فى الفصول السابقة قصة الثلاثين قرنا السابقة من تاريخ الصين ـ القديمة ـ وحضارتها العريقة ..

وكنت قد وقفت بك فى الفصل السابق عند وفاة البطل الصينى الدكتور « سن يات سن » فى عام ١٩٢٥ ، بعد أن تمخض كفاحه الطويل عن اسقاط أسرة (مانشو) الامبراطورية واعلان الجمهورية الصينية ـ برئاسته ـ فى عام ١٩١٢ ، ثم ما تبع ذلك من تنازله عن رئاسة الجمهورية للمدعو « يوان شى كاى » ، **بتأثير انخداعه فى صدق نواياه من جهة ، وتجنبا لخطر نشوب حرب أهلية فى البلاد ، من الجهة الاخرى..** وعلى أثر ذلك تنكر الرئيس الجديد لقضية الوطن ولمبادىء سلفه العظيم ، بل وأعلن عن ثمن لرأس البطل« سن يات سن» ، فاضطر الاخير الى الفرار الى اليابان .. ولم يلبث الخائن أن نصب نفسه امبراطورا ، فى عام ١٩١٥ ، لكن المنية عاجلته فى العام التالى ، وان ظلت مقاليد الحكم بعد ذلك ـ سنوات ـ فى ايدى عصابته من أذناب العهود السابقة وأعوان الاستعمار..

وقبل أن أقص عليك قصة **الحرب الاهلية الاولى** التى مزقت الصين (بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٧) .. ثم **الحرب الاهلية الثانية** التى احتدمت منذ عام ١٩٢٧ حتى عام ١٩٣٦ .. ثم **حرب مقاومة الغزو اليابانى** ، (منذ عام ١٩٣٧ حتى عام ١٩٤٥) ..وأخيرا **الحرب الاهلية الثالثة** التى نشبت فى عام ١٩٤٥ وانتهت بانتصار حكام الصين الحاليين وتأسيس

جمهورية (الصين الشعبية) فى عام ١٩٤٩ ..

.. قبل أن أروى لك قصص كل هـذه الاحـداث التى تتابعت على ارض الصين خلال ثلاثين عاما حافلة بالتطورات ، والحروب ، والدماء المراقة .. لابد من التنقيب عن العوامل الدفينة التى أدت الى وقوع تلك الاحداث ، ومهدت لها ..

وأمامى الآن ثلاثة مراجع ، تؤرخ هذه الحقبة الهامة من تاريخ الصين الحديث :

أولها للمؤرخ الانجليزى ((أرثر فندلاى))

وثانيها للمؤرخ الفرنسى ((كلود روى))

وثالثها مرجع صينى ـ مترجم الى الانجليـزية ـ نشرته ((دارالنشر باللغات الاجنبية)) فى (بكين) فى ابريل عام ١٩٥٧ .

فتعال نرتد معا هذه المراجع الثلاثة ، التى يسـتند كل منها بدوره الى مزيد من المراجع الاخـرى ، كى نحـاول أن نخرج من المقارنة بينها .. بالحقيقة المجردة .. وسـوف تجد ـ مثلى ـ متعة كبرى فى مطالعة رواية كل مرجع منها ، والزاوية التى يعالج منها الموضوع :

* * *

• **يقول** المؤرخ الانجليزى ((ارثر فندلاى)) فى كتابه الضخم Curse Of Ignorance (صـفحة ٨٩٤ من المجلد الثانى) ، عن الفترة التى تلت اعلان الجمهورية الصـينية ، عام ١٩١٢ ، ونشوب الحرب العالمية الاولى :

((وأدى اعلان الجمهورية الى انهاء حكم أسرة (مانشو) ، والغاء ((ضفيرة ذيل الخنزير)) التى كانت تتدلى من رأس كل صينى .. ثم بذلت محاولة لإبدال الطـريقة القديمة للكتابة ـ بواسطة الرسوم ـ التى كانت تجعل تعميم القراءة والكتابة ، ضربا من المسـتحيل .. واحلال طريقة الكتابة بالحروف مكانها ، مثل سائر اللغات .. وتلا ذلك انشـاء

الكثير من الجامعات الحديثة ، **لاشباع الظما المتزايد للمعرفة ، الذى هو من أوضح ظواهر الحياة الاجتماعية الصينية فى هذه الايام .**

« واذ خشيت (اليابان) قيام دولة صينية موحدة ميسورة الحال ـ كما خشيت المانيا قيام دولة ناهضة فى روسيا ـ فقد راحت اليابان تخلق المتاعب لحاكم الصين « يوان شى كاى » (١٩١٣ ـ ١٩١٦) .. فلما مات فى عام ١٩١٦ تجددت الاضطرابات القديمة فى انحاء البلاد فراح الزعماء العسكريون يتقاتلون من أجل الاستئثار بالحكم ، **تساند كلا منهم مؤامرات دولة من الدول الكبرى التى كانت تتنافس على الظفر بأكبر نصيب من « الاحتكارات التجارية » فى الصين . وكانت الدول المتنافسة هى : الولايات المتحدة الامريكية ، واليابان ، ودول أوروبا الرئيسية .** (ولعل المؤلف يعنى بريطانيا وفرنسا بالذات !) .

ورغم كل محاولات دول الاحتكار لكسب صداقة الشعب الصينى ، فان هذه المحاولات اخفقت فى اخماد كراهيته لهذه الدول .. تلك الكراهية التى تزايد لهيبها وتطورت الى شبه فتنة حين أمر أحد رجال البوليس الانجليزى فى شنغهاى ـ فى عام ١٩٢٥ ـ رجاله باطلاق النار على حشد من الصينيين الذين كانوا يتظاهرون احتجاجا على قتل عامل صينى فى احد المصانع اليابانية !

وعلى أثر هذا الحادث عمت البلاد روح عدائية ضد الاوروبيين وضد اليابانيين على السواء ، فتكتل الصينيون جميعا صفا واحدا ، بدافع من شعورهم المتزايد بأن الاجانب لا يبغون سوى استغلالهم واستنفاد مواردهم للاثراء على حسابهم !

وتزايد هذا الشعور حين احتلت اليابان (منشوريا) ـ فى عام ١٩٣٢ ـ بدعوى أنه اذا كان لابد من أن تستغل دولة من

الدول ثروات الصين ، فلتكن هذه الدولة هى اليابان ! .. ثم انتهزت اليابان فرصة النزاع الداخلى والحرب الاهلية فى الصين ، فغزتها غزوا شاملا ، فى عام ١٩٣٧ .. وظفرت بالنصر تلو النصر ، على قوات الصين بزعامة « تشيانج كاى تشيك » – الذى بدأ حياته بائعا متجولا – فاضطرت القوات الصينية الى التراجع مسافات بعيدة الى داخل البلاد ، متخذة مدينة (شونجكنج) عاصمة لها . ومن هناك ظل الصينيون يشنون على غزاتهم حرب العصابات ، التى أربكتهم وبثت الاضطراب فى صفوفهم . ووجدت بريطانيا والولايات المتحدة من مصلحتهما امداد الصينيين بالاسلحة – عن طريق (بورما) – بعد ان احتل اليابانيون جميع موانىء الصين ..

« ورغم احتلال اليابان لاجزاء كبيرة من الصين ، فقد استمرت الصلات – وازدادت – بين حكومة الصين وكل من روسيا وبريطانيا والولايات المتحدة ، وعلى الاخص الدولتين الاخيرتين ، اللتين تنازلتا فى عام ١٩٤٣ عن حقوقهما التى كفلتها لهما المعاهدات ، وبذلك أزالتا سببا هاما من أسباب الضغائن والاحقاد بين شعبيهما وشعب الصين . (كذا !)

« وطوال سنوات الحرب العالمية الثانية ، ظلت آمال الصينيين معلقة بالتخلص من نير الاحتلال اليابانى .. فلما هزمت اليابان فى الحرب تحقق لهم أملهم الكبير ، بعد أعوام من آلام النزع الطويل ، أظهروا خلالها اعظم صفات الاحتمال والتضحية .

« والشعب الصينى ، كمجموع ، يمقت الحرب ويحب السلام .. لكنه لسوء حظه نكب – طوال آلاف السنين – بحكام أشبه برجال العصابات ، جلبوا عليه الخراب والدمار .. فاذا قدر له أن ينعم بالسلام ، وبمساعدة الامكانيات الزراعية الحديثة فى أيدى فلاحيه الأذكياء المجتهدين ، فسوف يزداد انتاج اراضيه الغنية الخصبة الى درجة كبيرة .. كما أن فى

وسع الحركة الصناعية التعاونية المبتدئة أن تطور التجارة الداخلية وتزود الاهالى بأدوات وأشياء جديدة وغريبة بالنسبة لهم .. ويوما ما ، بفضل المدارس الجديدة ، والكتب المطبوعة بالحروف العصرية ، سوف يتسع أفقهم المحدود لينتج « صينا » جديدة من بقايا أعرق حضارة فى العالم .. وعندئذ سوف يستمتع الصينيون بالسلام الطويل الذى طالما حرموا منه . »

وعند هذا الحد ، ينتهى ما كتبه المؤرخ الانجليزى « ارثر فندلاى » . وواضح منه أن كتابه ساير الاحداث فى الصين حتى عام ١٩٤٥ فقط ، أى قبل مولد « الصين الشعبية » بنحو أربعة أعوام .. كما تبدو من ثنايا سطوره نغمة الترفع البريطانى الاستعمارى التى تفرض نفسها حتى على قلم المؤرخ الذى يحاول أن يكون محايدا منصفا ، يكتب بلغة العالم لا بلغة رجل السياسة .. او يزعم أنه يحاول ذلك !

عندما كان الاجانب يمتصون دماء الصينيين !

• **فاذا** تركنا هذا المؤرخ البريطانى .. فتعال نطالع ما كتبه المؤرخ الفرنسى « كلود روى » فى كتابه الشائق Clefs Pour La Chine ، حيث يتعمق فى البحث أكثر من زميله الانجليزى ، فيقول فى فصل من الكتاب عنوانه « أشعة (أكس) للصين حوالى عام ١٩٢٥ » :

« وبانشاء المصانع ، والسكك الحديدية ، وفتح المناجم ، وبناء الاحواض ، ضاعف الاجانب من ثرواتهم .. وفى الوقت نفسه مهدوا الطريق لسخط الدهماء . **فقد كان العامل الصينى يتقاضى أقل أجر يتقاضاه عامل فى العالم . كانت المرأة التى تعمل ١٥ ساعة فى اليوم فى محلج للقطن بمدينة شنغهاى تقبض فى عام ١٩٢٨ اجرا شهريا قدره ١٠٥ فرنكات ، فى الوقت الذى كان فيه العامل الفرنسى يتقاضى بين ٨٠٠ و ٩٠٠**

فرنك ! .. وكان الاجنبى حين يريد من الحوذى الذى يجر عربة « الريكشو » به أن يستدير الى اليسار ، يخزه بعصاه فى جنبه الايسر ، أو يركله بقدمه اليسرى على أقرب قطعة من لحمه تكون فى متناول حذائه !

« وفى عام ١٩١٥ ، تألف أول اتحاد للعمال الصينيين فى مدينة (هونج كونج) . وفى عام ١٩١٩ ، عندما تظاهر الطلبة الصينيون فى شوارع مدنهم الكبرى احتجاجا على مساس معاهدة فرساى بحقوقهم ، لم يكن من العسير اقناع عمال (شنغهاى) بأن يحذوا حذوهم ، وان اختلفت دوافع الفريقين . **فلئن أمكن أن يظل العمال لا يبالون بما يجرى بعيدا عن بلادهم ، فى (فرساى) ، فانه كان يثيرهم ولا شك أن ينخسوا بالعصى فى شنغهاى ، ويتقاضوا أجورا ضئيلة ، ويعانوا الفاقة الشديدة التى لا تقيم أودهم !** .. فقد كان ذلك كله قريبا كل القرب منهم ، لصيقا بحياتهم .. وهكذا لم يكد طلبة شنغهاى يقومون باضرابهم التاريخى فى عام ١٩٢٥ ، حتى تبعه اضراب مماثل من جانب العمال والحمالين !

« على أن الفريقين تعرضا للمذابح ، سواء بسواء ، من جانب السلطات الحاكمة ــ جريا على سابقة مذبحة ٧ فبراير عام ١٩٢٣ التى اقدم خلالها الحاكم الصينى « وو ــ بى ــ فو » على قتل أربعين عاملا من عمال السكك الحديدية ! .. ومع ذلك فقد استمرت مدينتا (كانتون) و (هونج كونج) فى حالة اضراب دائم لمدة ستة عشر شهرا !

« فماذا كانت وجهة نظر مختلف طبقات الشعب فى تلك الايام ؟ كيف كان أفراد كل طبقة يفكرون ، ومم كانوا يشكون ؟ وماذا كانوا يبغون ؟

« ماذا كانت وجهة نظر بائع الارز والحنطة ، والملح والسكر ، والاسماك المجففة ، والخل والفلفل .. والبط والخنزير والدجاج .. أو بائع الازهار الورقية فى الافراح والزيجات ،

وبائع التوابيت فى الجنازات .. أو بائع العصافير المصنوعة لتزين أحذية ونعال النساء .. وبائع باقات الزهر أو أصص الورود ، وتماثيل بوذا ، واعواد البخور المعطر .. وباعة الدراجات والذين يصلحونها .. أو باعة الحرير والقطن .. وكل من باع ، أو صنع وباع ، أو اشترى ثم باع .. الخ ؟

« وماذا كانت وجهة نظر موظفى المصارف (البنوك) ، والاطباء ، والمحامين ، والبيطريين ، وكل من يعتبرون من أفراد الطبقة المتوسطة لانهم ليسوا أغنياء .. وكل أصحاب المهن ، والصناع ، والعمال ، والتجار .. الخ

« ماذا كان رأى كل هؤلاء وأولئك ؟

« كان رأيهم أن الاجانب والاغنياء يستغلونهم ويحتقرونهم .. وان الوقت قد حان للتخلص من أولئك « الشياطين » الدخلاء الذين اتلفوا تجارتهم ، ومن أولئك اليابانيين الذين أغرقوا الاسواق ببضائعهم الرخيصة السيئة الصنع .. ومن تلك العصابات التى تمارس الضغط عليهم ، اعتمادا على تسامح الحكام وأمراء الحرب وكبار الراسماليين ، سواء من الاجانب أو الصينيين .. »

وأكتفى اليوم بهذا القدر من كتاب « كلود روى » ، ولعلك ترى معى أنه اكثر تعمقا ، وانصافا للحق ، من زميله البريطانى !

بقى أن نرتاد معا المرجع الثالث ، والاكثر دقة ، من مراجع الحقبة الحديثة من تاريخ الصين .. وهو المرجع الصينى بطبيعة الحال .. وعنه ألخص لك الوجه الثالث للموضوع ، أو الزاوية الثالثة من زوايا البحث :

الحرب الأهلية الاولى (١٩٢١ ـ ١٩٢٧)

• **كانت** الحرب العالمية الاولى ، مجالا امد الرأسمالية الصينية بفرصة ذهبية لتحسين منتجاتها ، نظرا لتوقف

المنافسة الخارجية من أوروبا وأمريكا توقفا مؤقتا .. وهكذا تضاعف عدد مغازل القطن ، وازداد عدد مطاحن الغلال زيادة ملحوظة ، وازدهرت صناعات الحرير والكبريت .. وقفز عدد البنوك التي يملكها صينيون من ١٥ مصرفا فى بداية الحرب ، الى ٥٧ مصرفا فى عام ١٩١٩

ورغم أن الزيادة كانت كلها تقريبا فى باب الصناعات الخفيفة ، فان الرأسمال القومى بدأ يقوى ويشتد ساعده تدريجا .. وتزايد عدد العمال الصينيين خلال الاعوام الخمسة نحو ثلاثة اضعاف ..

وفى ٤ مايو عام ١٩١٩ تظاهر فى العاصـمة (بكين) ثلاثة آلاف طالب ، معلنين سخطهم على معاهدة (فرســاى) ، التى تضمنت أحكاما تتصل بمقاطعة (شانتونج) الصينية لم يرض عنها الوطنيون الصينيون . كما كان من أهداف المظاهرة اعلان السخط على الوزراء الموالين لليابان .

وتصدى البوليس للمظاهرة بالقمع واطلاق النار ، ثم القى القبض على ثلاثين طالبا من المتظاهرين .. وسرعان ما انتشرت تلك الحركة ــ التى أطلق عليها فيما بعد اسم «حركة ٤ مايو» ــ فى طول البلاد وعرضها

وفى الثالث من شهر يونية ، تظاهـــر الطلبة مرة أخرى ، فاعتقل منهم اكثر من ألف طالب .. ولكن بلغ من قــوة تأثير تلك الحركة على السلطات الحاكمة ، واستجابة الراى العام لها ، أن اضطرت حكومة (بكين) الى رفض التوقيع على معــاهدة (فرساى) !

ومنذ حركة ٤ مايو ، تطورت الحركة الثورية فى الصـين واكتسبت قوة .. **و ــ للمرة الاولى ــ اتخذت طابعا محددا مضادا للاسـتعمار والاقطاع .. وبدأت الطبقة العاملة تقوم بدور أكثر ايجابية فى الصراع ضد الاستعمار .**

وفي أول يوليو عام ١٩٢١ ، انشيء الحزب الشيوعي الصيني

ـ على مبـادىء ماركس ولينين ـ وقد تألف من الطبقات العاملة . ومنذ يوم تأسيسه أخذ الحزب على عاتقه مهمـة قيادة الشعب الصـينى فى ثورته من أجل قلب نظام الحكم وبناء مجتمع اشتراكى .

وفى عام ١٩٢٤ ، بعد انشاء العلاقات الدبلوماسية بين الصين والاتحاد السوفيتى ، عقدت الدولتان اتفاقية تخلت روسـيا بمقتضاها عن كل حقوق اقليمية لها فى الاراضى الصـينية المتاخمة لحدودها ، كما أعادت الى الصين سائر الامتيازات التى حصلت عليها منها فى الماضى حكومات القياصرة ، وتنازلت عن نصيبها فى التعويضات التى اعترفت لها الصين بها فى مناسبة سابقة .

وكان الحزب الشيوعى قد عرض ـ فى عام ١٩٢٣ ـ على الزعيم الوطنى الدكتور « سن يات سن » أن يعاونه على اعادة تنظيم حكومة (الكومنتانج) ، **فرحب الزعيم بالعرض ، وعكف بالفعل على هذه المهمة** .. ومن ثم اعلن من جـديد نظريته الثورية بصدد « مبادىء الشعب الثلاثة » ، وتبنى السياسة الثلاثية القائمة على : التحالف مع روسيا ، والتحالف مع الحزب الشيوعى ، وبذل العون للفلاحين والعمال .. ثم حدد لحزبه الاسس التالية : القضاء على الاستعمار ، والقضاء على « قياصرة الحرب » ودعاتها ، والمناداة بمبدأ أن « الارض لمن يفلحها »

وقد دعا الدكتور « سن يات سن » الشعب الصينى الى أن يتعلم من روسيا ، وأكد المعنى القائل أن « الشيوعية نصيرة لمبادىء الشعب الثلاثة » . وبعد اربعين سـنة من تجارب الكفاح الثورى ، استخلص الدكتور « سن » نتيجتين هامتين :

الاولى ، هى الحاجة الى ايقاظ وعى الجماهير .

والثانية ، هى الحاجة الى « توحيد أنفسنا فى صراع مشترك الى جانب شعوب العالم التى تعاملنا على قدم المساواة » .

وفى ١٢ مارس عام ١٩٢٥ ، مات الزعيم الكبير ..

جريمة الانجليز في (شنغهاي) !

وفي ٣٠ مايو عام ١٩٢٥ ، قامت في مدينة (شنغهاي) مظاهرة كبرى، كانت تتويجا لسلسلة من المظاهرات والاضرابات الاقل منها شأنا ، وقد نظمها الطلبة الوطنيون وعمال النسيج احتجاجا على الطغيان الاستعماري . **وخلال تلك المظاهرة اطلق رجال الشرطة الانجليز – في المنطقة الدولية بالمدينة – رصاص بنادقهم على المتظاهرين غير المسلحين ، فقتل كثيرون واعتقل آخرون . ومنذ ذلك اليوم عرفت هذه الحركة في تاريخ الصين الحديث باسم « حركة ٣٠ مايو » .**

وسرعان ما انتشرت في أرجاء البلاد انباء هذه الجريمة الاستعمارية البشعة ، فأثارت المشاعر وحركت شعور السخط الشديد ، سواء من جانب الطبقات العاملة أو من جانب الشعب بكافة هيئاته ، الامر الذى اشعل لهب الوطنية في الصدور وأعطى « دفعة » قوية للعاصفة الثورية التى كانت لتهيأ للهبوب على البلاد !

.. فقد نظمت في (كانتون) حملة عسكرية من بعض فيالق الجيش التى تضم عناصر شيوعية وعناصر ثورية تنتمى الى حكومة (الكومنتانج) .. وفي يوليو عام ١٩٢٦ انطلقت الحملة لتنفذ مهمتها الموكولة اليها وهى قلب حكومة (بكين) ، فمضت تسحق أنصار الحكومة من أمراء الحرب واحدا بعد الآخر ، واحتلت الجزء الاكبر من وادى نهر (يانجتسى) .. وفي نهاية العام انتقلت حكومة (كانتون) الوطنية الظافرة الى (ووهان) في الشمال .

شيانج كاى شيك يتنكر لرسالة « سن يات سن »

• **لكن** تقدم الحملة الظافرة ، اثار مخاوف أمراء الحرب والعناصر البورجوازية في (الكومنتانج) ، فاستبد بهم

الذعر من ازدياد قوة حركة العمال والفلاحين .. **فما حل شهر ابريل عام ١٩٢٧ حتى شن « شيانج كاى شيك »** - تلميذ « سن يات سن » الذى تنكر لمبادىء معلمه وخضع لنفوذ كبار الرأسماليين وامراء الحرب - **هجمة مفاجئة على تنظيمات الحزب الشيوعى فى (شنغهاى) و (نانكنج) و (كانتون) . ومنذ تلك اللحظة اعتبرت حركة العمال والفلاحين حركة خارجة على القانون ، وقمعت بشدة** . ثم اقيمت فى (نانكنج) حكومة مناوئة لحكومة (ووهان) الوطنية .

وعندئذ حدث انقسام فى صفوف (الكومنتانج) فى (ووهان) : فبينما نبذ « الجناح الايسر » منهم « شيانج كاى شيك » وطالبوا بتجهيز حملة تأديبية ضده ، عمد الفريق الآخر فى الحزب الى ضم صفوفهم وتكتيل انفسهم لنصرته ! .. وفى شهر يوليو من ذلك العام - ١٩٢٧ - انشق الفريق الاخير على الحزب الشيوعى واستقل بسياسته .

ومنذ ذلك التاريخ ، انقلب (الكومنتانج) من حال الى حال : فبعد أن كان يؤلف مع الحزب الشيوعى جبهة متحدة ضد الاستعمار والاقطاع .. انطلق رجاله الى سلسلة من جرائم القتل والذبح لجميع العناصر المناصرة الشيوعية ..

ظهور « ماوتسى تونج »

• فى تلك الفترة كانت زعامة الحزب الشيوعى فى يد « شن تو هسيوى » ، الذى اتخذ سياسة « استسلام » مطلق أزاء هجمات رجال الكومنتانج . بل لقد انزعج فريق « شن تو هسيوى » من « تطرف » حركة العمال والفلاحين ، فمنعوا هؤلاء من مواصلة اصلاح الاراضى ، وحلوا فرق العمال المسلحين .. بل وامروا اتباعهم من الشيوعيين بالاستقالة من مناصبهم الحكومية ..

ورغم أن الفريق الآخر من رجال الحزب الشيوعى ، بزعامة « ماوتسى تونج » ـ الرئيس الحالى لجمهورية الصين الشعبية ـ قد اتخذ سياسة مخالفة ، أزاء تلك الاحداث ، إلا أن الاغلبية المسيطرة على الحزب كانت لها الغلبة فى هذا الخلاف .. فأدى ذلك ـ بالإضافة الى موقف شيانج كاى شيك ـ الى فشل الحرب الاهلية الثورية الاولى ..

الحرب الأهلية الثانية (١٩٢٧ ـ ١٩٣٦)

• **ومنذ** شهر أغسطس عام ١٩٢٧ ، تبلورت الثورة الصينية تحت القيادة المباشرة للحزب الشيوعى ، ودخلت مرحلة الحرب الاهلية الثانية .

ففى أول اغسطس ١٩٢٧ ، وفى منطقة **(نانشانج)** ، تولى **« شو اين لاى »** ـ رئيس وزراء الصين الشعبية الآن ـ قيادة نحو ثلاثين ألفا من الثائرين المسلحين ، فى حرب أهلية ضد قوات الكومنتانج بقيادة **« شيانج كاى شيك »** . ويومئذ تم أول تشكيل للجيش الاحمر الصينى ..

وبعد بضعة أشهر ، اسس **«ماوتسى تونج»** القاعدة الثورية الاولى فى (شنجكانج شان) .. فلم ينقض عامان ، حتى بلغ عدد القواعد المماثلة التى أسست فى أنحاء متفرقة من الصين ١٩ قاعدة . وكان جوهر الكفاح الثورى فى الصين فى تلك الآونة ينحصر فى اصلاح الاراضى ، وبناء قوة سياسية ثورية .

وشن « شيانج كاى شيك » حربا لا هوادة فيها ضد القوات الثورية .. غير أن الجيش الاحمر ـ على هدى استراتيجية « ماوتسى تونج » ـ تمكن من دحر أربع حملات كبرى من حملات غريمه « شيانج كاى شيك » ، خلال المدة بين عام ١٩٣٠ وعام ١٩٣٣ ..

اليابان تتحفز .. ثم تنطلق !

• فى تلك الفترة ، كانت اليابان تركز جهودها فى «التسلل» الى الصين ! .. وهكذا ، بينما كان « شيانج كاى شيك » منشغلا بحملاته المتكررة ضد قواعد الثوار ، وكان أمراء الحرب من أنصار الكومنتانج يحاربون بعضهم بعضا فى معارك لا نهاية لها .. قامت اليابان بغزو الشمال الشرقى من الصين، فى سبتمبر عام ١٩٣١

والتزم شيانج كاى شيك سياسة « عدم المقاومة » للغزو الاجنبى ! .. بينما شدد فى الداخل قبضة حكمه الفاشى ، ومحاربته للشيوعيين ..

... بينما واصل الغزاة اليابانيون توغلهم ، فهاجموا — فى يناير عام ١٩٣٢ — مدينة (شنغهاى) ..

.. وفى العام التالى — ١٩٣٣ — احتلوا مقاطعة (جيهول) ، والقسم الشمالى من مقاطعة (شاهار) .. ثم الجزء الشرقى من مقاطعة (هوبى) ..

وكانت فترة محنة وطنية عصيبة ، عاشت فيها الصين بين شقى الرحى : بين زحف اليابان المتواصل وتوغلها فى أراضيها، من جانب .. وبين انشغال شيانج كاى شيك بسحق قوات غرمائه السياسيين ، من الجانب الآخر .

وفى تلك الاثناء وقع فريق الجناح ((الايسر)) من الانتهازيين فى الحزب الشيوعى فى خطأ جسيم ، حين أرسلوا الجيش الاحمر ليهاجم المدن الرئيسية التى تسيطر عليها جيوش الكومنتانج ! .. فكلفت هذه الحماقة الكبرى الحزب الشيوعى وجيشه ثمنا غاليا ، وخسائر فادحة ، أضعفتهما ضعفا ملحوظا ..

ولعل هذا الضعف هو الذى أغرى شيانج كاى شيك بأن يصم اذنيه عن نداءات الشيوعيين المتكررة التى ناشدوه فيها أن ينبذ سياسة « عدم المقاومة » للغزو اليابانى ويعقد هدنة فى الجبهة الداخلية ، بغية توحيد القوى والجهـــود لمقاومة الغزاة الأجانب .. فاذا به ، بدلا من تخفيف هجماته فى الميدان الداخلى ، يعمد الى شن هجومه الكبـــير – الخامس – على الشيوعيين ، فى أكتوبر عام ١٩٣٣ ، جاعلا هدفه تطويق القاعدة الرئيسية للجيش الاحمر فى (كيانجسى) . وكان هجومه من الضخامة والضراوة بدرجة فاقت جميع هجماته السابقة .

كل ذلك ، والغزاة اليابانيون ماضون فى تثبيت أقدامهم ، وتوسيع الرقعة التى يحتلونها من أرض الصين !

وأزاء ذلك خرج الجيش الاحمر على المواطنين – فى يوليو ١٩٣٤ – ببيان يعلن فيه من جانبه اعتزامه الزحف نحـــو الشمال لمقاومة العدوان اليابانى . وبعد ثلاثة اشهر ، غادرت القوات الرئيسية لهذا الجيش قاعدتها الكبرى فى (كيانجسى)، منطلقة نحو غايتها .. وتبعتها وحدات أقل منها عددا ، قادمة من مقاطعات أخرى ..

وهكذا بدأ « الزحف الطويل » المشهور !

« ماوتسى تونج » يتولى زعامة الحزب

• **وبينما** « الزحف الطويل » ماض فى سبيله ، عقد الحزب الشيوعى اجتماعا كبيرا – فى ينـاير ١٩٣٥ – انتهى بانتـزاع قيادة الحزب من الجناح « الايسر » فيه ، واسـنادها الى الفريق الآخر من الحزب ، الذى يتزعمه « ماوتسى تونج » !

وكانت أول خطوة اتخذها الرئيس الجديد ، أن قرر اتخاذ منطقة (ينان) – فى الشمال – مركزا لتنظيم جبهة وطنيـة متحدة جديدة لمقاومة الغزو اليابانى .

وفى ٩ ديسمبر ١٩٣٥ ، قام طلبة (بكين) بمظاهرة ضخمة، احتجاجا على التوسع الاستعمارى اليابانى فى شمالى الصين .. **وتوالت الصيحات من كافة طبقات الشعب ، ان « اوقفوا الحرب الاهلية وقاوموا العدوان اليابانى ! »**

وأجمع الشعب على تبنى الصيحة الجديدة ، وفى ديسمبر ١٩٣٦ أعلن اثنان من قواد جيش شيانج كاى شيك تأييدهما لسياسة نبذ الخلافات الداخلية ومواجهة الخطر الخارجى .. وتنفيذا لهذه السياسة عمد القائدان الى تحديد اقامة رئيسهما - شيانج كاى شيك - فى منطقة (سيان) بالقوة . وبعد وساطة من جانب الحزب الشيوعى ، قبل شيانج كاى شيك أخيرا أن يوقف الحرب الاهلية ويتخذ موقفا موحدا ضد الغزو اليابانى !

حرب مقاومة الغزو اليابانى (١٩٣٧ - ١٩٤٥)

• **واذ** أحست اليابان بدنو اجل الانقسامات والفرقة الداخلية بين صفوف الصينيين ، لم تر بدا من كشف النقاب عن وجهها ، والافصاح علنا عن مطامعها الواسعة فى اراضى الصين .. **فكان ان شنت - فى يوليو ١٩٣٧ - هجوما عاما على جارتها الصفراء !**

وبدأ القتال على قنطرة « ماركو بولو » - فى الجنوب الغربى من العاصمة (بكين) - فى السابع من يوليو ، فتراجعت جيوش الحامية الصينية وهى تقاتل .. وفى يوم ١٣ أغسطس أطلقت اليابان جانبا آخر من جيوشها ضد ميناء (شنغهاى) ، فأصرت حامية شنغهاى بدورها على المقاومة .. وأعيد تنظيم الجيش الاحمر الصينى وقوات العصابات فى مختلف مقاطعات الصين الجنوبية فتألف من مجموعها « جيش الطريق الثامن » و « الجيش الرابع الجديد » ، واتخذ الجيشان مراكزهما فى

الجبهتين الشمالية والشرقية من الصين .

موقف الاتحاد السوفييتي .. والدول الغربية

• **وازاء** اشتباك الصين فى حرب واسعة النطاق ضد الغزاة، كان لا بد من تحديد موقف جارتها الكبرى (روسيا) من هذا القتال المحتدم .. وقد اختارت الجارة السوفييتية جانب المعاونة الصريحة للصين ، فوقعت معها ـ فى أغسطس ١٩٣٧ ـ ميثاق عدم اعتداء ، بل وأمدتها بالمعونة المالية والعسكرية .

فماذا ـ ترى ـ كان موقف بريطانيا والولايات المتحدة من ذلك القتال الدائر الرحى بين الصين واليابان ؟

وقعت الدولتان فى حيرة : فبينما كانت سياستهما تهدف الى الحيلولة دون تمكين اليابان من توطيد نفوذها على نطاق واسع فى الشرق الاقصى .. كانت مصالحهما ـ من الجهة الاخرى ـ تقتضى كسر شوكة الاتحاد السوفييتى فى تلك المعارك التى أدلى بدلوه فيها ، فوق ارض الصين !

على أن سير الحوادث ، وتوسع اليابان السريع فى غزوها للاراضى الصينية ، اضطر الدولتين الغربيتين الى مناوأة اليابان اكثر فأكثر ، **الامر الذى أدى الى توسيع هوة الخلاف بينهما وبينها ، ونمو الاحقاد المتبادلة بين الجانبين ، حتى انتهى الامر باشتباكهما فى حرب « عالمية » ، فى ديسمبر عام ١٩٤١** ، (على أثر انضمام اليابان الفعلى الى محور برلين ـ روما ، ثم هجومها المباغت على الاسطول الامريكى فى ميناء (بيرل) !

أما شيانج كاى شيك ، فقد استأنف سياسة المقاومة « السلبية » لليابان . وبدلا من أن يركز قواته ضد الغزاة الاجانب ، جمع جيوشه الرئيسية فى الجنوب الغربى والشمال الغربى من الصين ، وسلطها على مواطنيه الصينيين من أنصار

الحزب الشيوعى .. وهكذا اختص اعداءه بالمقاومة السلبية ، وابناء وطنه بالمقاومة الايجابية !

ونتيجة لهذا المسلك ، وقع عبء مقـــاومة قوات الغـزو اليابانية على كاهل جيش الشيوعيين : جيش الطريق الثامن ، والجيش الرابع الجديد .. **فلما انتهت الحرب العالمية الثـانية فى الجبهــة الالمـانية ، فى مايو عام ١٩٤٥ ، كانت جيــوش الشيوعيين تشغل بهجماتها نسبة ٦٩ فى المـائة من القـــوات اليابانية فى الصين ، و ٩٥ فى المائة من قوات الصينيين العصاة الذين حاربوا فى صفوف الجيش اليابانى !**

ورغم تفوق جيوش شيانج كاى شيك فى العدد والعتاد ، (الذى أمدتها به أمريكا ، وكان عتادا من احدث طراز) ، فان جيوش الحزب الشيوعى أحرزت عليها انتصارات عـديدة ، كما حررت مناطق كثيرة من قبضة اليابانيين ، وبذلك اضعفت مركز اليابان فى ميادين القتال الاخرى ، وكانت قواتها البحرية والجوية فى ميدان الباسيفيكى قـد بدأت تتـــداعى ، برغم انتصاراتها الساحقة فى بداية الحرب .

وفى ٨ أغسطس عام ١٩٤٥ أعلن الاتحاد السوفييتى الحرب على اليابان .. وسرعان ما اباد الجيش الســوفييتى جيش اليابان فى مقاطعة (كوانتونج) بشمال شرقى الصين .

وفى ١٤ أغسطس ١٩٤٥ .. رفعت اليابان راية التسليم ، بلا قيد ولا شرط .. فى جميع الميادين !

الحرب الأهلية الثالثة (١٩٤٥ ــ ١٩٤٩)

وقيام جمهورية « الصين الشعبية »

• **لم تكد** الحرب العالمية تضع اوزارها ، بانتصار الولايات المتحدة على اليابان ، حتى اندفعت الاخيرة الى امداد شيانج

كاى شيك بالرجال والسلاح كى يسحق الحزب الشيوعى وجيوشه ، ويستتب له الحكم فى البلاد .. رغم الحقيقة المفجعة التى عرفها العالم كله ، وهى أنه فى الوقت الذى استسلمت فيه اليابان ، كانت جيوش كاى شيك — التى تجنبت مقاتلة اليابانيين — تعسكر بعيدا فى الجنوب الغربى والشمال الغربى من الصين ، بينما كانت جيوش «ماوتسى تونج» تقف فى مواجهة الغزاة اليابانيين ، سواء فى الشمال ، أو الشرق ، أو الشمال الشرقى من الصين !

ونزلت القوات الامريكية فى مواضع متفرقة من الساحل الصينى ، كى تتسلم من اليابانيين أسلحتهم ومخلفات استسلامهم .. **فما كان منها الا ان سلمت بدورها جميع تلك الاسلحة والمعدات الى شيانج كاى شيك ، كما سلمت اليه جميع المناطق التى كان يحتلها اليابانيون !.. واستخدمت الولايات المتحدة طائراتها وسفن أسطولها لتنقل عليها اكثر من مليون جندى من جيوش كاى شيك الى المواضع التى حددت لهم حول المناطق التى حررت من اليابانيين !** .. واخيرا أمدت أمريكا كاى شيك بالذخائر اللازمة لاستئناف الحرب الاهلية ضد الشيوعيين ..

وحاول هؤلاء أن يتجنبوا الحرب الاهلية ، ويصلوا الى تحقيق اهدافهم الاجتماعية والسياسية فى البلاد بالوسائل السلمية .. فدخلوا فى مفاوضات ودية مع حكومة كاى شيك (الكومنتانج) ، انتهت الى عقد اتفاقين معها ، فى أكتوبر ١٩٤٥ ويناير ١٩٤٦ ..

ولكن لم يحل شهر يوليو عام ١٩٤٦ حتى سدد كاى شيك — بمعاونة الولايات المتحدة — ضربة مفاجئة الى الشيوعيين ، فاحتل كثيرا من المدن والمناطق التى نص الاتفاقان

على عدم احتلالها !

ثم تكرر نقضه للميثاق ، حين ارغم الحزب الشيوعى - فى مارس عام ١٩٤٧ - على سحب وفوده وممثليه من (نانكنج) و (شنغهاى) و (شونجكنج) ، الى (ينان) . وعلى أثر ذلك شنت قوات الكومنتانج هجوما خاطفا احتلت به (ينان) ذاتهـــا !

وبذلك تبدد كل أمل فى أية تسوية ســلمية للنزاع بين الفـــريقين !

جيش التحرير .. يبدأ الهجوم !

وفى يوليو عام ١٩٤٧ ، انتقل جيش الشــيوعيين - الذى أطلق عليه « جيش التحرير الشعبى » - من خطــة الدفاع الى خطـــة الهجـــوم .. ثم اذاع ، فى ١٠ أكتـــوبر مـــن نفس العام ، نداء يدعو فيه الشعب الى طرد كاى شيك ، وبناء « الصين الجديدة » .

وفى عام ١٩٤٨ سقط فى يد جيش التحرير عـــدد كبير من مدن الصين التى كانت معاقل للكومنتانج . وفى ٢ نوفمبر من نفس العام تمت تصفية قوات كاى شيك من منطقة الشـــمال الشرقى بأكملها . وفى ١٠ ينـــاير عام ١٩٤٩ قضى « جيش التحرير » فى الجبهة الجنوبية على القسم الرئيسى من جيوش كاى شيك .. وفى نفس الوقت تقريبا ، شن الجيش فى الجبهة الشمالية حملة هدفها الاستيلاء على ميناء (تينتسين) ومدينة (بكين) ، فاستولى على الاولى بعد معركة شديدة ، أما الثانية فقد دخلها بالاتفاق السلمى .

وتظاهر « كاى شيك » بالرغبة فى اعتزال الحياةالسياسية ، فأرسل مندوبه « لى تسونج شن » يعرض الصلح . وتمت بالفعل كتابة « مسودة » الاتفــاق ، لكن حــكومة الــكومنتانج المترنحة رفضت التوقيع !

وفى ٢٣ أبريل عام ١٩٤٩ احتل جيش التحرير مدينة (نانكنج) ، عاصمة حكومة كاى شيك .. وفى تواريخ متفرقة ، خلال نفس العام ، تمكن الجيش ـ بالمفاوضات السلمية ـ من احتلال عدد كبير من المدن والمقاطعات الاخرى الهامة ، مثل : هونان ، وسويوان ، وسنكيانج ، وسيكانج ، ويونان .. وبذلك تمت السيطرة الفعلية على الصين بأكملها ، وانهار حكم « شيانج كاى شيك » الذى استند الى الحراب الاجنبية ومعونة الدول الاستعمارية !

وفى سبتمبر عام ١٩٤٩ عقد فى (بكين) اجتماع بين زعماء الحزب الشيوعى والاحزاب الاخرى التى وقفت الى جانبه أثناء القتال المرير ، فقرر المجتمعون الدعوة الى انعقاد « المؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى » ، للنظر فى وضع نظام الدولة الجديدة ..

وألقى الرئيس « ماوتسى تونج » خطاب افتتاح المؤتمر ، فأعلن فيه : **« ان الشعب الصينى ، الذى يؤلف ربع الجنس البشرى ، قد وقف الآن على قدميه »**

وفى أول أكتوبر ١٩٤٩ أعلن « ماوتسى تونج » رسميا قيام « جمهورية الصين الشعبية » .. (وبعد أيام ، فى اول اكتوبر القادم ، يحتفل « الرئيس ماو » ـ كما يطلقون عليه فى الصين ـ مع رئيس وزرائه « شو اين لاى » ، بمرور تسع سنوات على قيام الجمهورية الجديدة ، التى تحكم نحو سبعمائة مليون نسمة !)

* * *

أما « شيانج كاى شيك » ـ تسانده الولايات المتحدة الامريكية ـ فقد لاذ بالفرار مع الفلول الباقية من جيشه الى جزيرة صغيرة يطلقون عليها (فورموزا) ـ تنتظر اليوم

مصيرها ! ـ حيث بقى منذ ٩ سنوات يحلم بالعودة الى حكم الصين ، متخذا لحكومته « الصورية » اسم «الصين الوطنية» ، وظافرا لها بأحد المقاعد الخمسة الدائمة فى مجلس الامن ، وبعضوية هيئة الامم المتحدة !

أما حكومة ((الصين الشعبية)) ، التى تحكم ربع الجنس البشرى ـ بالفعل والقول ـ منذ عام ١٩٤٩ حتى اليوم ، فلا تزال الولايات المتحدة الامريكية ترفض الاعتراف ((بوجودها)) ، وتضن عليها بمقعد دائم او مجرد عضوية فى الهيئتين الدوليتين اللتين تتمتع بعضويتهما ((دويلات)) صغيرة ضئيلة ، مجهولة الاسم والموقع .. والحسب والنسب !

ولله فى خلقه شئون !

* * *

والآن ، وقد انتهينا من هذه الرحلة « الزمنية » عبر ٤٤ قرنا من تاريخ الصين (منذ عام ٢٣٥٦ ق.م. الى يومنا الحاضر) ، **نستطيع ان نبدأ ـ من العدد القادم باذن الله ـ زيارتنا سويا لمدن الصين الكبرى ، ومعالمها الهامة التى شهدت حضارة كل هذه القرون والاجيال ! ..**

فالى العدد القادم

حلمى مراد



راقصة !

قصة من الأدب اليابانى

لأديب اليابان الكبير "لافكاديو هيرن"

تلخيص : انطون العبيدى

— ١ —

كان ولا يزال من عادة الفنانين اليابانيين الشبان أن يجوبوا — سيرا على الاقدام — مختلف بقاع الامبـــراطورية ، لرؤية اشهر المشاهد وتخطيط معالمها ، وأيضا لدراسة روائع الآثار الفنية التي تحتويها المعابد البوذية ، **تلك الآثار التى يشــغل كثير منها أماكن بالغة الجمال والفتنة ، لا يســـتطيع رسمها وابراز جمالها سوى الفنان الياباني وحده .. أما الفنان الاجنبى فهو يعطيك مجرد انعكاسات واقعية لمـا يشاهده ، أى عمـلا سطحيا أجوف ، لا روح فيه أو حياة .. ولا شيء غير هذا !**

ومنذ أعوام عديدة خلت ، كان فتى من طلاب الفن يرتحل سيرا على الاقدام من « كيوتو » الى « ييدو » فوق الجبال . وكانت الطرق فى ذلك الوقت قليلة ورديئة ، فكان السفر — اذا قارنته بما هو عليه الآن — عسيرا الى حد أنه يثبت المثـل الذى كان شائعا آنئذ ، والذى يقول : « الطفـل المدلل ينبغى له أن يسافر » ! .. اما المنطقة فكانت كما هى اليوم : نفس غابات الصنوبر والارز ، ونفس أحـراش الخيزران ، ونفس القرى القائمة على قمم الجبال ، تعلو بيـوتها سـقوف من القش ، ونفس حقول الارز الممتدة فى نتوءات الجبـال وقد انتثرت فى جنباتها أكواخ الفلاحين المصنوعة من القش البالغ الصفرة ، والمطلية بالطين . وفى جانب الطـريق تبتسم نفس تماثيل « الجيزو » لوجوه نفس الحجاج السـاعين الى عين المعـابد !

واليوم ، كما كان فى الماضى ، يمكنك فى أيام الصيف ان ترى صبية سمر الوجوه ، عراة يمرحون ويضحكون فى جميع الانهار

قليلة الغور ، وجميع الانهار تضحك للشمس !

كيفما كانت الحال ، فان طالب الفن الشاب كان كثيرا ما ارتحل من قبل وراض نفسه على السفر الشاق والمسكن الخشن ، واعتاد الرضا بكل المواقف . **غير انه فى هذه الرحلة وجد نفسه ذات مساء بعد أن توارى قرص الشمس ، فى منطقة يبدو الا سبيل الى مواصلة السير فيها أو اللجوء الى مسكن من أى نوع على مرمى البصر من الاراضى المنزرعة . واذ حاول ان يبلغ اقرب قرية فى القطاع ، من أقصر المسالك .. ضل الطريق !**

لم تكن الامسية مقمرة ، وكانت ظلال شجر الارز تجعل كل شىء حالكا من حوله . وبدا الاتجاه الذى ضل فيه بالغ السعة ، مترامى الاطراف ، وليس فى القطاع صوت يستمع اللهم الا صفير الريح تحف بأوراق الارز الابرية ، وطنين الحشرات الذى لا ينقطع ..

ومضى الفتى فى طريقه ، على أمل أن يبلغ شاطىء نهر يتبعه ، عله ان يصل الى مخرج ما . وأخيرا اعترض طريقه فجأة ماء جار ، غير أنه سرعان ما تبين أنه سيل منحدر فى سرعة الى أحد الدروب الضيقة من المنخفضات الجبلية ، فاضطر أن يعود أدراجه .. وقرر التسلق الى أقرب قمة ، حيث قد يستطيع تبين أية نبضة لحياة بشرية .. غير أنه ما ان بلغها حتى ألفى أن ليس من حوله سوى سلسلة من التلال !

ورجح لديه انه لا بد قاض ليلته فى العراء ، وفى هذه اللحظة بدا أمام ناظريه على مسافة ما من سفح التل الذى كان قد صعد اليه ، شعاع خافت من الضوء الاصفر لا شك أنه منبعث من مسكن ما . اتجه نحوه ، وسرعان ما تبين كوخا صغيرا يدل ظاهره على أنه بيت أحد الفلاحين . وكان الضوء الذى أبصره ما زال ينبعث منه من خلال ثقب فى بابه الخارجى

المغلق .. فأسرع نحوه ، وطرق الباب :

— ٣ —

طرق طويلا ، ونادى من فى الدار عدة مرات ، قبل ان يسمع اى حركة فى الداخل .. واخيرا طرق سمعه صوت امرأة يسأله ماذا يريد . كان الصوت عذبا بدرجة ملحوظة ، ودهش لحديث السائلة غير المنظورة ، فقد كانت تتكلم بلهجة أهل العاصمة المثقفين ! .. وأجابها بأنه طالب ضل طريقه فى الجبال ، وانه يلتمس اذا أمكن طعاما ومأوى لهذه الليلة ، واذا لم يتيسر ذلك فانه يكون ممتنا غاية الامتنان لو أعطى معلومات تعينه على الوصول الى أقرب قرية .. وأضاف ان لديه من المال ما يسمح بدفع نفقة مرشد . وسأل الصوت بدوره أسئلة اخرى عديدة ، مبديا بالغ الدهشة اذ ان احدا لا يمكنه بلوغ هذه الدار من الاتجاه الذى سلكه . على ان اجابته كان من شأنها دون شك أن تثير الظنون ، فقد قالت المرأة الحبيسة فى تعجب : « سآتى بعد لحظة ، لاشك أنه من العسير عليك ان تبلغ اية قرية هذا المساء ، والطريق خطر . »



وبعد هنيهة فتح الباب ، **وظهرت امرأة تحمل مشكاة من الورق أمسكتها بحيث تضىء وجه الغريب ، بينما يظل وجهها هى صمت ، قالت فى ايجاز : « مهلا ، سأحضر ماء » .. وجاءت بحوض غسيل ، ووضعته فى الظلام . وبعد ان تأملته فى**

فوق عتبة الباب ، وقدمت للضيف منشفة . فخلع نعليه ، وغسل قدميه مما علق بهما من غبار الرحلة ، ثم ادخل الى غرفة نظيفة حسنة الترتيب يبدو انها تشغل صحن الدار برمته ، فيما عدا ركن جانبى صغير يستعمل كمطبخ .

عندئذ فقط أمكنه ملاحظة مضيفته ، وشد ما دهش لرقتها وجمال قسماتها . أنها قد تكبره بثلاث سنوات أو أربع ، بيد أنها ما تزال فى ريعان الشباب . انها بالتأكيد ليست فتاة قروية . وقالت له بصوتها العذب عذوبة خارقة : « انى الآن بمفردى ، ولا أستقبل ضيوفا هنا البتة ، غير أنى موقنة انه من الخطر عليك مواصلة السفر هذه الليلة . فلئن كان يوجد بعض الفلاحين بالقرب منى ، لكنك لا تستطيع ان تجد طريقك اليهم بدون مرشد . ولهذا يمكننى ان ادعك تبقى هنا حتى الصباح . سوف لا تتوافر لك أسباب الراحة ، ولكن يمكننى أن أعطيك سريرا . ولا شك انك جائع . ان عندى بعض الطعام غير الجيد ، ويسرنى أن تتناول منه شيئا . »

كان الجوع قد أخذ بالفتى المرتحل كل مأخذ ، ولهذا شد ما كان سروره بأن تعرض عليه وجبة طعام ! .. ثم أشعلت الفتاة نارا هادئة ، وأعدت فى صمت بضعة اطباق من الخضر المطهية والارز غير المضروب ، وجلبت الطعام أمامه فى حركة سريعة ، وهى تطرى نوعه . ولم تتكلم أثناء تناوله عشاءه الا لماما ، حتى ضاق الفتى بتحفظها . وكان يجيب على أسئلتها القليلة بانحناءة ، أو بكلمات عابرة . غير أنه ما لبث ان عدل عن محاولة اقتضاب الحديث . كان قد لحظ أن الدار الصغيرة منظفة بعناية فائقة ، وكانت الآنية التى قدم له الطعام فيها نظيفة كذلك . وكانت الاشياء القليلة الرخيصة التى يحتويها البيت جميلة . وكان أثاث المنزل ، من خزانة الملابس الى صندوق الآنية وغيرهما ، مصنوعا جميعه من ورق أبيض بيد انه مزين بأشكال ورموز ضخمة من الكتابة

الصينية ، أشكال توحى بفكرة الشاعر والفنان عن : أزهار الربيع ، الجبل والبحر ، أمطار الصيف ، السماء والنجوم ، قمر الخريف ، ماء النهر ، نسائم الخريف .. الخ . وفى أحد جوانب الدار يقوم ما يشبه المذبح ، وقد تركت ابوابه الصفيحية مفتوحة فبدت فى داخله مائدة الذبح وامامها حمل يحترق بين تقدمات من الزهور البرية . وفى أعلى هذا المعبد العائلى علقت صورة تفوق قيمتها قيمة الصور الشائعة ، تمثل الهة الرحمة تحمل القمر كهالة لها !

واذ فرغ الطالب من تناول وجبته الصغيرة ، قالت الفتاة : **((ليس فى وسعى أن اقدم لك فراشا ناعما ، وانما يوجد لدى ((كلة)) ـ (ناموسية) ـ من ورق . والفراش والكلة لى ، بيد انه على هذه الليلة ان أقوم بأعمال كثيرة ، وليس لدى وقت للنوم . وعلى هذا ارجوك ان تحاول اخذ قسطك من الراحة ، ولو انه ليس فى مقدورى توفير أسباب الراحة لك .))**

حينئذ أدرك أنها ـ لسبب غريب ما ـ تعيش بمفردها تماما ! .. وانها نزلت له طوعا واختيارا عن فراشها الوحيد، متذرعة بذريعة رقيقة . فاحتج على هذه المبالغة فى اكرام ضيافته ، واكد لها ان فى مقدوره أن ينام نوما هادئا فى أى مكان على الارض ، وان البعوض لا يعنيه فى كثير او قليل . ولكنها اجابت بلهجة ((أخت كبرى)) ان عليه اطاعة رغباتها . لقد كان لديها حقيقة شىء تعمله ، وكانت ترغب فى أن تترك لنفسها فى أقصر وقت ممكن . وحينئذ نبهته الى أنه سيد رقيق الحاشية وانها تنتظر منه أن يدعها ترتب الامور على طريقتها .. ولم يكن لديه ما يعترض به على هذا ، فلم تكن هناك سوى غرفة واحدة . فبسطت الفراش على الارض ، وجاءت بوسادة خشبية وضعتها فى مكانها منه ، وعلقت كلتها الورقية ، وأقامت حاجزا كبيرا الى جانب الفراش ، **ثم أقرأته**

تحية المساء على نحو اكد له رغبتها فى ان ينسحب على الفور . وهذا ما فعله على مضض ، فقد ساءه ان يزعجها – واو بغير قصد – كل هذا الازعاج .

— ٣ —

أحس المسافر الشاب ان عليه ان يقبل ، ولو على كره منه ، صنيع مضيفته ، هذا الصنيع الذى اقتضاها – فيما اقتضى – النزول عن راحتها له ، فوجد الفراش اكثر من مريح ! لقد كان متعبا جدا ، فما ان اسند رأسه الى الوسادة الخشبية حتى كان قد استغرق فى النعاس .

ولكن لم تمض فيما يبدو برهة وجيزة ، حتى أيقظه صوت غريب . لا شك انه وقع اقدام . لم يكن الوقع صامتا ، بل كان صاخبا . فقد كان الصوت الآتى اليه ينم عن حركة سريعة يؤديها شخص منفعل ! وخطر بباله أن لصوصا ربما يكونون قد تسللوا الى داخل الدار . وفى مايتعلق به شخصيا، لم يكن ليخشى شيئا كثيرا ، لانه لم يكن ليفقد الا القليل . وانما كان جل اهتمامه منصرفا نحو السيدة الرقيقة الحاشية التى أولته هذا القدر الغامر من كرم الضيافة . كانت فى كل جانب من جوانب الكلة الورقية فتحة صغيرة مربعة بنية اللون ، أشبه ما تكون بالنافذة . حاول أن ينظر من خلال واحدة منها . غير أن الحاجز المرتفع القائم الى جانبه حال دون رؤيته لما يحدث بجواره . فكر فى أن ينادى مضيفته ، ولكنه عاد فارتأى انه ان كان هناك ثمة خطر حقيقى فان اعلانه عن وجوده قبل أن يتبين جلية الامر يكون عملا طائشا ، فوق أنه عديم الجدوى . واستمرت الاصوات التى أقضت مضجعه، وتزايد استغلاق أمرها عليه . **فقرر التأهب لاسوأ الاحداث ، والمجازفة بحياته ان قضت الضرورة بذلك ، دفاعا عن مضيفته الشابة . بادر باحكام ملابسه ، وانزلق بدون جلبة من تحت**

الكلة الورقية ، وتسلل الى حافة الحاجز واخذ يسترق النظر. واذا به يرى عجبا !

رأى المرأة الشابة فى لباس فاخـر ، ترقص بمفردها أمام مذبحها المضاء ! ووضـح له أنها ترتدى لباسا لرقصة « الشيرابيوشي » ، أثمن من أى لباس لهذه الرقصة شهده على جسم أية راقصة محترفة . ان هذا الثوب ليزيد جمالها رواء على رواء ، واشراقا فوق اشراق ، حتى لتبدو فتنتها فى هذا الوقت الفريد وفى هذا المكان المنعزل ، غاية فى السحر مابعدها غاية ، الا أن يكون ذلك فيما وراء الطبيعة. على أن الذى بدا له ادعى الى الدهشة والعجب ، كان رقصها . أحس لحظة بسريان الدم الى وجهه ، لريبة غير طبيعية راودته . فقد طافت بخياله خرافات القرويين ، والاساطير التى تروى عن النساء الثعالب ، بيد أن منظر المذبح البوذى والصورة المقدسة العالقة فوقه ، بدد اوهامه ، وأخجله من حماقة ما تصور . وأدرك فى الوقت نفسه انه يحدق بعينه فى شىء لم تكن مضيفته تريد ان يراه ، وانه ينبغى له كضيف عليها أن يعود على الفور الى مكانه خلف الحاجز .. ولكن المنظر بهره وأخـذ بمجامع لبه . كان ينظر الى راقصة لم يشهد من قبل راقصة مكتملة مثلها ، ولم يكن اغتباطه بما يرى أقل من دهشته له . وكلما زاد تحديقه فيها ، زاد انفعاله بسحر فتنتها . وفجأة توقفت عن الرقص ، وأرخت حزامها وهى تلهث ، ثم استدارت وهى تخلع لباسها الاعلى و .. وقفزت بعنف ، حين ألتقت عيناها بعينيـه !

حاول على الفـور أن يعتذر لها ، قال انه استيقظ بغتة لسماعه وقع اقدام سريعة الخطى أزعجه بعض الشىء ، ولا سيما من أجلها ، اذ ان الوقت متأخر والمكان منعزل . ثم باح لها باندهاشه مما رأى ، وروى لها كيف انفعل بما شاهد .. ثم اضاف : **« أرجو أن تغفرى لى فضـولى ، فلم يكن فى**

مقدورى ان احـــدس من تكونين ، وكيف أمكن ان تصبحى راقصة على هذا القـــدر من الروعة . فالحق انى لم ار بين أشهر راقصات ((سيكيو)) اللواتى شاهدت رقصهن ، فتــاة ترقص مثلما ترقصين . ومنذ اللحظة الاولى التى بدأت ارقبك فيها لم أستطع تحويل ناظرى عنك !))

بدت أول الامر غاضبة مقطبة الجبين ، ولكن قبل ان يمسك عن الحديث كانت ملامحها قد تغيرت . ابتسمت وجلست فى مواجهته ، وقالت : ((لا ، لست غاضـــبة منك . وانما انا آسفة لانك دفعت الى مراقبتى ، فانك بلا شـــك حسبتنى مخبولة حينما رأيتنى أرقص على هذا النحو بمفردى ، والآن ينبغى لى ان أفسر لك ما رأيت .))

وقصت عليه قصتها : اسمها ـ على ما يذكر مذ كان طفلا ـ اسمها المهنى ، كان علما على اشهر راقصة ((للشيرابيوشى)) ، معبودة العاصمة التى اختفت بغتة من الحياة العامة وهى فى قمة شهرتها وأوج جمالها ، ولا يعرف أحد لمــاذا ولا الى أى مكان ذهبت ! **لقد ركلت الثراء العـــريض والحظ الباسم ، وهربت مع شاب أحبها . كان يعبـــدها . وكان من أدخل الامور للسرور على نفسه أن يراها ترقص ، كان يعـزف كل مساء بعض الالحان التى تهز الوجـدان ، وكانت هى ترقص له . وفى شتاء احدى السنين ، وكان شـــتاء طويلا قارس البرد ، مرض .. ولم تجد العناية التى بذلتهـــا له ، والعطف الذى أسبغته عليه ، ففارق الدنيـــا ! ..** ومنـــذ ذلك الحين ، عاشت وحدها على ذكراه ، تؤدى طقوس الحب الصـــغيرة وآيات التكريم هذه التى يمجد بها الموتى . فهى تضع كل يوم أمام لوحته الصغيرة التقدمات المعتـــادة . وكل ليلة ترقص لارضائه كما كانت تفعل فى المـــاضى . كان هـــذا هو تفسير ما رآه المسافر الشاب . ولقد رأت انه من غير اللائق ان تبقى ضيفها المتعب يقظان ، فتريثت حتى حسبته قد نام تماما ،

ثم حاولت أن ترقص رقصا خفيفا جدا . ولهذا فهى ترجو أن يغفر لها ازعاجها اياه بغير قصد !

وإذ فرغت من قصتها ، أعدت شايا بسيطا شرباه معا . ثم توسلت اليه أن يحاول النوم مرة أخرى ، ارضاء لها ، فألفى ان لا بد له من العودة تحت الكلة الورقية ، معربا لها عن صادق تقديره .

* * *

ونام نوما هادئا طويلا ، وكان النهار قد انتشر قبل ان يستيقظ . فلما صحا وجد افطارا معدا له . كان افطارا بسيطا كالعشاء الذى تناوله بالامس . ومع انه كان يحس الجوع فانه لم يأكل حتى الشبع خشية ان تكون مضيفته قد قدمت له أكثر ما لديها من الطعام ولم تبق لنفسها الا الاقل . ثم تأهب للرحيل . وعندما أراد ان يدفع لها مقابل ما قدمت له ، ومقابل كل الازعاج الذى سببه لها ، أبت ان تأخذ منه ، قائلة : **((ان ما تعين على أن أعطيك لا يساوى مالا ، وانما فعلت ما فعلت من قبيل التلطف فحسب . والذى ارجوه منك هو أن تحاول نسيان ما عانيت هنا من قلة الراحة ، وأن تذكر فقط حسن قصد هذه التى لا تملك شيئا تقدمه ..))**

وراح يحاول حملها على ان تقبل شيئا ما ، غير انه ألفى ان مضيه فى الالحاح ليس له من أثر سوى ايلامها ، فلم يجد بدا من أن يستأذنها فى الرحيل بكلمات أراد ان يعبر بها لها عن عرفان الجميل . ودعها وفى نفسه مرارة خفية ، فقد كان لجمالها ولرقة مشاعرها أثر أعمق من أن يستطاع التعبير عنه . وعينت له الطريق الذى يسلكه ، وصاحبته بعينيها وهو يهبط الجبل ، حتى توارى عن أنظارها . وبعد ساعة وجد نفسه فى طريق واسع كان قد ألف السير فيه من قبل ، وحينئذ أحس بضميره يؤنبه : **لقد نسي أن يذكر لها اسمه !..**

فتردد لحظة ، ثم قال فى نفسه : ((ما أهمية هذا ؟ انى سأكون فقيرا على الدوام .))

ومضى فى طريقه .

— ٤ —

مرت أعوام عديدة ، تغيرت خلالها أشياء كثيرة ، وتقدم الرسام فى السن . على انه قبل ان يبلغ خريف العمر كان قد ذاع صيته وعمت شهرته . بهرت اعماله الامراء ، فأخذوا يتنافسون فى بسط رعايتهم عليه ، فنمت ثروته وابتاع دارا جميلة فى مدينة الاباطرة . كان له تلاميذ من بين الفنانين الشبان يقطنون معه ويخدمونه فى كل الامور بينما يتلقون العلم منه ، وعرف اسمه فى كل أرجاء البلاد .

وذات يوم جاءت امرأة مسنة تطلب التحدث اليه . وعندما رآها الخدم فى ثياب رثة وظاهرها يشى بالتعاسة والبؤس ، حسبوها متسولة عادية ، فسألوها عن بغيتها بغلظة .. فأجابت بأنها لا تستطيع أن تبوح لغير سيدهم بسبب مجيئها ! فاعتقدوا أنها مخبولة ، واجابوها بما خيب املها .. قالوا لها : ((انه الآن ليس فى ((سيكيو)) ، ولا نعرف متى يعود !))

لكن المرأة المسنة عادت ، ثم عادت ، يوما بعد يوم .. واسبوعا تلو اسبوع .. وكان يقال لها فى كل مرة عذر غير صحيح : انه اليوم مريض ، او انه اليوم مشغول جدا أو انه اليوم فى صحبة اشخاص عديدين ولا يستطيع مقابلتك .. ألخ

وبرغم هذا ظلت تجىء كل يوم فى نفس الساعة ، وكانت دائما تحمل لفافة محكمة الربط بقطعة من القماش . وأخيرا رأى الخدم ان الافضل التحدث فى أمرها الى سيدهم ، فقالوا له : **((ان عجوزا نخالها سائلة بباب سيدنا ، جاءت أكثر من خمس عشرة مرة تطلب أن ترى مولانا ، وترفض ان تفصح عن السبب ، قائلة أنها لا تستطيع أن تبدى رغبتها الا**

لفخامتكم . ولقد حاولنا أن نجعلها تيأس من مقابلتكم ، اذ يبدو عليها انها مخبولة ، ولكنها لا تنقطع عن المجيء ، فرأينا أن نخبركم بالامر ، حتى نعرف ماذا ينبغى لنا عمله بعد الآن ! »

حينئذ اجاب السيد بحدة : « لماذا لم يخبرنى احد منكم بهذا من قبل ؟ » .. وخرج بنفسه الى الباب ، وتحدث فى رقة بالغة الى المرأة — وهو يذكر انه بدوره كان فقيرا — ثم سألها اذا كانت ترغب فى صدقة منه ؟

ولكنها اجابت بأنها ليست فى حاجة الى مال او طعام ، وانما ترغب فقط فى ان يرسم صورة لها ! ودهش لطلبها ، ودعاها للدخول الى داره . واذ ذاك دلفت المرأة الى الردهة حيث جثت على ركبتيها واخذت تحل رباط اللفافة التى أحضرتها معها . وما ان فعلت حتى أبصر الرسام ثوبا ثمينا غريبا من الحرير موشى بالذهب ، راقه لقدمه ، رغم انه بال فاقد اللون بفعل الزمن والاستعمال . انه بالاحرى بقايا ثوب خلاب من ثياب « الشيرابيوشى » فى الايام الخوالى .

وبينما كانت العجوز تبسط أجزاء الثوب ، طية بعد الاخرى ، وتحاول ان تلين خشونتها بأصابعها المرتعشة ، وثبت احدى الذكريات القديمة الى ذهن الفنان الكبير .. وثبت معتمة اول الامر ثم ما لبثت ان ومضت فجأة .. وفى ضوء هذه الومضة راى مرة اخرى البيت الجبلى المنعزل حيث استضيف دون مقابل ، والغرفة الصفيحية التى أعدت له ، والكلة الورقية والحمل المحترق فوق المذبح البوذى ، والمرأة الشابة ذات الجمال الخارق ترقص بمفردها فى الهزيع الاخير من الليل . وحينئذ شد ما كانت دهشة الزائرة العجوز حين رأته ، هو الذى يضعه الامراء موضع التجلة والتكريم ، ينحنى أمامها ويقول : **« أغفرى لى غلطتى اذ نسيت وجهك لحظة ، فان اكثر من أربعين عاما قد انقضت منذ آخر لقاء**

لنا . والآن فأنى اذكرك تماما . لقد استقبلتنى يوما فى دارك ، واعطيتنى فراشك الوحيد . ثم رأيتك ترقصين ، وقصصت على قصتك كلها . كنت راقصة « شيرابيوشى » ، ولم أنس اسمك . »

قال هذا ، فلم تستطع اول الامر لفرط ما عراها من الدهشة والخجل ، ان تجيب بشىء ، فقد كانت عجوزا أنهكتها كثرة الآلام ، وبدأت ذاكرتها تضعف . بيد انه تحدث اليها فى رقة متزايدة وذكرها بكثير من الامور التى قالتها له ، ووصف لها الدار التى كانت تعيش فيها وحيدة ، واخيرا تذكرت هى بدورها ، واجابت ودموع الفرح تترقرق فى عينيها : « ان ذلك الاله الذى يهبط الى أعماق قلوب الضارعين اليه هو بالتأكيد الذى قادنى .. ولكن عندما سعد بيتى الحقير بزيارة السيد الجليل ، لم أكن كما انا الآن . ويلوح لى كأنها معجزة صنعها سيدنا بوذا ان يذكرنى سيدى . »

ثم قصت عليه بقية قصتها البسيطة . لقد اضطرت مع مر السنين وبعد أن عضتها الفاقة ونال منها العوز أن تنتقل وحيدة وقد أثقلتها السنون مع بيتها الصغير الى المدينة الكبيرة حيث كان اسمها قد نسى منذ زمن بعيد . وآلمها كثيرا أن تفقد دارها ، والذى ما زال يؤلمها اكثر هو أنها ، وقد وهنت وهرمت ، لم يعد فى مقدورها ان ترقص كل مساء امام المذبح ارضاء لروح الميت الذى أحبته .. ولهذا فهى ترغب فى أن ترسم لها صورة وهى فى ثوب الرقص واوضاعه كى تعلقها امام المذبح . لقد صلت من أجل هذا بحرارة الى «كوانون» . واتجه تفكيرها نحو السيد لشهرته كرسام . ذلك انها ، من أجل الميت ، لا تريد الصورة عادية الصنع ، بل تريدها مرسومة بمهارة فائقة . وقد أحضرت معها بذلة الرقص آملة أن يتفضل السيد برسمها وهى مرتدية اياها .

استمع الفنان الى كل ما قالت ، وقد ارتسمت على شفتيه

ابتسامة رقيقة ، وأجابها : « **سيسرني كثيرا ان ارسم لك الصورة التي تريدين . ان على اليوم ان أنهى عملا لا يحتمل التأخير . فاذا حضرت غدا ، رسمت لك الصورة كما تريدينها ، وفى أكمل حلة استطيعها .** »

قالت : « لم أذكر بعد لسيدى الامر الذى يضايقنى أكثر من سواه . وهو انه ليس فى وسعى ان اقدم مقابل هذا الصنيع العظيم شيئا غير بذلة الرقص هذه . انها فى ذاتها عديمة القيمة ، ولكنها كانت فيما مضى غالية الثمن . وآمل أن يرغب سيدى فى أخذها ، حين يرى انها غدت طريفة ، فان رقصة «الشيرابيوشى» لم تعد ترقص الآن ، ورقصة «المايكو» التى ترقص هذه الايام لا تلبس لها بذلة من هذا النوع .

وابتدرها الفنان الطيب القلب قائلا : « ينبغى ان لا تفكرى فى هذا اطلاقا ، انى مغتبط بهذه الفرصة السانحة التى تتيح لى أن ارد جزءا يسيرا من الدين الذى لك على . وعلى هذا فغدا أرسمك كما تريدين . »

وانحنت امامه ثلاثا وأزجت له الشكر خالصا ثم قالت : « ليغفر لى سيدى ، فان لدى شيئا آخر أقوله ، وهو انى أود أن يرسمنى لا كما أنا الآن بل كما عرفنى سيدى فى صباى ! »

قال : « أذكر جيدا انك كنت بارعة الجمال » .. وغمرها سرور لهذه الكلمات ، وشع النور من أسارير وجهها المتجعد ، وهى تكيل له الشكر عليها . ثم قالت فى تأثر بالغ : « **اذن فان كل ما أملت فيه وصليت من أجله سيتحقق ! انى أتوسل الى سيدى ما دام يعرف شبابى الحقير ، أن يرسمنى لا كما أنا اليوم ، بل كما رآنى قبل أن يدركنى الكبر ، وفى صورة الانقة كما تفضل فقال : بحق السماء يا سيدى ردنى شابة من جديد .. اجعلنى أبدو جميلة ، لعلى أبدو جميلة لروح**

ذلك الذى أفتقده . انى ، عن غير جدارة او استحقاق ، ألتمس هذا . ان من أغنيه سيرى عمل سيدى ، فيغفر لى انى لم أعد استطيع الرقص ! »

ومرة أخرى رغب اليها الفنان الكبير الا تتشكك فى هـذا الامر ، وقال : « احضرى غـدا وسأرسمك . سأرسم لك صورة مطابقة تماما لما كنت عليه يوم رأيتك ، راقصة « الشيرابيوشى » الشابة الجميلة . سأرسمها بعناية ومهارة كما لو كنت أرسم صورة أغنى أغنياء هذه البلاد ! أحضرى ولا يخامرنك اى شك .. »

— ٥ —

وقدمت الراقصة العجوز فى الوقت المحدد ، ورسم الفنان الكبير صـورة لها على حرير ناعم أبيض .. غير أنها لم تكن صورتها كما تبدو لتلاميذه ، بل صورة تذكارية لها كما كانت ابان صباها : عينان براقتان كعيون الطير ، وقوام ممشـوق كالغصن النضير . وانها لتبدو فى الصورة بلباسها الحريرى الموشى بالذهب فاتنة خلابة ، كملك من ملائكة بوذا .



لقد اعادت ريشـة الفنـان السحرية النضرة التى ذوت ، وازهرت الجمال الذابل . واذ أتم الفنان الكبير الصـورة وذيلهـا بخاتمه ، أحكم شدها على قطعة من الحرير الثمـين ، وثبتها فى اطار من خشب الارز بمشابك سميكة من العـاج ، وجعل له حبلا من الحـرير يعلق به ، ووضـعها فى صندوق من

الخشب الابيض ، أعطاه للراقصة . ولعله قدم اليها أيضا منحة مالية ، وألحف بصدق فى الرجاء ان تتقبلها ، لكنه لم يستطع اقناعها بقبول عونه ، فقد قالت والدموع فى عينيها :

« كلا ، لست فى حاجة الى شىء . انى أريد الصورة فحسب . من أجل هذا صليت ، والآن استجيبت صلاتى ، وأنا اعرف انى لن أرغب فى أى شىء آخر فى هذه الحياة ، وانى اذا مت غير راغبة فى شىء ، فان دخولى طريق بوذا سوف لا يكون عسيرا . ان فكرة واحدة تحزننى ، وهى انى لا املك شيئا أقدمه لسيدى غير أدوات الرقص هذه التى هى فى الحقيقة قليلة القيمة ، والتى أتوسل اليه برغم هذا ان يقبلها ، وسأصلى كل يوم من أجل أن ينعم سيدى فى المستقبل بحياة رغدة سعيدة ، لقاء الفضل السابغ الذى أغدقه على . »

قال الرسام محتجا : « ما الذى فعلت ؟ الحق انى لم أفعل شيئا . أما عن ادوات الرقص فسأقبلها ان كان فى هذا مزيد من السعادة لك . انها ستعيد الى ذكريات محببة الى نفسى ، هى ذكريات الليلة التى قضيتها فى دارك ، تلك الليلة التى نزلت فيها عن كل أسباب راحتك من أجلى — ولم اكن جديرا بشىء من هذا — وأبيت ان تقبلى شيئا لقاء ما حملتك من مشقة . انى ما أزال أرى نفسى مدينا لك بهذا الصنيع . والآن قولى لى اين تقيمين حتى يمكننى ان ارى الصورة فى مكانها . ذلك أنه قرر فى نفسه ان ينتشلها من الفاقة والعوز .

بيد أنها اعتذرت فى تواضع جم ، عن الافضاء اليه بشىء يتصل بمسكنها ، قائلة أن المسكن أحقر من ان يقع عليه نظر رجل عظيم مثله ، ثم شكرته عدة مرات بانحناءات عديدة ، وخرجت تحمل كنزها وهى تبكى فرحا !

حينئذ استدعى الفنان الكبير احد تلاميذه ، وقال له : « اذهب سريعا فى أثر هذه المرأة ، واحذر أن تعرف انك

تتبعها ، واخبرنى اين تقيم » .. فتبعهـا الفتى دون ان تحس به .

وعندما عاد ، ضحك كمن يضطر الى قول شىء لا يسر سماعه ، وقال : « لقد تبعت يا سيدى هـذه المرأة خارج المدينة الى قاع النهر الجاف ، قرب المكان الذى يعدم فيه المجرمون . وهناك رأيت كوخا جد حقير ، وكان هو المكان الذى تعيش فيه . لكم هو يا سيدى مكان مهجور قذر ! »

فقال الفنان الكبير على الفور : **« غدا تصحبنى الى ذلك المكان المهجور القذر . سوف لا يعوزها ما حييت طعـام أو كساء ، أو أى سبب من أسباب الراحة . »**

ودهش الجميع ، فروى لهم قصة الراقصـة ، وبعد ان استمعوا اليها لم يجدوا فى كلماته غرابة .

— ٦ —

فى صباح اليوم التالى ، بعد سـاعة من بزوغ الشمس ، اتخذ الفنان الكبير — يصحبه تلميذه — طريقهما الى قاع النهر الجاف ، خلف منحرف المدينة الى ذلك المكان المهجور القذر .

ووجـدا مدخل المسكن الصغير مغلقا بضلفة خشبية واحدة طرقها الفنان عدة مرات دون ان يجيب أحـد ، واذ ألفى الضلفة غير موصدة من الداخل ، دفعها جانبا دفعا خفيفا ونادى من فى الدار من خلال الفتحة التى أحدثها . ولما لم يجب أحد قرر الدخول الى الكوخ .. وفى هذه البرهة ، أحس احساسا قويا خارقا بتلك اللحظة التى قضاها — وهو بعد تلميذ ناشىء — يلح فى طلب دخول الكوخ المنعزل بين التلال .

ودلف الى الداخل بمفرده ، بخطى وئيدة ، فوجـد المرأة راقدة متدثرة بخرقة بالية ، وكأنها نائمة . ورأى رفا غليظـا تبينه فاذا به المذبح الذى كان قد رآه منذ أربعين سنة خلت بمائدته والمصباح الصفيحى المضاء فى مواجهته . أما صـورة

الهة الرحمة ، بهالتها القمرية ، فقد اختفت ، وعلى الحائط المواجه للمذبح وجد منحته الانيقة معلقة ، وتحتها رسم للالهة « كوانون » ، التى لا يجوز شرعا ان يصلى لها أكثر من مرة واحدة ، اذ أنها لا تستجيب الا دعاء وحدا !

وكانت فى المسكن الكئيب أشياء قليلة اخرى : ملابس ، وعصا سائل ، واناء للتسول .. بيد ان الفنان الكبير لم يلق بالا لهذه الاشياء ، فقد كانت رغبته ايقاظ النائمة وادخال السرور الى نفسها .. فناداها مبتهجا باسمها ، مثنى وثلاثا .

.. وبغتة تبين أنها .. ميتة ! .. وعرته الدهشة حينما حدق فى وجهها ، فقد بدت أقل سنا ! .. كانت عذوبة غامضة ـ أشبه شىء بطيف شباب ـ قد عادت اليها .. فى حين رقت سطور الكآبة والحزن ، وبدت أقل وضوحا .. وتلاشت التجاعيد ، كأنما بلمسة من يد زعيم من زعماء الجن ، أقدر منه !


LADY NITHSDALE
CHEATS
THE GALLOWS
By
F. MATANIA
المرأة التي تحدّت ملكا !
للمؤرخ الفنان العالمي الصيت :
"فورتوناتو ماتانيا"

فى ثياب امرأة !

• كثيرا ما تكون المآسى من الضرورات لا بد منها للظفر بالنصر والسرور . وكثيرا ما تختلط هذه المآسى بمهازل مضحكة ، لا يدرى المرء معها أيضحك أم يبكى .. ولكنه فى الحالين لا يتمالك ان يشرد بذهنه قليلا عن الأحداث ، ليتدبر خلال هذه المآسى المضحكة أوجه العبرة والعظة !

ومن المآسى التى لم يكن منها بد للظفر بالنصر والسرور ، مصرع أقطاب الظلم وأعوان الاستعمار فى (العراق) . ومن المضحكات التى خالطت تلك المآسى ، ان رأس العتاة وأشدهم جبروتا وطغيانا ـ وهو « نورى السعيد » ـ حاول الفرار من مصيره متنكرا فى زى امرأة !.. وقد ذكرنا هذا الحادث بحادث مشابه وقع منذ أكثر من قرنين من الزمن ، ولكن بطله كان على العكس من نورى السعيد .. كان ثائرا نبيلا من ثوار (سكتلندا) ، أبى ان يكون عرش بلاده ـ الذى أدمج فى عرش انجلترا ـ مطية لملك أجنبى ، أتى به الانجليز دون ان يستشيروا السكتلنديين !

ولكنا لن نروى لك قصة هذا البطل ، والفارق الشاسع بينه وبين نورى السعيد .. ولن نروى لك قصة بطل آخر ـ أو بالأحرى بطلة ـ هى التى دبرت الخطة الرائعة لانقاذ النبيل الثائر ، بل سندع ذلك لقلم وريشة المؤرخ الفنان « ماتانيا » ، الذى قدمنا لك من قبل نماذج من تحفه الأدبية والفنية !

ثورة فى سكتلندا

• **تنطوى** النفس البشرية ـ بطبيعتها ـ على اعجاب بكل مغامر يجاهد ضد القدر ، لا سيما حين يقدم على مجهود مستيئس ، يحاول به دفع أحداث رهيبة تحدق به من كل جانب . ويبلغ هذا الاعجاب أقصاه اذا كانت الشخصية الموجهة ـ فى الصراع ضد القدر ـ امرأة ، تتحدى بحيلتها وجرأتها حيل الرجال وجرأتهم ، وتظفر فى النهاية بالنصر ! ولقد كانت **الليدى نيثسديل** من هذا الصنف من النساء ..

كانت امرأة نادرة الخصال ، نادرة المواهب .. نادرة الوفاء ، كذلك !

* * *

وقعت أحداث هذه القصة خلال سنتى ١٧١٥ و ١٧١٦ ، وهما أول عامين تربع فيهما « جورج الاول » على عرش انجلترا . ولم يكن أنصار آل ستيوارت قد استسلموا لليأس بعد . كما أن انتماء الملك الجديد الى أصل أجنبى - اذ كان من (هانوفر) بألمانيا - أوغر صدور الشعب ، لا سيما فى (سكتلندا) ، حيث كان القوم يضيقون باندماج بلادهم فى انجلترا . فما بالك وقد أصبح ممثل انجلترا ، والمسيطر عليهم ، أجنبيا عنهم !.. لذلك لم يكن ثمة عجب فى أن يجاهر أهل سكتلندا بالتمرد .

والمرء حين يغضب ، يتلمس أحيانا علة لغضبه غير العلة الحقيقية التى قد يكون مضطرا الى تكتمها والتستر عليها .. وكذلك فعل السكتلنديون ، فقد كانت الظروف تضطرهم الى تفادى الجهر بنقمتهم على ما أجبروا عليه من اخضاعهم لحكم ملك الانجليز ، فاذا بهم يتخذون لثورتهم حجة ، هى الغضب لآل ستيوارت ، والانتصار لسليلهم « جيمس ادوارد » ، المطالب بهذا العرش الموحد !

وما أكثر الارواح التى جاد بها أصحابها فى هذه الثورة !.. وما أكثر الذين اعتقلوا من جرائها !.. كان الجواسيس منبثين فى كل مكان ، وكانت الاوراق الخاصة والرسائل الشخصية تصادر وتفحص أدق فحص ، بحثا عن أتفه الكلمات التى يمكن أن تستغل فى اثبات الاتهام على الفرائس التى كانت تقع فى أيدى سلطات الملك « جورج الاول » .. ولم يفلت من المذابح التى أقيمت للثوار سوى نفر ضئيل جدا ، فان الملك لم يبد أية رحمة أو اشفاق ، سيما وأنه كان غريبا على البلاد ،

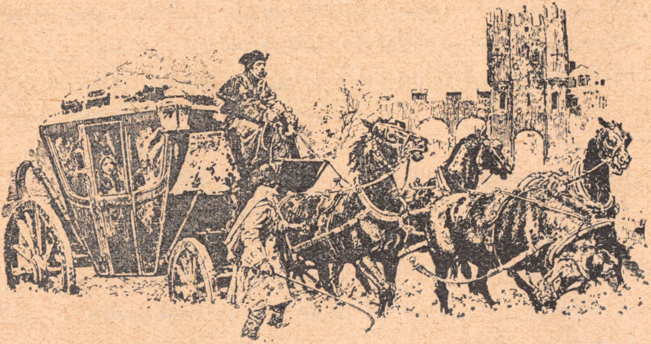
فلم يكن يميز بين مختلف الافراد الذين سيقوا الى المحاكمات، مهما تكن أمجادهم أو عراقة محتدهم أو مراتبهم .. وانما كان شعاره : « لماذا يبدد الوقت فى الجدل واللجاج ، ما دام من الممكن اعدام الجميع ؟ »

محكمة النقمة والبطش

• **ولقد** تضاعفت شدة هذه السياسة فى سكتلندا بالذات، حيث رفع كبير أشرافها لواء آل « ستيوارت » ، وحيث تجمع الانصار من كل جانب ، لحماية المطالب بالعرش اذا ما وصل .. فأثار هذا حنق « جورج الاول » ، وزاد من سخطه على الثوار السكتلنديين بوجه خاص ، فلم يأل جهدا فى التنكيل بهم .

وكانت الثورة قد تحولت – فى تلك الاثناء – الى حرب أهلية ، فأقام « جورج الاول » محكمة خاصة للثوار ، رأسها أقسى مستشاريه وأشدهم بطشا ، وقد قضت فى جميع القضايا التى عرضت عليها – تقريبا – بالاعدام ، معتبرة المتهمين « خونة » ! .. **وكان من أشهر الاشراف الذين دمغتهم بالخيانة العظمى ، وقضت باعدامهم ، اللورد « نيثسديل » ، الذى كان من أعرق لوردات سكتلندا وأرفعهم مكانة ، كما أنه كان زوجا لابنة قطب من أعظم الاقطاب هناك .**

وكان اللورد فى التاسعة والثلاثين من عمره اذ ذاك ، وقد قضى عدة أسابيع مع الثوار ، بعيدا عن زوجته الحسناء .. ومع أن زواجهما كان – ككل الزيجات فى الطبقة الراقية ، فى ذلك الحين – مدبرا كصفقة مالية ، الا أن كلا من الزوجين وجد فى أليفه ما حببه اليه ، فربط بينهما غرام قوى . لذلك فكانت « وينيفريد » الحسناء ملهوفة على أنباء زوجها الحبيب، فما أن بلغها نبأ وقوعه أسيرا ، ومحاكمته ، والحكم باعدامه ، حتى أسرعت تشد الرحال الى لندن .. ومع أن الجليد الغزير



.. وراحت الخيل تشق طريقها فى الجليد !
(عن لوحة بريشة الفنان ماتانيا)

كان قد تراكم فى الطرق وسدها ، الا أن عزيمة الزوجة المحبة الملهوفة أبت أن تعترف بعقبات أو عراقيل ، وبثت من روحها فى الخيل التى قادت عربتها ، حتى أن هذه الحيوانات راحت تشق سبيلها ، رغم أن الجليد كان يصل الى بطونها أحيانا !

الرجل الذى صمم الملك على اعدامه

• **واستطاعت** ليدى نيثسديل أن تصل فى النهاية الى لندن. وهناك لم تضيع وقتا فانضمت الى السيدات الرفيعات الشأن، اللائى كن يسعين لانقاذ أزواجهن وأشقائهن وآبائهن ، من نزلاء سجن « برج لندن » .. وهو السجن الذى كان مخصصا لذوى المحتد والمركز !

وكان أول ما خالج الليدى نيثسديل ، هو أن تقبل أى شرط يملى عليها ، وان تقبل الاقدام على أية تضحية ، فى سبيل انقاذ زوجها . **ولكنها ـ لحسن حظها ـ استطاعت أن تكبح**

جماح تحمسها قبل أن يقودها الى التهور .. ولو لم تفعل ، لكان من المحتمل أن تجود بأعز ما تملك ــ من مال وشرف ــ دون أن تظفر بغايتها ، لان أمر الثائرين المحكوم عليهم بالاعدام، كان فى قبضة الملك أولا وأخيرا !

غير أن تداركها حماسها لم يكن على حساب تصميمها على انتزاع زوجها من براثن الموت .. وكان عليها أن تتعرض لامتحان آخر من امتحانات ضبط النفس ، فاستطاعت أن تكبح جماح شوقها الى رؤية زوجها ، وأعرضت عن زيارته فى سجنه ، متعللة بأن صحتها لم تكن تحتمل مثل هذا اللقاء الاليم . وانصرفت أولا الى طرق أبواب كل من توسمت فيهم العون ، من ذوى السلطان .. ولكنها لم تحظ ــ أينما ولت وجهها ــ بغير جواب واحد : **ذلك هو أن الملك كان مصرا على اعدام الثائرين ، وكان لديه من الاسباب مايحمله على أن يجعل من اللورد نيثسديل بالذات ، مثالا يرهب كل من تحدثه نفسه بالثورة !**

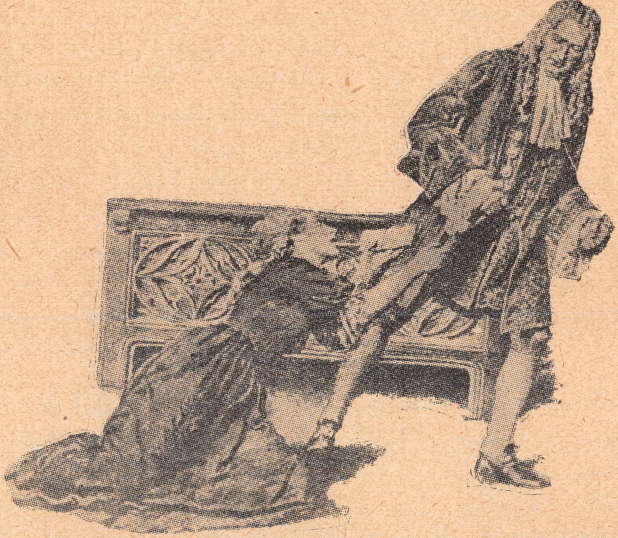
ولقد كان ثمة نفر من النبلاء يتوقون الى مساعدة السيدة المنكوبة ، ولكنهم لم يكونوا يجسرون على شىء ، خشية أن يغضب الملك عليهم !

تتعلق بمعطف الملك !

• **وكانت** المحاكمات تعقد تباعا فى قاعة (ويستمنستر) يوميا ، وتنتهى الى نهايات تقضى على كل بقية من أمل فى نفوس الزوجات والامهات والبنات اللائى كن يسعين لانقاذ أعزائهن .. كانت المحاكمات تتعاقب بسرعة ، ويقضى فيها بالاعدام .. وأصبح قانون « المتهم برىء الى أن تثبت ادانته » غير ذى وجود وبدلا من أن يهتم مجلس اللوردات بمساعدة المنكوبين ، أصدر قرارا بمنع قراءة التظلمات الخاصة بهم فى المجلس !

ولم يطل الوقت حتى ألح الشوق على ليدى نيشسديل ، فذهبت لزيارة زوجها فى سجنه .. **وكان لقاء أليما ، ولكن اللورد أصر على وجوب لن تكف زوجته عن أن تحنى رأسها أمام أحد من اجله .. وعندما زحزحته دموعها أخيرا عن اصراره ، وافق مشترطا أن لا تقدم التماسا لاحد غير الملك نفسه ..** وما كان يدرى أن الملك قد أمر بأن لا تقدم اليه التماسات ما ! بيد أن هذا الامر الملكى لم يكن ليثنى السيدة عن غايتها . ومن ثم فانها لم تكد تفارق زوجها ، حتى عكفت على كتابة التماس ، واصطحبت سيدة ـ تدعى مسز مورجان ـ لارشادها الى سبيلها فى البلاط .. ولعل قلم الليدى نيشسديل أقدر من أى قلم آخر على وصف هذه المرحلة من قصتها ، فقد كتبت الى شقيقتها تقول :

« وفى أول يوم علمت أن الملك سيهبط فيه الى قاعة الاستقبال ، اتشحت بالسواد ، وكأننى فى حداد ، ودعوت مسز مورجان فذهبت معها .. ومكثت معى متربصة فى حجرة تصل الجناح الملكى بقاعة الاستقبال ، وكان لا بد للملك من أن يمر خلالها . **فلما أقبل ، ارتميت على قدميه ، وأنبأته ـ بالفرنسية ـ بأننى كونتة « نيشسديل » المنكودة الحظ .. واذ تبينت أنه يهم بمواصلة السير ، دون أن يتسلم التماسى ، تعلقت بأهداب معطفه . وحاول أن يفلت منى ، ولكنى تشبثت بمعطفه ، حتى أنه جرنى من منتصف الحجرة الى باب قاعة الاستقبال .** وأخيرا أمسك أحد الامناء بى ، بينما خلص آخر المعطف من قبضتى .. وكدت أفقد حواسى ، وسقط الالتماس الذى كنت أحاول أن أدسه فى جيب الملك ، ولكن أحد رجال الحاشية التقطه . واذ علمت أنه سلمه الى الامين المرافق للملك فى مخدعه ، كتبت الى هذا ، وتوسلت اليه أن يقرأ على مسمع الملك التماسى ! »



.. وتشبثت بمعطفه حتى أنه جرنى الى الباب !
(عن لوحة بريشة الرسام ماتانيا)

امرأة ذات عزيمة جبارة

• **وقرأ** الامين الالتمـــاس ، فتحمس لابلاغه الى الملك ، وعززه فى ذلك أحد الدوقات ، ولكن مساعيهما لم تأت بثمرة .. غير أن الحادث الذى جرى لليدى نيثسـديل ، والمعاملة الجافية النابية التى صدرت عن الملك نحـوها ، كانت مدار حديث الحاشية فى ذلك المساء ، ولم تكن مما يشرف الملك .

ولكن شيئا من هذا لم يكن ليعـوق اقتراب يوم تنفيـذ

الاعدام فى المتآمرين . بل ان المجلس ـ الذى وكل اليه مصيرهم ـ اجتمع وقرر التعجيل بذلك ! وعبثا حاولت سيدات الطبقة العليا ـ من أقارب المدانين ـ أن يتذللن للملك، فان دموعهن لم تلن من قناته ، بل أنها لم تحرك فيه ساكنا .. وشهد مجلسا العموم واللوردات مناظر أخرى مؤثرة ، حين لجأت اليهما أولئك المتعوسات . ولكن المجلسين أقرا المصير المشئوم الذى قدر للثوار !

غير أن هذه الصدمات جميعا لم تنل من عزيمة ليدى نيثسديل . فلما يئست من الملك والبرلمان ، قررت أن تقدم على خطة تنم ـ فى حد ذاتها ـ على ما تستطيع مواهب الانسان أن ترقى اليه من حيلة وجرأة ، اذا ماشحذها الحب ، وألهبها العزم على الاستماتة فى الكفاح !

قبل الاعدام .. بيومين !

• **وكان** من المتبع ـ فى ذلك الحين ـ أن تباح زيارة المحكوم عليه بالاعدام فى سجن « البرج » لجميع الراغبين فى زيارته ، بدون أية رقابة اطلاقا ، على شريطة أن لا يزيد عدد من يلج زنزانته من الضيوف على اثنين ، فى المرة الواحدة .. وتستمر هذه الاباحة طيلة الايام السبعة السابقة على تنفيذ الحكم .

ولم يكن قد بقى على موعد الاعدام سوى يومين ، حين فكرت ((ايدى نيثسديل)) فى تحقيق خطتها . وقد استطاعت أن تقوم فى هذا الامد القصير بمعجزة فعلا ! وهنا نلجأ الى ما كتبته هذه البطلة بخط يدها ، فى وصف المغامرة الجريئة .. فبعد أن ذكرت أنها حضرت مناقشة حامية فى مجلس اللوردات ـ انتهت الى غير ما كانت تشتهى ـ كتبت تقول :

« .. وفكرت فى أن أنقل هذه المناقشة معكوسة الى السجانين ، فأسرعت الى « البرج » ، حيث اصطنعت المرح والاغتباط ، وأنبأت كل من مررت بهم من الحراس بأننى انما

قدمت أحمل الى السجين أنباء سارة .. وحملتهم على أن يطرحوا جانبا كافة الهواجس والشكوك ، اذ أوحيت اليهم بأن مجلس اللوردات قبل الالتماس ، ثم منحتهم شيئا من النقود ، ليشربوا أنخاب اللوردات وصاحب الجلالة . على أننى تعمدت أن يكون المبلغ صغيرا ، فقد خشيت ـ اذا أنا أجزلت لهم العطاء ـ ان أستثير ريبهم فى نواياى . كما قدرت أن المبلغ الصغير يذكى طمعهم ، ويحفزهم على أن يرتاحوا الى ويولونى خدماتهم فى اليوم التالى ، وهو اليوم السابق على الاعدام »

أربع نساء يقمن بمؤامرة جريئة !

• **وشغلت** ليدى نيثسديل فى نهار اليوم التالى عن زيارة زوجها ، اذ انصرفت الى استكمال الاستعداد لتحيقق خطتها . فلما كان المساء ، اطمأنت الى جميع اجراءاتها ، فاستدعت اليها مسز ميلز ـ صاحبة البيت الذى نزلت فيه ـ وأطلعتها على الخطة التى رسمتها لانقاذ زوجها ، وسألتها أن تصحبها الى سجن « البرج » ، حتى يتسنى للورد نيثسديل أن ينتحل شخصيتها حين يبارح سجنه ! كما استدعت مسز مورجان ـ التى كانت قد صحبتها الى البلاط يوم قدمت الالتماس ـ وشرحت لها الخطة ، كما شرحتها لوصيفتها الخاصة « ايفانز » ..

ولقد وصفت السيدة الجريئة هذه المرحلة من أعجب مغامرة شهدها سجن « برج لندن » ، فى السطور التالية ، التى أوردتها فى احدى الرسائل :

« كانت مسز مورجان ذات قوام مسرف فى الطول والنحول ، ومن ثم رجوتها أن تلبس تحت « حرملتها » حرملة أخرى ، أعددتها من قبل لمسز ميلز ، اذ كان على هذه أن تعير زوجى اللورد حرملتها ، حتى يخاله الحراس اياها ، عندما يخرج .. لا سيما وقد كانت مسز ميلز اذ ذاك حبلى ، فكان انتفاخ

جسمها يجعلها فى عود زوجى » .. و « الحرملة » ـ التى ذكرتها الليدى فى رسالتها ـ كانت عبارة عن وشاح فضفاض، ينسدل عن الكتفين الى العجزين ، وتتصل بأعلاه قلنسوة تحيط بالرأس والوجه .

واستطردت الزوجة المغامرة تقول : « واصطحبت السيدتين فى عربتى ، فلم أكف عن الحديث اليهما ـ خلال الطريق ـ حتى لا أدع لهما فرصة للتفكير فيما كنا مقدمات عليه .. وكانت المفاجأة ، والدهشة التى اعترتهما حين فاتحتهما بخطتى ، قد حملتاهما على أن توافقا على المساهمة فيها ، دون أن تفكرا قط فى عواقب هذه المساهمة ! »

زائرات .. فى الليلة الاخيرة !

• **وعندما** وصلت السيدات الثلاث الى « البرج » ، اصطحبت ليدى نيثسديل زميلتها « مسز مورجان » الى سجن زوجها ، اذ لم يكن من المباح أن يلج غرفة السجين أكثر من شخصين فى آن واحد . وعندما بارحت مسز مورجان الحجرة ، تركت خلفها « الحرملة » التى كانت معدة لمسز ميلز ..

وتمضى الليدى فى حديثها : « وقدتها الى الدرجات الخارجية للسجن ، وأنا أوصيها ـ بصوت مرتفع ـ أن تعجل بارسال وصيفتى كى تغير لى ثيابى ، حتى لا أتأخر عن الذهاب الى مجلس اللوردات ، لمواصلة السعى من أجل زوجى ، اذ كانت الليلة هى آخر الليالى التى يمكن استغلالها .. وودعتها ، ثم استدعيت مسز ميلز ، التى حرصت على أن ترفع منديلها الى وجهها .. وكان ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة لامرأة جاءت تودع صديقا من معارفها الوداع الاخير ، فى الليلة السابقة على اعدامه . **وكنت قد أوصيتها بذلك ، حتى يتسنى لزوجى أن يغادر السجن ووجهه متوار خلف منديل ، دون أن يستثير أى**

ريب ، ودون أن يتاح لاحد أن يكشف ملامحه ! .. ولقد كان حاجباها بلون الرمل ، ولكننى كنت قد أعـددت دهانا بلون حاجبيها لاصبغ به حاجبى اللورد ، كما ابتعت قلنسـوة من الشعر الزائف ، بلون شعرها .. وطليت وجه اللورد بالبياض ، وخضبت وجنتيه بالحمرة ، كى استر شعيرات لحيته ، اذ لم يكن ثمة متسع لازالتها !

« وتركنى الحراس البائسون — الذين أكرمتهم فى اليـوم السالف — أروح باحدى الصاحبتين وأعـود بالاخرى ، دون رقابة شديدة كما كان عهدهم من قبل .. وكان أكثر ما أغراهم بذلك ، ما ذكرته لهم فى اليوم السابق من أن السجين سيظفر بالعفو .. »

.. واجتاز السجين أبواب « البرج » !

• **وفى** غرفة السجين ، خلعت مسـز ميلز حرملتهـا ، وارتدت « الحرملة » التى كانت مسز مورجان قد خلفتهـا وراءها . ثم انصرفت فرافقتها ليدى نيثسديل . وكان عليهما أن تجتازا غرفة غصت بالناس ، فقالت الليدى لزميلتها بصوت مسموع : « أرجو أن تسرعى ما استطعت ، فتـوفدى لى وصيفتى . لكم تأخرت ! .. ما أظنها الا قد نسيت أن لا بد لى من الذهاب الى مجلس اللوردات ، وان كل شىء سيذهب أدراج الرياح اذا أنا أضعت الفرصة الليلة ، فغـدا ينتهى الامر ! »

وهنا نترك الوصف — مرة أخرى — لليدى نيثسديل :

« وعدت الى « لوردى » فأكملت اعـداده فى الزى الذى اخترته له . وكنت قد حرصت على أن لا تبكى مسـز ميلز أثناء خروجها — كما فعلت عند قدومها — وذلك حتى أوقـع فى روع الحراس ، اذا ما رأوا زوجى رافعا المنديل الى عينيه ، أنه نفس السيدة .. لا سيما وأنه سيكون فى عين ثيابها !

« وعندما فرغت من مهمتى ، لاحظت أن الظلام أخذ يشتد ، وخشيت أن توقد الشموع فى السجن ، فيكشف ضـوؤها الامر ، ومن ثم عولت على التعجيل باخراج اللورد من السجن .. وتقدمته ممسكة بيده ، بينما رفع هو منديلا الى عينيه ، وكأنه سيدة تبكى تأثرا وتحسرا ، بينمـا رحت أنا أسرى « عنها » ، و « أذكرها » بأملنا فى الله ، وأنعى على وصيفتى تأخرها . ثم قلت : « اسرعى بحق الله يا عزيزتى ، واحضرى الوصيفة .. رافقيها الى هنا بنفسك ، فاننى فى أشد الاستياء ، اذ أن الفرصة الغالية توشك أن تفلت ! » .. وفتح الحراس الباب ، فرافقت « زميلتى » هابطة السلم « معها » ، وأنا ألحف فى الرجاء كى تسرع باحضار وصيفتى . وحرصت — ونحن نجتاز ساعة «البرج» — على أن أدع زوجى يسير أمامى خطوة أو اثنتين — وانا ممسكة بيده — وذلك حتى أحجب مشيته عن الحراس ، فلا يفطنوا الى أمره .. وخلف الباب الخارجى ، كانت وصيفتى تنتظر ، فأسلمتها اياه ! »

وحيدة .. فى « زنزانة » السجين !

• **ومن** هذا الوصف نستطيع أن نلمس مدى دقة هـذه الزوجة الوفية ، حتى أنها لم تغفل أتفه التفصيلات ، فى الخطة التى رسمتها لانقاذ زوجها .

ولم تكن « ايفانز » — وصيفة السيدة — أقل جرأة وشهامة من مولاتها .. ولسنا نقول هذا من قبيل المجاز ، وانما نؤكد به الواقع الذى حدث . فمن الغريب أن الرجل الوحيد الذى كان مساهما فى المؤامرة حتى هذه المرحلة — وهو زوج مسز ميلز — لم يكد يرى اللورد نيثسديل خارجا من « البرج » ، حتى ذهل وارتبك ، وتولاه الخوف . وبدلا من أن يتقـدم لفوره فيقوده الى ملجأ أمين ، اذا به يسمر فى مكانه ، ولا يحير حـراكا !

ولمحت « ايفانز » ذلك ، فسرعان ما أسعفتها قريحتها .. ولم تقل للورد نيثسديل شيئا ، حتى لا تزعزع طمأنينته ، وانما قادته الى مسكن بعض أقارب لها ، وتركته فى رعايتهم ، ثم عادت الى « البرج » ، فألفت مستر ميلز لا يزال فى مكانه ، وقد استرد رباطة جأشه ، فسرعان ما تعاونا على نقل اللورد الى ملجأ أمين .

وكانت الليدى نيثسديل - فى تلك الاثناء - تمثل مرحلة أخرى من خطتها .. وكانت مرحلة محفوفة بالمخاطر ، اذ ان أتفه خطأ فيها كان كفيلا بأن يكشف الخطة كلها ، ويقلبها الى مأساة .. فلقد راحت تمثل دورا مزدوجا .. كانت تتكلم - فى الغرفة التى كان زوجها يشغلها - وكأنه لا يزال فيها ، وكأنها توجه اليه الخطاب ، ثم تصطنع صوته وترد على حديثها ! .. وكان لا بد لها من ذلك ، لتفسح لزوجها وقتا كافيا ينأى فيه عن السجن ، ويستقر فى الملاذ الامين . فضلا عن أنها كانت قد تظاهرت بايفاد السيدة التى ودعتها - أى زوجها المتنكر فى ثياب النساء - لاحضار الوصيفة ، فلو أنها غادرت السجن سريعا لاثارت الريب

وأخيرا ، غادرت البطلة السجن

• **ومرة أخرى** ، نعود الى ما كتبته ليدى نيثسديل بنفسها ، فى وصف ما جرى :

« وما لبثت أن وجدت أن الوقت قد آن للانصراف ، ففتحت الباب نصف فتح ، ووقفت فيه ، بحيث يستطيع الجالسون فى الغرفة المجاورة - وجلهم من زوجات الحراس - أن يسمعوا قولى ، دون أن يروا ما وراء الباب .. فودعت زوجى بصوت مرتفع ، وقلت ان لا بد من أن أمرا غير عادى عاق « ايفانز » عن أن توافينى ، رغم ادراكها أهمية الفرصة

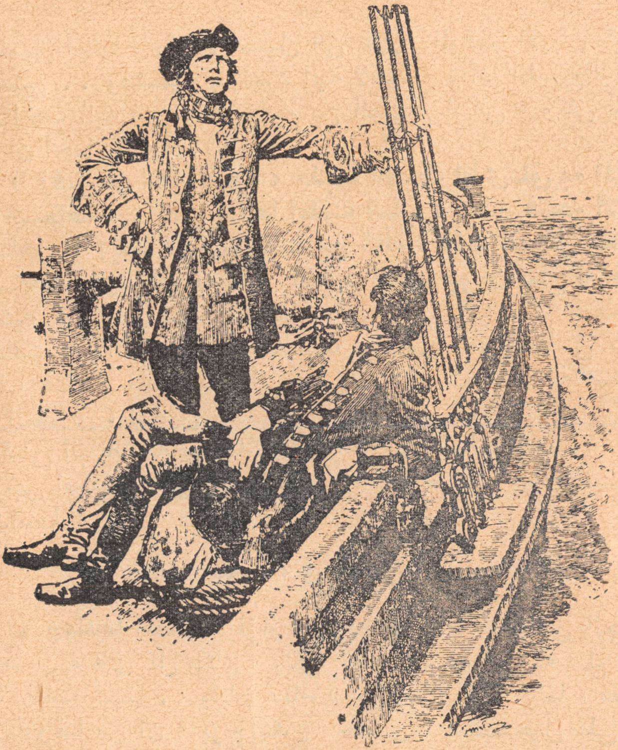
وضيق أجلها ، وان لا سبيل الى تدارك الموقف الا بأن أذهب بنفسي .. وعشمته بأن أعود اليه لاطمئنه ، اذا انفسح الوقت ، أو أخف اليه فى ساعة مبكرة من الصباح التالى ، وكلى ثقة فى أن أحمل اليه أنباء طيبة .

« وقبل أن أغلق الباب ، جذبت الخيط الذى علق به المزلاج « السقاطة » ، حتى اذا ما أغلقت الباب ، تعذر فتحه الا من الداخل . وبعد أن استوثقت من قفله ، قلت للموكل بخدمة السجين - وأنا أمر به - أن اللورد كان يرجو أن تتاح له خلوة كافية كى يؤدى الصلاة ويتلو بعض الادعيات . ثم هبطت ، ودلفت الى الخارج ، فاستدعيت احدى العربات التى كانت تقف هناك ، فاستقللتها الى مسكنى ، حيث كان ثمة صديق فى انتظارى ، ليحمل ملتمسا جديدا الى مجلس اللوردات .. ولكننى أنبأته بأنه لم تعد ثمة حاجة الى تقديم الملتمس ، لان زوجى أصبح بمأمن خارج « البرج » ، بعيدا عن قبضة أعدائه ! »

لقاء .. فى باريس !

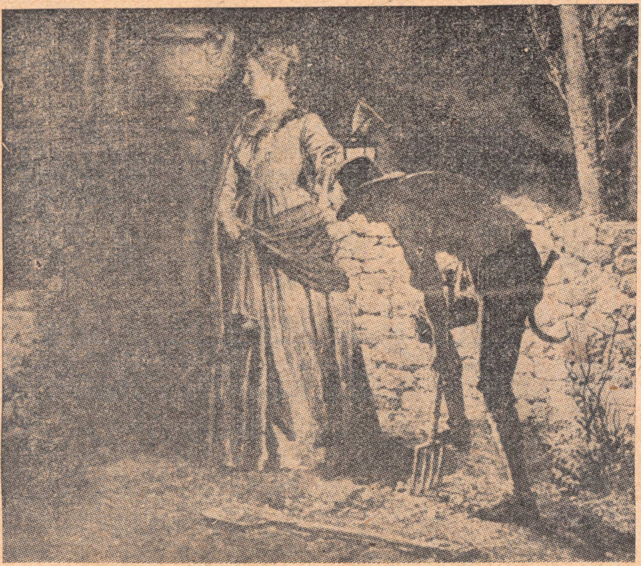
. **وعندما** اكتشف فرار اللورد نيثسديل ، انطلق الجنود يبحثون عنه فى كل مكان ، ولكن خطة الزوجة البارعة ، لم تكن قد أغفلت شيئا .. وكان هياج « جورج الاول » بالغا ، فقد كان موقنا من أن « برج لندن» حصين ، يستحيل على أى مخلوق أن يفلت منه .. ونسى جلال مركزه ، فانطلق يسب ويصرخ ويهرف كالمعتوه ، ورمى المسئولين عن السجن بالتآمر ضده ، فما كان من المعقول أن يتمكن اللورد نيثسديل من الفرار ، ما لم تكن ثمة خطة واسعة ، دقيقة !

ولم ينصت الى تفصيلات ما حدث ، الا بعد أن فثأ غيظه وسخطه .. ولكن هياجه عاد أشد مما كان ، حين تبين أن صاحبة الخطة ومنفذتها كانت سيدة .. هى ليدى نيثسديل !



واستقل اللورد يخت السفير الى فرنسا
(عن لوحة بريشة الفنان ماتانيا)

وبادر فأصدر أوامر قاسية تجعل من المســـتحيل على أى سجين آخر أن يتمكن من الهرب ، كما أمر بالقاء القبض على المرأة التى تحدت ارادته ، وحطت من سمعة سـجن « برج لندن » ، وانتزعت من مخالبه الفريسة التى كان حريصا كل



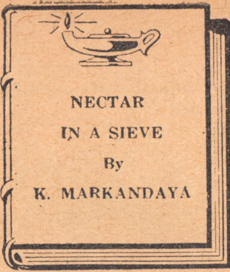
واستخرجت الوثائق التى كانت قد دفنتها فى أرض الضيعة .. (عن لوحة للفنان ماتانيا)

الحرص على أن يسلمها الى الموت .

وكان اللورد نيشسديل قد تمكن فى تلك الاثناء ـ بمعـونة سفير البندقية فى لندن ـ من أن يصل الى الساحل ، فيستقل يخت السفير الخاص ، ميمما شطر فرنسا .. أما زوجتـه ، فقد أسرعت الى ضيعة لهم فى الشمال ، فكانت قد دفنت فى أرضها بعض الوثائق الهامة والاموال ، فاستخرجت هـذه الاشياء من مخبأها ، وأسرعت فلحقت بزوجها فى باريس !





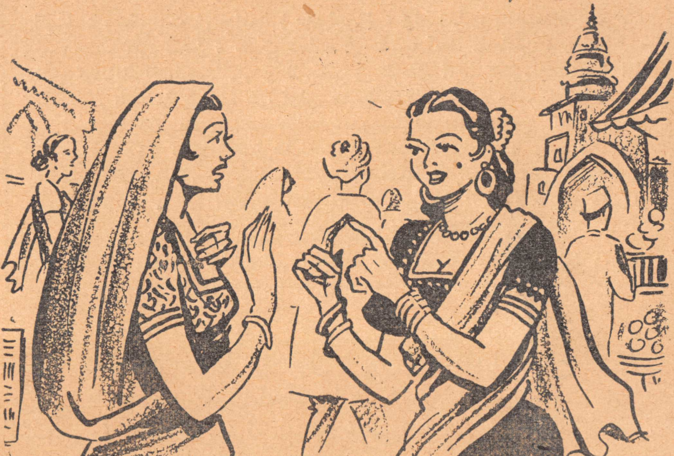




أمل لا يموت!

(خمر في غربال)

للقصصية الهندية المعاصرة: "كمالا ماركاندايا"



تلخيص : محمد بدر الدين خليل

أقدر روائية هندية فى أيامنا !

◆ يقول الشاعر الانجليزى « كولريدج » :



« عمل بلا أمل ، كخمر فى غربال ... وأمل بلا هدف ، لاسبيل له الى البقاء ! » .
وعلى هذا البيت بنت « كمالا ماركاندايا » – التى تعتبر فى طليعة كتاب القصة المعاصرين فى الهند – قصتها هذه ، تصور فيها الحياة الهندية فى مرحلة الانتقال من البداوة الزراعية ، الى الحضارة الصناعية .. وقد جعلت بطلتها امرأة ريفية ساذجة ، لم تفقد قط ايمانها بالآلهة وبالحياة ، ولا حبها لزوجها وأولادها ، رغم مالاقته من تجنى الناس الذين يعيشون فى مجتمعها ، ورغم ماكانت مضطرة اليه من كفاح لا ينتهى ضد الطبيعة ، وضد تقلبات الزمن ، وضد الفقر المدقع .

وقد ولدت الكاتبة « كمالا » فى اسرة من البراهمة فى جنوب الهند ، وتخرجت فى جامعة (مدراس) ، واشتغلت بالصحافة فترة ، ثم رحلت الى لندن ، حيث عملت فى مكتب أحد المحامين ، وانصرفت الى كتابة القصص .. و « خمر فى غربال » – التى يقدمها لك « كتابى » فيما يلى – هى أولى قصصها الطويلة ، وقد تلقاها النقاد فى انجلترا وامريكا بضجة هائلة ، ووصفوها بأنها أروع كتاب صدر فى سنة ١٩٥٤ ، كما اختارها نادى « كتاب الشهر » – وهو من أكبر الهيئات الادبية فى أمريكا – لتكون فى مقدمة الكتب التى نشرها فى سنة ١٩٥٦ . كما أجمع أهل الأدب على ان « كمالا » من أقدر الروائيين الهنود الذين يكتبون بالانجليزية ، فى أيامنا هذه !

ولعلك بعد كل هذا مشوق الى قراءة القصة، فلنخل بينك وبينها!

أخال أحيانا – فى بعض الليالى – أن زوجى يعيش معى فى أمان ، كما كان عهدنا من قبل . ثم لا يلبث الصباح أن يأتى ، فيرحل طيفه مع فلول الظلام ، فى هدوء ورفق .. ومع مطلع الشمس ، يفد ابنى ، ثم ابنتى ، ثم « بولى » ، الطفل الذى لم أنجبه ولكننى تعلقت به وأغريته على أن يهجر موطنه الى

موطنى .. أنه لم يعد طفلا ، ومع ذلك فاننى لم أعـد أخشى أن يتركنى !

وفى الايام الصافية ، تنقشع الغمة عن عينى بعض الشىء ، فأرى على البعد المبنى الذى يعمل فيه ابنى مع « كينى » .. الشباب والكهولة ! .. انه مبنى لم يشيده المال وحده ، وانما رفعت صرحه الآمال والتراحم ، فليس أعـرف بذلك منى ، أنا التى شهدته وهو يرتفع حجرا فوق حجر !

كانت شقيقاتى الثلاث قد تزوجن قبلى .. فأقيم للاولى عرس استمر أياما عديدة ، وحملت معها الى زوجها كثيرا من المصوغات التى تليق بمقام ابنة زعيم القرية .. وكانت الثانية تدانيها حظا ، وان لم تبلغ ما بلغته .. أما الثالثة ، فلم يشهد عرسها سوى أقرب الاقارب ، ولم تنل من الحلى سوى ماسة واحـدة . **وكانت أمى تحتوى وجهى بين راحتيها وتقول : « ترى ما حظك يا آخر بناتى ؟ .. أن توفير مهور لاربع بنات، أمر يفوق مقدرة أى رجل ! »** . فكنت أقول لها : « لسوف أحظى بعرس فخم يذكره كل امرىء ، اذا ما نسى كل ماعداه ! .. أو ليس أبى رئيس القرية ؟ » . ولكن أخى الاكبر كان يقول محتدا : « لا تتكلمى كالحمقى ، فلم يعد لرئيس القرية اعتبار . انما هناك محصل يفد الى هـذه القرى مرة فى كل عام ، ليجمع الضرائب .. وقد آل النفوذ والسلطان الى هذا المحصل ، والى الذين يعينونه ! »

ولقد شعرت ـ حين سمعت هذا لاول مرة ـ كأن جدارا كنت استند اليه قد انهار ، فغشينى الخوف .. **فلما نضجت تبينت أن مكانة أبى كانت قد تضاءلت كثيرا ، ولعل هذا هو الذى حال دون أن أظفر بزوج غنى ، فزففت الى مزارع « مؤاجر » ، كان فقيرا الا من الحب والرعاية يغدقهما على زوجته التى لم تكن قد تجاوزت ربيعها الثانى عشر** . ولقد ابتأست أمى ، ورثى أقاربى لحظى ، ولكنى كنت بلا جمال ولا

مال ! .. ولقد حزنت أنا الاخرى ، ولكن زوجى سرى عنى ، وحملنى فى رحلة طويلة ـ فى عربة يجرها ثوران ـ الى بيتى الجديد . ولقد غشينى النوم أثناء الطريق ، فلما أيقظنى عند نهاية الرحلة ، وجدتنى أمام كوخ حقير من الطين ، على مقربة من حقل أرز أغرقته المياه ـ يجاوره كوخان أو ثلاثة على شاكلته ـ فوددت أن أبكى ، وتهالكت على الارض . فاكفهر وجه « ناثان » ـ كما سأطلق على زوجى ـ وأقبل يرفه عنى ، ويمنينى بأعذب الامانى !

ان الحجب تنحسر أحيانا عن عينى ، لثوان قلائل ، فأرى صور الماضى وأطيافه عن كثب .. وانى اليوم لارى الجدول الذى سرت بمحاذاته يوما ـ بعد أسبوع من زواجى ـ أبحث عن بقعة واسعة فى مجراه ، أغسل فيها ثيابى .. ومشيت ساعة قبل أن أعثر على بقعة مناسبة . فلما غسلت الثياب ، نشرتها على الضفة الرملية لتجف . واذ ذاك لمحت « كالى » ـ زوجة جارنا ـ مقبلة فى صحبة امرأتين لم أرهما من قبل ، وقد حملن حزما من الثياب .. وكانت « كالى » واحدى المرأتين تحملان طفلين ، أما الثالثة فكانت حبلى .. تلك هى « كونثى » ، صغراهن جسما وسنا . وقد قالت لى « كالى » ، وهى تشير الى بطن كونثى : « هذا طفلها الاول ، ولكنه ليس الاخير ، فها أنتذى ترين أن زوجها لا يضيع الوقت سدى ! »

وهتفت « ياناكى » ، وهى الزميلة الاخرى : « صه يا امرأة .. ألا تخجلين من هذا الكلام أمام فتاتين صغيرتين ؟ » . فكان جواب كالى : « **أليستا متزوجتين ؟ .. ان كونثى حامل ، ولن تلبث هذه الجارة الجديدة أن تغدو مثلها .. فهذا دأب الرجال جميعا !** » .. ثم التفتت الى ، قائلة : « ألست أنت روكمانى ؟ .. ان القرية بأسرها مشوقة الى رؤيتك ، لفرط ما أثاره زوجك من ضجيج بشأنك .. لقد بنى الكوخ بيديه ، وأبى على زوجى أن يساعده ! »

وكان هذا النبأ جديدا على ، فشعرت بزهو وفخار اذ بلغ من اعتزاز « ناثان » بى ، ان بنى الكوخ بيديه !

* * *

ما الذى ترجوه المرأة أكثر من شمس تشرق عليها ، وحقول خضراء يبهج مظهرها العينين ، وزوج يرى فيها من الجمال ما لم يره انسان سواه من قبل ، وقدر وافر من الغلال المختزنة للايام السود ، وسقف يظلها مع زوجها ؟ ! .. لهذا أخذت أمضى فى الحياة بقلب مغرد . فكنت أستيقظ مع مطلع الشمس ، وآوى الى مخدعى - فى نهاية النهار - مغتبطة . حقا أن زوجى لم يكن يملك الارض التى يفلحها - كما كان شأن أبى - ولكنه كان وثيق الامل فى أن يمتلكها يوما ، فضلا عن أننا كنا نمتلك محراثنا ، والثورين اللذين كانا يجرانه ، وعنزة مدرارة اللبن . وكنا ندخر من كل محصول ، كما كانت لدينا وفرة من الطعام .

وكنت أختلف الى سوق القرية مرة أو اثنتين فى الاسبوع ، لابتاع ما نكون بحاجة اليه ، ولاختلط بأهل الجيرة ، فقد كانوا ذوى لطف وكرم . وكانت « ياناكى » و « كالى » تزوراننى من آن الى آخر ، لتتبينا كيف كنت أمضى فى الحياة . أما « كونثى » فانها سرعان ما أصبحت عاجزة عن أن تفعل أى شىء ، اذ أثقلها الحمل ، وكانت نحيلة ، رقيقة العود ، فأخذت أساعدها فى شؤون بيتها . وكانت تختلف عن غيرها من النسوة ، اذ كانت هادئة ، متحفظة ، فكنت أشعر بأن ثمة حاجزا بينى وبينها ، لا سبيل الى التغلب عليه رغم كل ما كنت أبذل من جهود ! **وقيل أنها تزوجت شخصا أقل منها مكانة ، كما قدر لى أنا الاخرى .. ولكنها كانت جميلة ، فى حين اننى كنت عادية الحسن . وكنت هانئة بزوجى ، فما كنت لاجد من يفوقه لطفا .. أما هى ، فمن المحتمل أنها لم تلق مثل حظى .**

ولعل سذاجتى وجهلى هما اللذان جعلانى أسعد بنصيبى ، فرحت أساعد زوجى جادة ، وأشعر بزهو كلما أطرى جهدى .

وعندما تقدم بى الحمل ، أصر زوجى على أن أتجنب العمل الشاق ، فأخذت اعنى بنفسى ، وتحولت أشغل وقتى بالكتابة التى كان أبى قد علمنيها رغم معارضة امى .. وكان النـاس يقـولون أن أبى لم يعن بتعليمى الا لانه كان يحب أن يـكون أبناؤه فوق مستوى أبناء غيره . وكثيرا ما كان زوجى يجلس الى جوارى ، ويرقبنى وقد ضم حاجبيه .. ولكنــه كان لا يلبث أن يعود الى بشاشته ويقول : « انك ماهرة ياروكو ! »

وكنت أعنى أحيانا بزراعة بعض الخضر فى قطعة صغيرة من الارض ، خلف الكوخ ، وأشعر بالزهو كلما رأيت نباتا منها قد نما واستطال . وبينما كنت اقيم بعض اعواد النبات يوما ، اذا بى ارى حية بينها .. ولست أدرى لم لم تلدغنى وقـد مستها أصابعى ، ولـكن الذى ادريه هو اننى سـمرت لحظـة فى مكانى ، وقد تقلصت أصابعى ، ثم أسرعت أجرى وانا اصرخ فى فزع ، فخف زوجى الى ، وقتل الحية .. ولكن هــذه التجربة كانت سببا فى أن المخاض واتانى مبكرا شـهرا عن موعده . **ووضـعوا الوليـد بين ذراعى ، فاذا به بنت .. وأشحت عنها بالرغم منى ، وانسابت الدموع من عينى ، فما حاجة المرأة الى أن يكون وليـدها الاول بنتا ؟ ! .. ان الولد يحمل اسم أبيه ويساعده ، اما البنت فانها لاتلبث ان تهجره ، بعد أن تحمل معها من ماله صداقا !**

وأسمينا ابنتنا « ايروادای » ، تيمنـا باسم نهر من أعظم أنهار آسيا ـ فقد كان المـاء أغلى شىء لدينا ـ ولكنا اعتـدنا أن ندللها باسم « ايرا » .. وكانت غاية فى الجمال ، حتى لقد عجب الناس من أن تكون ابنتى ، ولم ير أحد ـ سوى زوجى ـ أنها تشبهنى فى شىء ! .. وقد راحت تنمو بسرعة ، فلم تلبث أن حبت على أربع ، ثم اخذت تستوى على قدميها ، وشرعت

تمشي . ولم تجشمني أية متاعب ، بل انها كانت تجلس فى الشمس ، وتلعب وحيدة ، وهى هانئة بذلك .

وكان خليقا بى أن أكون سعيدة ، لو لم يداخلنى الهم لان كل الجارات كن يضعن أطفالا فى كل عام ، بينما وقر فى نفسى ونفس « ناثان » — وان لم ينبس ببنت شفة — ان « ايرا » قد تكون طفلنا الاوحد ! .. وكنت أصحب أمى — كلما زرتها — الى المعبد ، فنروح نصلى وندعو ، حتى يتولانا التعب . ولكن الآلهة كانت فى شغل عنا ، فأخذت السنون تتتابع وليس لنا سوى طفل واحد .. وهذا الطفل بنت !

وعندما انقضت ست سنوات ، أصيبت أمى بالسل . وكانت العلة قاسية ، فاستدعى أبى طبيبا كان قد استقر فى القرية حديثا ، ولم يكن ثمة من يعرف من أين أتى ، ولكن أبى كان على استعداد لان يستعين بالشيطان نفسه لتخفيف أوجاع أمى . وهكذا قدر لى أن ألتقى لاول مرة بكينينجتون — أو « كينى » كما اعتاد الناس أن يدعوه — فى بيت خيم عليه الاسى . وكان طويل القامة ، ناصع البياض ، ذا عينين غائرتين بلون زعانف السمكة ، فلا هما خضراوان ، ولا هما زرقاوان .. ولم أملك سوى ان احملق فيه وقد غفلت عن كل ما حولى ، اذ كانت هذه أول مرة أرى فيها رجلا ابيض عن كثب .. حتى نبهنى اخيرا ، قائلا : « عندما تفرغين من الحملقة ، أرجو ان ترشدينى الى سرير امك ! »

وكانت أمى تدرك أن لا سبيل لانسان الى انقاذها .. ولم يحاول الطبيب — من ناحيته — ان يخدعها أو يكذب عليها ، ومن ثم اطمأنت اليه ، وأخذت ترتاح الى زياراته والادوية التى كان يقدمها اليها .. فلما قضت نحبها أخيرا ، لم نتألم من أجلها — وان حزنا عليها — لاننا ادركنا انها ارتاحت !

وذهبت لاشكر للطبيب جهوده ، قبل أن أبرح القرية .. وفى تلك الزيارة ، راح يستدرجنى ليعلم سر الحزن الذى كان

يطالعه من عيني دائما . **ولم ألبث أن فضفضت اليه بما كان يثقل فؤادى ، لاننى لم أنجب سوى ابنة واحدة ، معاننى كنت أتوق الى أن أنجب ولدا . فقال الطبيب : ((قد أستطيع ان أساعدك .. تذكرى اننى لا أعد بشىء ، ولكنى أرجو !)) .**
وكنت قد ألفت أن أثق به ، وان ارتاح اليه ، ولكن الهواجس تكأكأت على اذ ذاك ، فغشينى خوف مباغت منه . ولكنه قال فى خشونة : « انك جاهلة غبية .. لن أوذيك ! »

وفررت منه ، ولكننى لم ألبث أن عدت متوسلة اليه أن يفعل كل ما فى وسعه !

* * *

وكانت « ايرا » فى السابعة من عمرها ، عندما وضعت طفلى الذكر الاول ، ففرحت به ، اذ كانت المسكينة تعانى الوحدة طيلة الاعوام التى انقضت من عمرها . وبلغ الابتهاج بأبى أن وفد على قريتنا — رغم مشقة الرحلة ، وكبر سنه — ليحمل حفيده بين ذراعيه .. أما زوجى ، فأبى الا أن يطلع القرية كلها على حظه ، فدعا أهلها كافة الى وليمة أقامها فى اليوم العاشر لمولد الطفل . ولكن الشخص الوحيد الذى تمنيت أن يحضر تلك الوليمة لم يأت . وأوفدت فى طلبه ، فقيل : « أنه يأتى ويروح دون أن يدرى أحد سر رحيله أو مقصده ! » .. **ذلك هو الدكتور ((كينى)) . على أننى لم أجرؤ على أن أصارح زوجى بما كان للطبيب من فضل ، فما كنت أدرى كيف يكون شعوره حين أنبئه بأننى وضعت نفسى فى يدى رجل أجنبى .. وقلت لنفسى : ((أى ضرر فى أن لا يعرف ؟ .. اننى لم أكذب عليه ، على أية حال ، فالصمت ليس كذبا !))**

وفى الاسرات التى على شاكلة أسرتنا ، يعتبر الطفل الاول محظوظا ، ولكن نصيب كل طفل من الزبد واللبن والارز يأخذ فى التضاؤل كلما ازداد عدد الاطفال . وهكذا قدر لايرا —

ابنتنا الاولى - ولارجون ، ابننا الاول ، أن يجدا غذاء موفورا .. ولكن مواردنا أخذت تعجز عن أن تكفل لنا القوت الكافى ، عندما أنجبت «ثامبى» و «موروجان» و «راجا» و «سيلفام» . وكأنما كان القدر يعوضنى عن السنوات التى قضيتها دون انجاب !

وما أسرع ما ينمو الابناء ، وتزداد مطالبهم . لذلك اعتدت أن أحمل الخضر التى تنبتها حديقة الكوخ الى السوق كل أسبوع .. ولكن الضائقة كانت تشتد بنا رغم ذلك ، وان لم يخل بيتنا يوما من طعام ، اذ كانت حديقتنا تزودنا بالموز وجوز الهند ، كما أن الحقل كان يمدنا بالسمك بعد أن تجف مياه الارز .. واستطعت أن أدخر روبية او اثنتين - فى كل شهر - لاجمع لايرا صداقا طيبا اذا ما صارت فى سن مناسبة للزواج .

* * *

ولقد خبرت تقلبات الزمن من قبل ، وعرفت انها تحدث تدريجا . فقد كان ابى رئيسا للقرية وصاحب النفوذ فيها يوما ، ولكن سلطانه أخذ يتضاءل رويدا .. ورأيت أمى وأبى ينتقلان من الحياة الى الموت دون ما تحول مباغت . أما التغير الذى طرأ على حياتى ، بل وحياة كافة أهل القرية ، فانه لم يستغرق - فى نظرنا - لمحة خاطفة .. **فقد أقبل على القرية يوما حوالى خمسين عاملا ، وراحوا يهدمون المنازل القائمة حول ساحة القرية ، وقد تبعتهم عربات محملة بالطوب . وكان « ناثان » يكيل القمح - حين أقبل « أرجون » بالنبأ ، وهو مبهور الانفاس - فرفع طرفه وقال : « أنهم يقيمون مدبغة الجلود الجديدة ، فقد سمعت شائعات عن ذلك ! »**

وانتشر الخبر فى القرية ، فخرج أهلها لمشاهدة الاغراب الوافدين ، الذين كان يرأسهم رجل أوربى ، يتكلم بلسانهم ، ولكنه كان يرتدى قميصا وسروالا (بنطلون) وقبعة لم أر

مثلها من قبل الا على رأس « كينى »

وظل الرجال شهرين يعملون دائبين ، والعربات تروح فارغة وتعود محملة بالطوب والاسمنت والحديد والحبال .. واشتغل رجال البلدة فى حرق قوالب الطوب ، كما اشتغلت نساؤها فى جدل الحبال ، وكانوا يتقاضون عن ذلك أجورا طيبة ، فيسخون على أنفسهم فى شراء الخضر والارز والحلوى والفواكه . وراجت سوق الباعة تبعا لذلك ، لا سيما بعد أن أحضر العمال أسراتهم وابتنوا لانفسهم أكواخا حول الميدان يقيمون فيها .

ثم قدر للبناء أن يكتمل ذات يوم ، ورحل العمال مخلفين وراءهم أكواخا خاوية ، فأمسكت القرية أنفاسها ، تترقب — فى قلق — ما سوف يحدث بعد ذلك . واذ طال الارتقاب ، عاد أهل القرية الى أعمالهم ، وبينهم من أحزنه رحيل العمال . **أما أنا فلم أحزن لذلك ، اذ انهم غزوا قريتنا فى جلبة وضوضاء ، وحرمونا من ساحتها الفسيحة ، وتسببوا فى أن رفع الباعة أسعار سلعهم . وكان ناثان يجيب على خواطرى هذه قائلا : « ومع ذلك فانهم لن يلبثوا أن يعودوا أو يأتى عمال غيرهم ، فمن المستحسن أن نتقبل الواقع ! » . ولكننى كنت أصيح : « أبدا .. لن أرضى عنهم لانهم سيحولوننا من مزارعين الى عمال وتجار ، وسيحرموننا من خيراتنا ، ويدعون أولادنا جياعا ! »** . وكنا نحتد فى النقاش ، فينكمش أولادنا الذكور الثلاثة فى أحد الاركان ، ولا يلبث الصغيران منهم أن يناما ، وقد احتل أحدهما أحضان « ايرا » ، وألقى الآخر بثقله عليها .. وهى تتطلع الى ، وفى عينيها الجميلتين نظرة تخترم فؤادى ، فأقول أخيرا : « لا بأس ، لعلى مغالية . لسوف نكسب — عند عودتهم — صداقا طيبا لابنتنا ! » . واذ ذاك كانت النظرة الحزينة تزايل عينى « ايرا » ، التى كانت يومئذ فى الثالثة عشرة من عمرها !

ووفد عمال المدبغة تباعا على القرية بعد حين ، يرافقهم الاوربى الابيض ـ ذو الوجه الاحمر ـ الذى كان يشرف على العمال السابقين .. ولكنه لم يقم بالقرية ، بل كان يروح ويغدو عليها ، وعاد الى توجسى من أولئك القوم ، حتى أن « كونثى » صاحت فى مرة : « يا لك من امرأة غريبة ! .. الا يسرك أن قريتنا أصبحت مدينة صغيرة ؟ » . أما « ياناكى » فقد وجدت فى المدبغة عملا لاولادها الذين لم تعد الارض تتسع لهم ، فى حين أن « كالى » وجدت فى المجتمع الجديد مجالا للظهور .

أما أنا فقد استعصى على أن أتقبل الواقع وأن أتخلى عن الماضى . واحسب أن نهاية تحرر ابنتى قد حانت بقيام المدبغة . فقد كانت من قبل تخرج مع اخوتها كما يحلو لها ، الى أن جاءتنى « كالى » يوما ، وقالت : « انها تنضج سريعا .. أفلا تريان أعين الشبان تهفو اليها ؟ .. اذا لم تحترسا لها فلن يسهل عليكما أن تجدا لها زوجا ! » . فأجاب ناثان : « ان ابنتى ليست خليعة .. ليس الرجال وحدهم هم الذين يتطلعون اليها ، بل النساء أيضا ، لانها جميلة ! »

ومع ذلك فقد ازددنا حرصا على « ايرا » وتقييدا لحريتها ، فآلمها هذا كل الالم ، وان لم تنبس ببنت شفة !

* * *

وذات صباح ، خرجت فى ساعة جد مبكرة ، أجمع الروث من الحقول ، قبل أن يستولى عليه أطفال القرية . وفيما كنت أجمع آخر حفنة ، شعرت بأن ثمة من كان يراقبنى .. واذا به « كينى » ، وقد ازداد نحولا عما كان عليه .. وهرعت اليه بيدى الملوثتين ، وهممت بأن أقبل قدميه ، عرفانا بفضله اذ عالجنى فأنجبت أبنائى .. ولكنه سحب قدميه سريعا ، وقال : « أراك تجمعين الروث .. أفهذا من أجل الحقل ؟ »

ـ ان الروث أكثر نفعا لنا فى البيت منه فى الحقل ، فنحن نستخدمه وقودا ، كما نعزز به سقوفنا ، فضلا عن أنه يقينا النمل والجرذان !

ـ ظننتكم يا قوم أوسع أفقا من هذا ، وأنتم تعيشون على الارض ، تأخذون منها دون أن تعطوها !

وزار « كينى » دارى ، وتعرف على أطفالى ، كما سعد زوجى باستقباله ، وأصبح يتردد على دارنا بعد ذلك ،فيحمل الى أولادى بعض المأكولات .. ولم أكن أعرف عنه الكثير ، كما أنه لم يكن يتكلم عن نفسه ، ولم يذكر شيئا عما اذا كانت له زوجة واطفال .. كل الذى عرفته عنه أنه كان يتردد على القرية ليعنى بصحة عمال المدبغة !

وعندما بلغت « ايرا » الرابعة عشرة من عمرها ، لم أر أن أستبقيها الى ما بعد هذه السن دون زواج .. وكانت العجوز التى اعتدت أن أبيعها الخضر فى الماضى ، خير وسيطة أنشد عونها ، فصارحتها بأننا لا نملك صداقا للفتاة سوى مائة روبية ، ولكن لها من جمالها ثروة تفوق كل مال . ولم يكن ينقضى أسبوع ـ بعد ذلك ـ دون أن تزورنا ، وتقضى الساعات معى ومع ناثان ، تعرض علينا أسماء من كانت ترشحهم من شبان ، وتبحث معنا ميزاتهم ومرجحاتهم . حتى اتفقنا أخيرا على شاب بدا أنه قد حظى بكل ما كنا نرجو . وسرعان ما حان يوم الزفاف .. وكم بدت الفتاة جميلة وصغيرة ، وهى تعتلى الهودج لتنطلق الى دار زوجها .. وعندما هم الركب بالمسير ، بدت « ايرا » خائفة ، مترددة .. وخرج جمع من أهل القرية يودعون العروسين ، الى أقصى أطراف الحقول .. ثم تلاشى الضجيج والضحك ، وانصرف الضيوف ، وانفض السامر !

وكانت النجوم شاحبة فى تلك الليلة .. واستلقيت الى جوار زوجى فى دارنا ، دون أن يطرق النوم جفنى .. تلك

كانت أول ليلة لا يظل سقفنا فيها « ايرا » !

ولقد أتى زواج « ايرا » على كل مدخر لدينا ، من مال وقوت ، فتطلعنا الى المستقبل فى أمل . **ولكن الطبيعة حيوان جامح فى تقلبه ، فهى تطيعك وتسعى فى خدمتك طالما كنت قادرا ، قوى الشكيمة .. أما اذا لم تكن ، فانها تعتصر عنقك فى غير اشفاق ! ..** وهذا ما حدث لنا ، فان الامطار أقبلت — فى شتاء ذلك العام — كالسيول الدافقة ، فأتلفت الزرع ، وافسدت المحصول ، وهدمت شقا من كوخنا ، وزعزعت أشجارنا وأسقطتها .. وقدر لنا أن نعانى الجوع والحرمان ، حتى لقد هزل الاطفال وجف عودهم .

وعندما استمرت الضائقة عاما آخر ، اكتنفت الاحزان كل بيت فى القرية .. ولكن قلب الطبيعة لم يلن ، فما لبث صبية القرية أن التحقوا بالعمل فى مدبغة الجلود .. حتى « كونثى » ألحقت ولديها الكبيرين بالعمل هناك ، وجاءت تلومنى على أننى لم أحذ حذوها . ولكننى أبيت فى شمم ، فقد كنت أعتبر المدبغة بأصحابها وعمالها نوعا من الغزو الاجنبى للقرية ، قضى على هدوئها وطمأنينتها .. فلما زعمت أن المدبغة عمرت القرية وأوشكت أن تجعلها بلدة ، صحت فيها : « بل أصبح المكان يعج بالضجيج ، ويزخر بالشباب الرقيع المتسكع فى الطرقات ، المستهتر فى تصرفاته .. ولم يعد للرجال من هم سوى جمع المال ! »

ولكن « كونثى » سخرت منى ، ورمتنى بالغباء .. كانت لها قيم ومقاييس تختلف عما كان لى ، وكانت تحرص على أن تجد نفسها محوطة بالاعجاب ، لا سيما من الشبان ، حتى أنها كانت تتردد على البلدة لهذه الغاية .. ولقد أثار مسلكها لغطا بين نسوة القرية ورجالها ، فكان كل منهم لا يفتأ يردد : « لو اننى كنت فى مكان زوجها .. » . ولكنهم جميعا أوتوا زوجات

عاديات ، أما زوج « كونشي » فقــــد أوتى امرأة من لهب وجمـال !

وظلت المدبغة فى اتساع وازدهار ، فلم يعد شـهر ينقضى الا ويظهر مبنى جديد فى مكان قطعـة من الارض كان يعيش عليها أحد الزارعين .. وتضاعف عدد مستخدمى المدبغـة وعمالها ، وأصبح صاحبها الاوروبى - الذى كنا نراه فى البداية على رأس العمال - يستعين بتسعة أو عشرة من المسـلمين كمساعدين ، وقد أقاموا لانفسهم مستعمرة خاصـة - بين البلدة والحقول - من دور بنيت بالطوب ، وطليت جدرانها بالجير الابيض ، وعلتها سقوف من القرميد الاحمر .. وكانت لهؤلاء المسلمين عادات تخـالف عاداتنا ، فكانوا يستعينون بخدم فى دورهم ، وكانت نساؤهم يلزمن البيوت ، فاذا خرجن، أسدلن على وجوههن البراقع ! .. وكنت أرثى لحالهن وهن محرومات من نور الشمس وحرارتها ، ومن النسيم العليل ، ومن السير فى الضوء والهواء الطلق ، ومن مخالطـة الرجال والعمل معهم جنبا الى جنب !

* * *



وفى ذات صباح ، أقبلت ابنتى مع زوجها ، ولم أكن قد رأيتها منذ زفافها سوى مرة واحـدة .. وتقـدما فى بطء ، وكأنمـا كانت ثمة أغلال تثقل أقدامهما. فلما تطلعت الى وجهيهما ،ماتت كلمات الترحاب على شفتى .. وتقـدمت « ايرا » فى صمت فركعت عنـد قدمى ، ولكننى أنهضتها سريعا ، ودعوتهما الى

داخل الدار . غير أن زوج ((ايرا)) سمر عند المدخل ، ثم قال : ((ليست هذه زيارة للمجاملة يا حماتى .. لقد أسلمتنى ابنتك زوجة ، وانى لاردها اليك ، فهى عاقر !)) . فقلت وقد جف حلقى : ((لعلها مثلى ، ولن تلبث ..)) . ولكنه قال : ((لقد انتظرت خمس سنوات .. وانا بحاجة الى أبناء !))

ودعوت « ناثان » من الحقل ، فلما سمع القصة قال : « لست ألومه ، فلا غنى للرجل عن أبناء ! » . وكانت « ايرا » قد جلست ، ودفنت وجهها فى راحتيها ، فرفعت رأسها ، وتطلعت الى أبيها ، واختلجت شفتاها .. كانت لاتزال جميلة ، ولكن الاسى رسم ظلالا حول عينيها ، وخطوطا عبر جبينها . وتمتمت : « دعونى وحدى يا أماه . لقد توقعت هذا من زمن طويل ، وان الواقع لاهون من الخيال ! » .. وراحت تروى ما كانت تلقاه من سخرية أهل زوجها وتعيير جاراتها .. كانت مأساة شبابى تتكرر فى حياة ابنتى ، فاذا بذهنى يتجه الى « كينى » .. وهتفت : « صه ! .. اننا جميعا بين يدى الله ، وانه لرحيم ! »

وكان « ارجون » قد تجاوز الثالثة عشرة ـ فى تلك الاثناء ـ وقد علمته القراءة والكتابة فما لبث أن فاقنى فيهما ، وأصبح يعلم سواه .. وكنت لا أراه بدون كتاب ، وان لم أدر من أين كان يأتي بالكتب ، كما كان يقضي الوقت فى الكتابة على كل ما كان يقع فى يده من قصاصات الورق .. فاذا لم يجد ، فانه كان يكتب على الثرى !

وفى ذات يوم ، جاء يصارحنى بأنه سيعمل فى المدبغة ، فشعرت بخيبة أمل ، ورحت أذكره بأنه لم يكن من طبقة عمالها ، **ولكنه قال : ((لست أعبأ بهذا ، فالمهم هو الحصول على القوت !)) . فلما رحت أجادله ، قال : ((لقد سئمت الجوع ، وسئمت أن أرى اخوتى جياعا ، لا سيما بعد أن أقبلت ايرا لتعيش معنا ..**

اننى لا أنفس عليها اللقمة التى تنالها، وانما تشغلنى قلة ما عندنا».
وذكر أن ابن « كونثى » سيسعى لالحاقه بالمدبغة ، ولكنى كنت آبى أن يكون لهذه المرأة الخبيثة شـأن بذلك ، فقلت له اننى سأرجو « كينى » أن يلحقه بالعمل ، فهو أكثر نفوذا . وكان جوابه أن قال بمرارة : **« أجل ، ان للبيض سلطانا .. على الرجال ، وعلى الاحداث ، وعلى النساء بوجه خاص!»** فصحت فيه : « ماذا تعنى ؟.. أفصح أو اسكت ! » . فرمقنى بنظرة ساخطة ، ولاذ بالصمت .

وبعد أيام ، التحق بالعمل ، ثم انضم اليه ابنى الثانى « ثامبى » ، فقد كان كل منهما شديد التعلق بأخيه منذ الصغر . وكان ناثان يطمع فى أن يساعداه فى الارض يوما ، ولكن الفتى قال له : « لو أنها كانت أرضك أو أرضى ، لعملت مغتبطا .. ولكن ، ما قيمة الكد من أجل الغير ، دون أن نظفر بدخل يذكر ؟.. من الخير أن نناى عن هـذا الظلم ! » .. وصمت ناثان وفى عينيه ألم مرير !

على أن الولدين أخذا يؤثراننا بنصيب من كسبهما ، فبدأت معيشتنا تتحسن من جديد .. ولاول مرة منذ سنوات ، ابتعت ثيابا جديدة لاولادنا ولزوجى ولنفسى !

* * *

وظلت « ايرا » تعيش فى أسى صـامت ، معتزلة الناس ما استطاعت ، الى أن قدر لى أن أنتهز فرصة لجأت فيها الى الطبيب « كينى » كى يعالجها .. وما أن سمع بقصتها حتى سألنى عما حال بينى وبين طلب مساعدته منذ زمن ، وطلب أن آتيه بها ليرى ما يمكن عمله من أجلها .

وكان الوقت ليلا ، وقد تسللت خلسة ، اذ كان زوجى يأبى على أن اتصل بالرجال البيض ، وفيما كنت عائدة من عنده ، صادفت « كونثى » راجعة من حى العمال ، وهى مخضبة

الوجه بالمساحيق والمعاجين .. وبادرتني قائلة : « أراك تسهرين خارج دارك يا روكماني ؟! » . فأجبتها وقد غاظتني لهجتها : « لستَ أكثر منك سهرا .. ليست أسبابي كأسبابك ! » .. **فتصدت لى قائلة : « ما كنت لاصدق — لولا أن رأيت بعينى — ان ثمة شهوة تجرى فى جسدك ، وانك تسعين الى اطفائها بهذا الشكل ! » . وأطبقت عليها مهتاجة ، فكدت أقتلها ، لولا أن ملكت زمام نفسى ، فأفلتها قائلة : « اعقلى لسانك والا جررت السوء على نفسك ! » . فظلت ترمقنى لحظة ، ثم قالت : « وعلى نفسك .. وعلى زوجك الغالى ! »**

وذهبت « ايرا » الى « كينى » .. وبعد أيام ، ذهبت بنفسى الى زوجها أدعوه الى استردادها ، مؤكدة له أنها لن تلبث أن تنجب له أولادا كثيرين . ولكنه كان قد مل الانتظار ، فتزوج من سواها .. ولما علمت « ايرا » بالامر ، لم تنبس بكلمة ، وانما راحت تحدق فى بعينين جامدتين !

وتغيرت حالها بعد ذلك ، فأصبحت تقضى ساعات طويلة فى الخلاء ، وحدها ، ولم تعد تكثر من الحديث ، بل ازدادت انطواء على نفسها ، واكتنفها قنوط أقض راحتى .. وكنت قد أصبحت حبلى — عقب زيارتى للطبيب كينى — فازدادت « ايرا » ازورارا عنى كلما تقدمت بى شهور الحمل . وكنت أفاجئها أحيانا وهى تحدق فى باكتئاب ، وبنوع من الحقد . وما لبثت أن وضعت طفلا أسميناه « كوتى » . وكان صغيرا ، لطيفا ، أحبه الجميع . ولكن « ايرا » كانت أكثرهم حبا له — رغم أننى كنت أخشى أن تكرهه — فراحت تعنى به كما لو أنه كان طفلها . **وسرعان ما زايلتها الوحشة والاكتئاب ، وعادت الدماء الى وجهها ، وازدهر شبابها من جديد . وبقدرما سررت وأبوها بذلك ، فاننى كنت أتطلع موجسة الى المستقبل .. مستقبلها . فقد كانت بلا صداق ، ولم تكن بكرا .. وكانت عاقرا !**

وكان « أرجون » و « ثامبى » يساعدان أباهما فى الحقل ، يوما فى كل أسبوع ، عندما كان العمل يتعطل فى المدبغة . وسارت بنا الحياة هادئة ، تسودها القناعة والرضى ، الى أن برزت لعمال المدبغة مطالب دعتهم الى أن يتوقفوا عن العمل . وكان « أرجون » و « ثامبى » بينهم . فلما امتد الاضراب أسبوعا ، دعا اداريو المدبغة المضربين الى اجتماع أعلنوا فيه أنهم سيملأون أماكن من لا يعودون الى العمل .. وعاد ولدانا من هذا الاجتماع أكثر صمتا مما اعتادا أن يكونا . حتى اذا أصبح اليوم التالى ، اذا بالنشاط يدب فى المدبغة ، وقد عاد معظم العمال .. وخبا حماس أرجون وثامبى ، ولم يبق فى نفسيهما سوى السخط .. لقد كانت الحركة اختبارا باء فيه العمال بالفشل . وهتف أرجون مغيظا : « ان هؤلاء القوم لن يتعلموا قط ! » .. ولكم سمعت هذه العبارة من « كينى » من قبل ، ولكنى لم أفقهها .. **ما الذى يتعلمونه ؟ أيتعلمون الكفاح ضد قوى تفوقهم بمراحل ؟.. وما الجدوى ؟ انهم لن يبوءوا الا بفقدان القليل الذى يحظون به ؟.. وما جدوى الكفاح اذا كانت النتائج معروفة ؟..** عبثا وجهت هذه الاسئلة الى نفسى والى ناثان ، فقد كنا نعجز عن الاهتداء الى اجابات .. على أن ناثان كان لا ينفك يقول : « ليتصرف ابنانا كما يبغيان، ولو لم يكن فى ذلك نفع لنا ! »

ومرة أخرى ، أصبح « ناثان » هو عائلنا الاوحد . أما « أرجون » و « ثامبى » فأخذا يترددان على المدينة . وفى ذات يوم ، عادا فى ساعة متأخرة من الليل ، وقد نام بقية الاولاد ولم يبق مستيقظا سواى وزوجى . وقال أرجون : « انهم يطلبون عمالا ، وسيدفعون أجورا سخية ! » . فقال ناثان : « لقد سمعت عن ذلك .. ولكن مكان العمل فى جزيرة (سيلان) »

ـ انه خير من البطالة ، فليس يليق بالرجال أن يتداعوا تحت وطأة الخمول والملل والجوع !

وسكت ناثان ، اذ رأى أن ولديه قد أصبحا رجلين يبتان في أمورهما بنفسيهما . وتدفقت الدموع من عيني مدرارا ، وكأنما انفجرت مراجل الاسى فى كيانى . ورحل الولدان مع تباشير الصباح التالى، بعد أن ركعا وقبلا قدمى وقدمى أبيهما ، وبعد أن وضع كل منا يده على رأسيهما ليباركهما .. وتحول ناثان ـ بعد أن غابا عن أبصارنا ـ يواسيني قائلا : « لقد كبرا ، أفكنت تريدين أن تبقيهما فى أحضانك الى الأبد ! » . فقلت بقلب مثقل : « لا ، ولكن .. ها قد رحل ولدان ، ولن يلبث الثالث أن يرحل ليعمل خادما .. صـــحيح ان البيت الذى سيلتحق به طيب ، وان كيني أوصى أهله به ، ولكن .. » . فقال ناثان : « انك تشقين نفسك بالاكتئاب ، ولا تفكرين الا فى المحن ، دون أن تذكرى النعم التى تبقت لنا .. أنظرى الى أرضنا ، أليست جميلة ؟.. لسوف يكون المحصول طيبا وفيرا فى هذه السنة »

ولم يمض وقت طويل ، حتى حمل « كيني » الى أنباء عن ابني الثالث ـ الخادم ـ أثلجت صدرى .. وحركت أفضاله المتوالية قلبى ، فأبديت له اشفاقى من وحدته ، ولكنه هتف : « وحدتى ؟! .. الا ترين الناس يتزاحمون على بابى دائما ؟.. لقد عرفتك منذ سنوات عديدة ، ومن العجيب أنك لم تسأليني يوما عن نفسى .. **ان لدى ما لدى الرجال دائما من أعباء : زوجة ، وأولاد ، وبيت .. ولكننى أبيت القيود ، ولهذا أعيش وحيدا .. اننى لامكث بينكم حينا ، ثم أغيب عنكم ، لانني أحب أن أكون سيد نفسى .. اعمل بينكم عندما تحفزنى روحى ، وأفارقكم عندما أسأم غباءكم ، وفقركم المخزى الابدى .. »** .
ثم استوى على قدميه ، وسار بخطاه الواسعة ، وقد مال الى الامام كعادته دائما . كان رجلا غريبا ، لم يقدر لى أن أفهمه

كل الفهم .. كان رجلا نصفه فى الظلام ، ونصفه فى النـور !

* * *

وانقطعت الامطار فى ذلك العام ، فجفت الارض وأجدبت .. عبثا رحت أصلي لآلهتى وأدعوهم ، فقد اشتدت الفاقة ، حتى اضطررنا الى أن نبيع بعض أوعية البيت وأوانيه ، وثياب أولادى الجديدة ، وبعض ثيابى الغالية ـ التى كنت أحتفظ بها منذ الزواج ـ لنوفر قسطا من ايجار الارض ، نعلل به مالكها حتى لا يطردنا منها !

ولقد سقطت الامطار بعد ذلك ، ولكننا لم نفرح بها ، فقد جاءت بعد فوات الاوان . وقاسينا الامرين من الفاقة والجوع ، فاضطررت الى أن ألجأ الى ما كنت أدخره للمجاعات من أرز قليل .. كان فى نظرى أغلى من أثمن الكنوز . فقسمته بحيث يكفينا أربعة وعشرين يوما .. وانقضت سبعة أيام ، أكلنا فيها سبعة أقسـام من الارز الغالى . **وفى اليوم الثامن ، أقبلت « كونشى » وانا اطهو الارز .. وكان جلد وجهها قـد شف ويبس ، وثدياها قد تهدلا ، ورشاقتها قد ذبلت . وسارت الى النار ، فتأملت القدر ، ثم قالت : « انك تحظين بغذاء أفضل مما تحظى به غيرك .. وما زال زوجك معك ، أما أنا فقد فقدت زوجى ! »**

ورثيت لها ، ولكنها صاحت فى ضراوة : « لست بحاجة الى اشفاقك ، وان زوجى لعلى قيد الحياة .. ولكنه يعيش مع امرأة أخرى ! »

ولم أتصور أن يفعل زوجى يوما ما فعله زوجها !.. وعادت تقول : « انك لم تكونى جميلة يوما يا روكمانى ! » . ثم تحولت تطلب شيـئا من القوت ، فقدمت اليها ملء طبق من الارز ، التهمته فى نهم ، ثم قالت : « يجب أن آخذ معى بعض الارز ، فلست أملك أن آتى يوميا الى هنا .. ولن أكسب عيشى ما لم

استرد رونقى ! »

وبهت .. وانتظرت منى جوابا ، فلما طال بها الانتظار اقتربت منى ، وحملقت فى بعينيها الغائرتين ، ثم قالت : « يجب أن آخذ أرزا ، والا فسيعرف زوجك أن زوجته ليست فاضلة كما يعتقد !.. لعله لم ير ما رأيت ! » .. **وأدركت أنها كانت ترمى الى الليلة التى زرت فيها « كينى » من أجل ابنتى . وفطنت ـ اذ ذاك فقط ـ الى سر النظرة التى رأيتها فى عينى « ايرا » عقب عودتى من عنده .. ثم تذكرت ما قاله ابنى عن سلطان الرجال البيض « لا سيما على النساء ! » ، فتهالكت على الارض ، وكأن كلمات « كونثى » كانت مطارق تهوى على رأسى** .. وشعرت بأننى كنت فى حاجة الى زوجى ، لان تلك المرأة كانت أقوى منى .. لا مراء فى أننى خدعته اذ ذهبت الى « كينى » خلسة ، وما كان بوسعى أن أنكر ذلك .. ولكن عدم الانكار كان خليقا بأن يجعله يصدق أمورا أخرى .. الامور التى كانت تشير اليها المرأة !.. وتملكتنى رغبة فى أن أقتلها .. ولكنها كانت تقف صامدة ، فى اعتداد المرأة التى تعرف أن سلطانها لا يقاوم !.. وفازت بمؤونة سبعة ايام من الارز ! ولكن هذا أذكى جذوة كراهيتى لها !

ولم أنم فى تلك الليلة .. ووجدتنى أسعى فى الظلام الى حيث كنت أخفى الارز ، فأنبش الارض ، وأخرج الكيس ، وأجرى أصابعى فى الحبات الغالية .. وكنت أحسب أن قد بقى هناك ما يكفينا لتسعة أيام ، وشد ما كانت الصدمة ، حين تبينت أنه لم يبق فى الكيس سوى حفنة !.. **وشعرت بالارض تميد بى ، وبغثيان ينتابنى ، ورحت أئن وأتأوه .. ألم تكن « كونثى » قد رأت المخبأ ، ومن ثم فلا بد أن يكون السارق من أسرتى ؟**.. ولم يكن « ناثان » فى الكوخ حين عدت اليه ، وكان الولدان الباقيان نائمين ، والى جوارهما نامت « ايرا » محتضنة « كوتى » . وهززت « ايرا » ، فاستيقظ « كوتى »

قباهل ، وراح يبكى . فما كان منى الا أن حملته الى الخارج ، وأجلسته لدى الباب . وعندما عدت كان الثلاثة قد استيقظوا وراحوا يحملقون فى رعب .. وتمثلت فى غيظ أن واحدا منهم قد سرق الارز ، ولكن .. أى واحد ؟

ورحت أحاسبهم فى قسوة ، واذا بزوجى يأتى صائحا :

ــ ان الطفل يبكى فى الخارج ، ولسوف ينفطر قلبه

ــ هذا خير وافضل ، فسيقل عدد الافواه المحتاجة الى طعام .. ان قلبى مثقل بالهم ، فقد سرق الارز ــ الذى هو أغلى شىء ــ وبيد أحد أبنائى !

فصمت قليلا وقد تقلص وجهـــه ، ثم قال : « **أنا الذى أخذته** »

ولم أصدق أذنى .. وران علينا سكون عميق ، لم يلبث أن مزقه صوت أجش ، أليم ، شـعرت بأن أعصابى تصرخ استجابة له .. وتطلعت فاذا ناثان يحاول أن يتكلم ، والعبرات تخنق حلقه الجاف : « أخذته من أجل شخص آخر . لم تكن ثمة حيلة أخرى ، وكنت آمل أن لا تلاحظى . لقد اضطرتنى « كونثى » الى ذلك ! » .. وصمت ، فقلت وكأننى أحدث نفسى : « أن لهذه المرأة سلطانا عجيبا » . فقـــال : « **الواقع أننى أب أولادها .. لقد كنت ضعيفا !** »

وأنكرت قوله ، ثم تناوبنى الشـــعور بخيبة الرجاء ، ثم بالغضب ، فاللـــوم ، فالالم .. ما كان أقسى الطريقـــة التى عرفت بها هذا السر الاليم ، وبعد هذه السنين الطويلة ! .. **لقد كانت تلك المرأة نارا ، وكان الرجال يهفون اليها كالفراش . ولقد احترق زوجى بنارها مرة ، ثم تاق اليها فاكتوى بها مرة ثانية ، وأنجبها ولدين !**

وقال ناثان : « كان ذلك منذ سنوات عديدة ، وكنت غرا ، بينما كانت هى بارعة الاغراء ! .. وكانت المرة الاولى منهمـــا قبل زواجنـــا ! » .. وظللت أنصت فى صمت ، ثم تمالكت

نفسي أخيرا ، وقلت : « ما فات قد مات ، وانى لادرى مدى شرها وخبثها ، فلننس الامر ! » . وأنبأته بما كان من أمرها معى ، وكيف انتزعت منى بعض الارز .. **وخيل الى أن طمأنينة جديدة قد هبطت علينا اذ تحررنا من الحاجة الى الكذب والى التكتم والغش . ومن السلطان الذى أتحناه لكونثى ، استمددنا قوة للخلاص منها** . وتحولنا نفكر فى ضائقتنا ، ولكن أى تفكير لم يكن يجدينا فتيلا . فان الارز كان قد نفد ، ورحنا نأكل كل ما كنا نعثر عليه من فاكهة فجة نبذها بعض ميسورى الحال . وأخذ أبنائى يهيمون فى الخلاء — فى البكور والعشى — ليلتقطوا ما يعثرون عليه من حشائش ، أو أعواد قصب السكر .. أو فضلات فى قمامات البلدة المجاورة !

ان الجوع شىء غريب .. انه يلازمك طيلة الوقت — فى البداية — فيرافقك فى يقظتك ونومك ، وفى أحلامك ، فلا تكف بطنك عن الصراخ ، وتشعر بتقلصات وكأن موارد حيويتك تعتصر اعتصارا . وتجد أن لا بد لك من ايقاف هذا العذاب بأى ثمن ، فاذا ما أكلت أى شىء ، ومهما يكن ضئيلا ، فقد الالم حدته ، وأصبح كالعبء الجاثم ، فلا تتمالك نفسك من التفكير فى الاكل مرارا عديدة فى اليوم .. وفى كل مرة يدهمك غثيان ، تحاول بسببه أن تتحاشى التفكير ، فلا تستطيع ! .. ثم يزول كل هذا ، وكل ألم ، وكل رغبة ، ولا يبقى سوى فراغ هائل . **وعند هذه المرحلة تنضب القوى من أطرافك ، فتعجز عن النهوض ، وعن ابتلاع الماء ، ويفقد حلقك قواه ، ويصبح ابتلاع الماء واحتجازه فى المعدة مهمة جد مرهقة !**

ولقد عانيت الى جانب كل هذا ، آلام مشاهدة أفراد أسرتى يعانونه .. وكان « كوتى » — الطفل — أكثر الجميع معاناة ، حتى أنه أصبح فى اعتلال دائم .. وكان يبكى فى يقظته ، ويهمهم منتحبا فى نومه ، وكانت « ايرا » أشدنا عطفا عليه ، فكانت تحمله بين ذراعيها النحيلتين ، وتؤثره بالشطر الاكبر

مما تصيبه من طعام ، ولكنه ــ فى كثير من الاحيان ــ كان يعاف هذا الطعام ، فكانت تلقمه ثديها ، فيروح يمتص حلمته الجافة ، ويشغل بها عن العويل !

* * *

وفى ذات يوم ، خرج « راجا » ــ رابع أولادى الذكور ــ ولم يعد .. وظللت انتظره طيلة النهار ، حتى اذا أسدل الظلام ستاره ، أقبل رجلان يحملانه جثة هامدة .. فلقد قبض عليه وهو يسرق بعض الجلود من المدبغة . ولم يحتمل عنف المفاجأة ، فسقط ميتا ! .. وراح الرجلان يكرران لى القصة دون أن أعيها ، ودون أن أكف عن سؤالهما . واخيرا ، سمعت « ايرا » تترنم باحدى المراثى ، وهى تهتز الى الامام والى الخلف برفق ، منتحبة ، فقلت لها : « لم تبكين ؟.. ان القسط الضئيل من القوة ــ الذى تبقى لك ــ أغلى من أن تذيبيه فى الدموع ! » . فتطلعت الى مشدوهة ، ثم نظرت الى جثة أخيها . واذ ذاك انتقل الاسى منها الى ، فرحت أحاول فى انفعال تهوسى أن أكبحه !

وأقبلت بعد ذلك أمطار تبشر بالخير . ورحنا نرقب موسم الحصاد فى رجاء بالغ ، فقد صرنا أشباحا هزيلة .. على أننا ــ لدهشتنا ــ كنا نرى الطفل « كوتى » فى تحسن مطرد ، يوما بعديوم . وحيرنى هذا التطور ، ففاض قلبىعرفانا بصنيع الآلهة ، التى كانت تسمع بكاءه ، وتنصت لدعواتنا . ورحت أهيم فى هذه الخواطر ــ ذات ليلة ــ حتى غشينى النعاس . بيد أننى لم ألبث أن استيقظت ، ورحت افكر فى الحصاد ، والمحصول الذى كان يؤذن بالوفرة ، ويبشر بالقوت والشبع !

وكان الفجر قد بدأ ينبثق حين سمعتوقع قدمين تقتربان فى حذر .. وخيل الى أن « كونثى » تتسلل الى الكوخ لتسرق القليل الذى أوتيناه ، فغلى الدم فى عروقى ، ونهضتلاتصدى

لها ، وانتقلت فى رفق الى خارج الكوخ .. وكان الظلام لايزال غالبا . **وتبدى لى شبح غير واضح ، ولكنه كان شبح أنثى . فلما بات جد قريب منى ، انقضضت عليه فى عنف ، وألقيته أرضا .. فراح يقاوم فى وهن ، بينما رحت أضرب فى قسوة ، وفى أذنى هدير هائل .. ثم أفقت على صرخات اخترقت هذا الهدير : « أماه ! .. أماه ! » . وشعرت بذراعين تمسكاننى من خلف وتشدانني عن فريستى ، وسمعت صوت ناثان يصيح : « يا لك من ام ملعونة ! »** . ثم أسرع ينحنى على فريستى التى كانت قد فقدت وعيها .. وراح يردد : « هل جننت ؟.. أتقتلين ابنتك ؟ » .. وحملها مع ابننا « سيلفام » الى داخل الكوخ ، وراح يغسل بيده الدم الذى تفصد منها ، بينما قلت بصوت متحشرج : « لقد ظننتها كونثى ! »

وأفاقت « ايرا » ــ فى الضحى ــ على أنين « كوتى » وهو يطلب طعاما . وأسرعت اليها أسألها أن لا تتحرك خشية ان تنكأ جراحها ، فقالت لى وهى كاسفة : « انه جائع .. خذى الروبية التى تجدينها فى السارى الذى كنت أرتديه » . اذ ذاك أدركت أنها ــ وليست صلواتى ــ صاحبة الفضل فى تحسن صحة الصغير ! وأقبل « ناثان » يبغى سؤالها عن مصدر النقود ، ولكنى أمسكت بذراعه وأبعدته . لم يكن ثمة جدوى من وراء ذلك . لقد أطعمت « ايرا » الطفل وحررته من الجوع . ولكنه عرف مذاق الاكل ، فأخذ يبكى .. ورأيتها تنهض رغم اعيائها ، فصحت بها : « امكثى حتى تندمل جراحك .. الى أين تذهبين ؟ .. استريحى ! » . فقالت فى استهجان : « أستريح ؟ .. كيف أستطيع أو يستطيع سواى أن يستريح ؟ .. ألا تسمعين الطفل يبكى ؟ » . فقلت : « والى اين تذهبين ؟ » . وكان جوابها : « لا تسألينى ، فمن الخير أن لا تعرفى ! » .. وراحت ترجل شعرها وتعقصه وتتزين ، حتى اذا هبط الغسق ، غادرت الكوخ . وصادفها ناثان وهو

عائد من الحقل ، فسألها : « الى أين تذهبين فى مثل هـــذه الساعة ؟ »

ـ من الخير أن لا أتكلم .. بل ليس بوسعى أن أجيب !

وعبس ناثان وقد اكفهر محياه . وخيــل الى أن ((ايرا)) تغيرت ، فقد كان العهد بها دائما لطيفة ، مطيعـــة .. وراح ناثان يجاهد نفسه ، ثم قال لها : ((لست أرتضى أن يقال .. لست أرتضى أن تسعى بالليل لاصطياد الرجال !))

ـ بل سأفعل .. الليلة ، وغدا ، وكل ليلة ، طالمـا كانت هناك فاقة ! .. لن أجوع بعد اليوم !

ـ أو تنشدين الشبع ، من العمل كمومس .. كعاهرة ؟ !

ـ هناك كلمات أرق من هذه ، على سبيل الحياء !

فبصق فى وجهها ، ولكنها أفلتت منه ، وانطلقت فى طريقها .. وتركناها تمضى ، اذ أنها لم تعد طفلة ، ولم يعـــد لنا أن نتوقع منها طاعة أو رضوخا ، وكان هذا التحول بالنسبة لنا ـ نحن الذين ألفنا منها الطاعة ـ صدمة . ولكنا لم نكن نملك أزاء ذلك حيلة .. فلم نلبث أن اعتدنا خروجها ورجـوعها . وكانت تبتاع بالنقود قوتا للطفل ، ولنا أحيانا ، ولكن ناثان لم يكن يمس شيئا مما كانت تأتى به !

غير أن تضحياتها من أجــل « كوتى » لم تثمر ، فلم يلبث أن مات !

* * *

وحان الحصاد أخيرا ، فـكان فوق ما تصـــورنا .. كان محصولا طيبا جدا . وقضينا أياما فى حصـــاد الارز ، وقـــد استخفنا الطرب . وما من فرحة تفوق الاغتبـــاط بوفـــرة المحصـــول ! .. وعنـــدما حملت ما زاد عن حاجتنـــا الى السوق ـ وكان كثيرا ـ صادفت نسوة أخريات ، كن بدورهن يحملن محصولاتهن الى السوق .. لقد سخت الارض بعـــد

طول ضن ، فأغـدقت أرزا ، وفولا ، وبطاطس ، وبطيخا .. ولكم فرحت بملمس النقـود الفضية التى تسلمتها ثمنـا لمحصولنا !

ومررت فى عودتى بباب ((بيسواس)) المرابى ، فما انحنى حتى نادانى قائلا : ((لدى نبأ سار لك .. لقد عاد كينى)) . فقلت له : ((انه نبأ سار للجميع)) . ولكنه حـدجنى بنظرة نفاذة وهو يقول : ((أنهم يقولون انه صديق لك أنت ، بوجه خاص .. أنبأتنى بذلك كونتى !)) .. وأردت أن أصفعه ، لولا ان تمالكت نفسى بجهد جبار . وابتعدت عنه ، فظللت أتلكأ فى البلدة قليلا ، وأنا محيرة ، ثم سرت فى حذر الى البيـوت الصغيرة البيضاء ، القائمة فى أطراف المدينة .. وولجت دار ((كينى)) . وكانت دارا صغيرة ، عارية من الاثاث ، تشيع فيها برودة ووحشة .. ووجدته وحيدا ، واجما ، فلما رآنى قطب جبينه ، وقال : ((ماذا ، هل هناك متاعب جديدة ؟))

ورويت له المتاعب التى قاسيناها أثناء الضائقة التى مرت بنا ، وموت ((كوتى)) . وكان ينصت صامتا ، مشيحا بوجهه . فلما انتهيت ، قلت له : ((وكيف حالك وحال أسرتك ؟)) . فالتفت الى ، وقال بخشونة : ((وما شـأنك ؟)) . ثم تمالك نفسه وأردف : **((لقد هجرتنى زوجتى ، وعلمت أولادى أن ينسونى !))** . وحاولت ان اتصور هذه المراة التى نبذت زوجها بعد كل السنين التى ظلا فيها مرتبطين ، ثم تذكرت غيابه عنها لفترات طويلة .. وقال كينى : ((لعلك ترين أن الذنب ذنبى .. ألا ترين كذلك أن من حق الرجل أن يختـار عمله ؟ .. واذا كان الامر كذلك ، أفليس على زوجتـه أن تصحبه الى حيث يذهب ؟))

ــ بل هو واجب عليها ، فان مكان الزوجة الى جوار زوجها وقـلت له ــ وأنا أتأهب للانصراف ــ ان زوجى واولادى يسعدون بزياراته ، واذ ذاك سألنى عن ابنتى . فما أن ذكرت

له مسلكها الاخير ، وكيف أصبحت حبلى ، حتى قال فى هدوء : « لم يكن ثمة بد من هذا .. لقد توقعته من قبل ! ». ورحت أحدثه عن العار الذى سيحيق بنا ، فقال : **« ألا تفكرين الا فى كلام الناس ؟!.. انه الامر الذى يصادفه الانسان أينما ذهب ، ولكن .. هل لكلام الناس قيمة حقا ؟ » .. ولكم تبينت — حين رويت الامر لناثان — أن زوجى كان من رأى الطبيب ، رغم اختلافهما الشاسع !**

على أن عودة الطبيب الى البلدة — التى صارت اليها قريتنا — حمل تطورا جديدا فى حياتنا . فلقد عاد ومعه مبلغ من المال جمعه من بلاده ، وشرع يبنى مستشفى لمرضانا ، وأنبأنى بأنه سيستخدم ابنى « سيلفام » ، رغم أن الفتى كان آخر من تبقى من أخوته مع أبيه فى الحقل . فلما عبرت له عن عرفانى بفضله ، انطلق يحدثنى عن المستشفى ، والمشروع الضخم الذى يتمثل فيه ، والاموال التى جمعها من أجله . وكأنما تبين الحيرة التى استولت على ، فقلت أعللها : « أن عقلى يقصر عن ادراك السبب الذى يدعو أناسا لم يرونا الى أن يجودوا بمالهم من أجلنا ؟ » . فأجاب : « لانهم أوتوا مالا ، ولانهم عرفوا مدى حاجتكم الى مستشفى .. لقد كنتم تكتمون حاجتكم وراء كبرياء زائفة ، بثها الفقر فى نفوسكم . ولكننى أكرر لك أن من واجبك أن تصرخى عاليا اذا احتجت الى عون ، فليس من جدوى وراء الالم الصامت . منذا الذى ينقذ الغريق اذا هو لم يصرخ من أجل حياته ؟ .. أفتظنون يا قوم أن السمو الروحى ينشأ عن الرضى بالفاقة ، واحتمال الالم ؟ »

— ولكن كهنتنا يصومون ، ويفرضون على أنفسهم عقوبات قاسية ، ويعلموننا أن نحتمل آلامنا فى صمت ، لنطهر أرواحنا !

فضرب جبهته بيده ، وهتف : « لن أفهمكم قط ! ..

انصرفى قبل أن أتردى فى فلسفتكم ! »

* * *

ولكم حزنت حين وضعت « ايرا » وليـــدها . ذلك لان الزوجة تجد الى جانبها ـ عند الوضع ـ زوجا يخفف عنهـا أوجاع المخاض . أما تلك التى تحمل دون زواج ، فانها لا تجد أبا وليدها الى جوارها فى تلك المحنة .. انه مجـرد رجـل قضى معها دقائق أشبع خلالها شهوته ، ونقدها لقـــاء ذلك أجرا ، فماذا يهمه من أمرها ؟ .. أن بين آلاف الرجال الذين أصبحت البلدة تضمهم ، رجلا هو والد هذا الطفل ، لكن .. منذا الذى يعرفه ؟ .. ولكم تضاعفت شقوتى وشقوة زوجى عندما تبينا أن الطفل كان أشقر مفرط الشقرة !

وتوافد الجيران لرؤيته وهم يتغـــامزون ويتهامسون . **ولكن « ايرا » لم تحفل بشيء ، ولم يبد أنها لاحظت أن طفلها كان غير عادى ، بل أنها أغدقت عليه الحب ، وأخذت تدلله .. وكذلك أحب « سيلفام » ابن أخته ، وراح يدافع عن اخته!..** غير ان « سيلفام » لم يلبث أن أصبح كثير التغيب عن البيت ، بل انه لم يعد يأتى الا نادرا ، فقد صـــار المستشفى يزداد استئثارا بوقته كلما تقدم العمل فى البناء .. كذلك أصـبح « كينى » كثير التغيب عن البلدة ، اذ كان ينطلق ليجمع المال للمشروع ، فاذا عاد كان مكدودا منهوك القوى !

بيد أن انصراف « سيلفام » الى العمـل لم يشـغله عن « ساكراباني » ، ابن أخته .. بل ان الطفل قرب بين الشقيقين أكثر من ذى قبل . ولكنه لم يكد يبلغ الرابعة من عمره ، حتى بدأ يعانى مشكلات الحياة .. **كان كغراب أبيض وسط أسراب الغربان السود ، فان شقرته جعلت أبنـــاء الجيرة ينبـذونه ويضطهدونه ويفتنون فى ايذائه وابكائه** . وفى ذات يوم سأل أمه : « ما معنى لقيط يا أماه ؟ » .. بمـاذا يجيب المرء عن

سؤال كهذا ؟ لقد حاولت « ايرا » أن تراوغ ، ثم قالت : « أنه الطفل الذى لم تكن أمه ترغب فى انجابه » . فتطلع اليهـا فى قلق وتساءل : « وهل كنت راغبـة فى انجابى ؟ » ، فهتفت ايرا : « بلا شـك يا حبيبى ، وما كنت لارضى بشىء بديلا عنـك ! »

ولم يدر المسكين الى أى حـد كان يؤلم أمه بمثل هـذه الاسـئلة .. ولقد جاءها ـ فى يوم آخر ـ يسألها : هل له أب ؟.. وأين هو ؟ ولماذا لا يأتى ليراه ؟.. وزعمت له المسكينة أن أباه رحل بعيدا ، وانه لا بد عائد يوما .. وكانت الاكذوبة الواحدة تجر أكاذيب ، وتهيج شجون « ايرا » المسكينة !

وفى تلك الاثنـاء تزوج « موروجان » ـ ابنى الثـالث ـ من فتاة من بنات البلدة التى كان يعمل فيها خادما . ولم يقـدر لنا أن نشهد عرسه ، اذ كان ناثان قد شـاخ فوهنت قواه وغلبه المرض . ولقد أنبأنى « كينى » بأن زوجى كان بحاجة الى تغذية طيبة ، ولكن .. من أين ؟.. كانت الامور قد عادت الى السوء مرة أخرى ، وزاد الطين بلة أن وكيل صاحب الارض أنذرنا باخلائها ، وأمهلنا أسبوعين فقط ، اذ كان صـاحب المدبغة قد دفع له فى مقابلها ثمنا كبيرا .

وكان لهذا الامر وقع الصـاعقة على وعلى ناثان . لطالما شعرت بأن هذه المدبغة ستكون سبب خرابنا ! .. لقد ظلت تنمو وتتسع كالاعشاب الفطرية فى حديقة مهملة ، تخنق كل حياة تعترض طريقها !

وعندما جاء « سيلفام » وعلم بالنبأ ، غشيه ما غشينا من هموم وأحزان .. وأبرقت عينـاه بلهيب غاضب ، ولكنه لم يكن يملك حيلة .. وتطوع فى نهاية الامر لان يتكفل بأختـه « ايرا » وابنها ، فيعولهما رغم قلة دخله ، بينمـا رأى ناثان أن يصطحبنى الى البلدة التى كان « موروجان » يعمل فيها ـ

وكانت على مسافة مائة ميل ـ فنلجأ الى هذا الابن .

* * *

وفى الحصيرتين اللتين كنا ننام عليهما ، وضعت حزمة ثيابنا ، وقسطا من الارز والملح ، وطبقين خشبيين لنأكل فيهما . ثم ربطت طرفى الحصيرتين ، حتى لا يسقط شيء .. ورحلنا فى ساعة مبكرة من الصباح ، والندى ما زال عالقا بالاشياء . واستقللنا عربة يجرها ثوران ، كانت مزدحمة بما حملت من أثقال .. **وأخذ الكوخ ، والاشخاص الثلاثة الذين تركناهم عند بابه ـ سيلفام ، وايرا ، والطفل ـ يغيبون عن بصرينا .. واختفى بعد ذلك حقلنا الحبيب . ولم نعد نرى سوى تربة حمراء تطحنها عجلات العربة ! .. وملت على زوجى ، فاذا به يستند الى..وغمرنا نوع من العزاء والراحة ونحن نجلس متساندين !**

وبعد يوم وليلة ، بلغنا مشارف المدينة التى كان ابننا يعمل فيها ، فقال لنا الحوذى : « هذا أقصى ما أستطيع أن أقلكما اليه . ووقفنا برهة فى مفترق الطرق حائرين ، ومتاعنا الى جوارنا .. كانت ثمة ثلاث طرق أمامنا ، ولم نكن ندرى أيها تفضى بنا الى ابننا . وأخيرا ، اخترنا أحداها .. وسرنا زمنا قبل أن نلتقى بمن سألناه عن الشارع الذى كان ابننا يعمل فى أحد بيوته . وكانت بيننا وبينه خمسة عشر ميلا ، فرحنا نسير مترنحين ، وأنا أحمل متاعنا الذى كان يزداد ثقلا على



كاهلى بين كل خطوة وأخرى .. وكلما تقدمنا كانت الطريق تتشعب فى عدة اتجاهات ، وتزداد حركة المرور ، ونحتار فى اختيار اتجاهنا ، ونروح نبحث عن مرشد ، فلا يكاد أحد يكلف نفسه عناء الوقوف لارشادنا .. وعندما بلغنا وسط المدينة ، أخذت العربات والدراجات والسيارات تطاردنا وتكاد تطوينا تحت عجلاتها !.. واقترب الليل وما زالت بيننا وبين مكان « موروجان » ستة أميال ، وكان الاعياء قد نال من ناثان كل منال . ولمحنا شيخ كان مستلقيا فى مدخل أحدى الدور ، فقال فى اشفاق : « هناك معبد غير بعيد عن هذا المكان ، تستطيعان أن تأويا اليه فتنالا بعض القوت وتقضيا ليلتكما ! »

وأخذنا بنصيحته .. وكان المعبد مزدحما بالمتسولين والعجزة .. وغشينا هناك نعاس متقطع ، حتى اذا أقبل الفجر ، اكتشفنا أن متاعنا ، والمبلغ الضئيل الذى كنت أخبئه فيه ، قد سرقا !

وجاهدنا كى نشق سبيلنا خلال المدينة الزاخرة بالحركة ، حتى وصلنا أخيرا — وبعد مشقة استنفدت البقية الباقية من قوانا البدنية والمعنوية — الى البيت الذى كان «موروجان» يعمل فيه .. وكان بيت طبيبة . وشد ما كانت صدمتنا ، حين قالت الطبيبة : « لقد ترك خدمتى منذ عامين تقريبا ! » .. ترى الى أين ذهب ؟ ولماذا لم يخبرنا بذلك ؟.. ووقفنا مشدوهين ، محسورين ، مشتتى الحواس ، الى أن طمأنتنا الدكتورة قائلة : « لقد تركنى ليحصل على أجر أكبر . وقد سمعت أنه يعمل فى بيت جابى الضرائب .. وفى وسع أى امرىء أن يرشدكما الى هذا البيت ! »

وعندما هممنا بالانصراف ، كان الليل قد أقبل ، وأشفقت السيدة على شيخوختنا ، فأمرت باطعامنا وايوائنا الى الصباح !

ولم نلق مشقة فى الاهتداء الى دار جابى الضرائب ، فى اليوم

التالى وكان ثمة عدد من الحراس حول الدار ، فاقترب منا أحدهم وقال : « ليس من المباح للمتسولين أن يأتوا الى هنا ! » . فلما أنبأناه بأننا والدا « مورجان » ، أبدى عطفه نحونا . **وهم بأن يقول شيئا ، ثم أمسك لسانه ، ودفع الباب الحديدى وأشار لنا كى نتبعه قائلا : « سأقودكما الى زوجته .. ان مساكن الخدم فى مؤخرة القصر » . واستولى على انفعال غريب ، وأنا أوشك أن ألتقى بزوجة ابنى التى لم ارها .. وشعرت بالانفعال يستولى على ناثان كذلك !**

وتركنا الرجل عند باب احدى الغرف ، وعاد من حيث أتى .. وكان الباب مفتوحا ، تتصاعد من خلاله صيحات طفل يبكى . ولم استطع وزوجى أن نتقدم ، اذ غشينا خجل مفاجىء .. وما لبثت أن أقبلت من الداخل فتاة نحيلة ، مهوشة الشعر ، تحمل الطفل الذى سمعناه يبكى ، فقال لها ناثان فى لطف : « لابد أنك زوجة موروجان .. اننا أبواه »

فأطرقت الفتاة ، ثم لوت شفتيها وقالت : « انه ليس هنا .. وما احسبه سيأتى قط .. لقد هجرنى منذ عامين تقريبا ! » .. **كأنما قطعنا هذه الرحلة الطويلة ، الشاقة ، لنصطدم بالانباء السيئة ، ثم لانملك رجوعا ، ولا تقدما ! .. لم يكن قد تبقى لنا شىء ، فلقد سرق متاعنا ، ونقودنا .. لم يبق لنا شىء يباع أو يرهن .. ولا شباب ولا قوة !**

وسألنا الفتاة عما اذا كان ثمة أمل فى أن نهتدى الى مكان ابننا ، فقالت : « أو تظنان أننى لم أحاول العثور عليه ؟ .. لقد غادر المدينة ، ولا يعرف أحد اليه سبيلا ! » .. وسمرنا فى مكاننا محسورين ، حائرين . وظلت الفتاة صامتة برهة ، ثم قالت : « لابد لى الآن من الذهاب الى القصر لاباشر عملى . وسأعود ظهرا كى أطعم الطفل ، ولكما أن تبقيا الى ذلك الحين ! » . وتركت الطفل ، فبسطت ذراعى لاحمله . واذ ذاك قالت : « لعلك تفهمين أنه ليس حفيدا لك .. لقد كنت مضطرة الى أن

أحصل على القوت ! » . وهزت كتفيها ، ثم مضت . حتى اذا انتصف النهار ، عادت الى الحجرة ، فطهت بعض الطعام ، ودعتنا الى الاكل . ولم تتكلم حتى فرغنا منه ، واذ ذاك سألتنا : « الى أين تذهبان ؟ .. أتستطيعان العودة الى قريتكما ؟ » . فقال ناثان : « لابد لنا من العودة ، فما جئنا الا أملا فى ابننا » . وهزت رأسها وقد تجهم وجهها وقالت : « ان ابنكما قد تخلى عنا جميعا .. من أجل النساء والميسر ! »

ولم تخف حدة جفائها الا عندما أيقنت أننا راحلان !

* * *

وتعرف علينا واحد أو اثنان من المعدمين الذين كانوا يعيشون عالة على المعبد ــ عندما عدنا الى هناك ــ فصاح أحدهم : « أليس فى المدينة كفايتها من المعدمين ، حتى يأتى وترون فى كل قادم جديد غريما ينتزع شطرا من أنصبتهم ، اليها الاغراب ؟ » .. كان المعدمون يضيقون بعضهم ببعض ، من الصدقات والوجبات ! وما أبشع الصراع الذى كنت أشهده فى كل ليلة .. كان القوى لا يدخر جهدا لاقصاء الضعيف !

وكنت وزوجى نقضى النهار والليل فى التفكير .. **ومع التفكير كان الحنين يشتد بنا نحو أرضنا . فقد كان ناثان يقول فى حرارة : « ان الموت جوعا فى الارض التى نشأنا فيها خير من المقام هنا ! » .. ولكن ، من أين لنا بالمال الذى يمكننا من العودة ؟ .. كان زوجى يجيد الزراعة ، ولكن .. لم تكن ثمة أرض تفلح فى المدينة ! وكنت أجيد الغزل ، ولكن من أين لى بالقطن أو الصوف أو المغزل ؟!**

وخطر لى يوما أن أتكسب من القراءة والكتابة ، فاقرأ للأميين ما يتسلمون من خطابات ، واكتب لهم ما يريدون كتابته من رسائل . واتخذنا مجلسا عند الطريق المفضية الى السوق .. وكان أمام امرأة قروية عجوز مثلى بالقراءة والكتابة ، موضع

عجب القوم ، فكانوا يحومون حولنا ليظهروا عجبهم وسخريتهم أكثر منهم ليجربوا مقدرتى . على أننى استطعت — رغم ذلك — أن أكسب ما يساعد على ان يقيم أودنا . وقضينا عاما فى هذه الحال ، ثم بدأ زوجى يشكو من اشتداد وطأة « الروماتيزم » عليه ، كما أصبح عرضـــة لنوبات من الحمى اخـذت تزداد وتستفحل ، واضطر الى أن يلزم المعبد .

وفيما كنت عائدة اليه ذات مســاء ، التقيت بصبى من المشردين فى الشوارع .. واقتسمت وزوجى معه ما أصبناه فى ذلك المساء من قوت ضئيل ، فما أن أقبل على الاكل ، حتى تبينت أنه بلا أصابع .. وذاب قلبى اشفاقا عليه حين قال : « ما من أب لى ولا أم .. ليس لى من يقلق من أجلى ، ولا من أحمل همه » .. يا للمسكين ، انه لم يكن يتجاوز التاسعة أو العاشرة من عمره !

ونام « بولى » — كما كان يدعى — الى جوارنا فى تلك الليلة ، فلما استيقظنا فى الصباح ، وجدناه جالسا يفكر . وما لبث أن قال : « أتريدان أن تكسبا أكثر مما تدره عليكما الكتابة والقراءة ؟ .. هناك محجر غير بعيد من هنا ، يتقاضى الذين يعملون فى اقتطاع الاحجار فيه أجورا طيبة ! »

وعملنا منذ ذلك اليـــوم فى اقتطاع الاحجار ، فكنا ننفق نصف أجرينا على القوت ، وندخر النصف الباقى لنوفر نفقات العودة الى قريتنا . وأصبح « بولى » يلازمنا ، فكنا نأتمنه على مدخراتنا ، دون أن نعلم أين كان يصـونها . وقدرنا أننا لن نلبث أن ندخر النفقات الكافية فى أربعين يوما

وفى ذات مســاء ، اشتدت وطأة الحمى على ناثان ، فبات ليلته يئن ويرتجف . ولكنه أصر — فى الصباح التالى — على أن يذهب الى المحجر .. وكان الجو مطيرا ، والطريق موحلة .. ولاحظت أثناء العمل أن أنفاس « ناثان » كانت متهدجة ، وان صدره كان يعلو وينخفض فى عنف ، فما زلت به حتى قبل أن

يكف عن العمل ، وان يعود الى المعبد .. وعندما آن لي أن ألحق به فى نهاية النهار ، صادفت ـ فى الطريق ـ جماعة من الناس قد التفوا حول شخص سقط عاجزا أثناء سيره . وشعرت باكتئاب لم أدر مأتاه ، واعتصرت يد خفية قلبى ، ولكنى كنت قلقة من أجل ناثان ، فآثرت أن أسرع الى المعبد ، لولا أن خاطرا أوحى الى ان اشق الجمـــع ، والقى نظرة على الرجل

ورأيت زوجى ملقى على الارض وملطخا بالوحل وماء المطر ، وأنفاسه تنبعث فى عناء وحشرجة عالية . وكان المطر ينهمر ، وليس ثمة ما أقيــه به ، ووقفت حائرة ، عاجــزة ، مغلوبة على أمرى ، الى أن تطوع رجلان ليحملاه الى المعبـــد .. وراحا فى الطريق يواسياننى ، ثم سألنى أحدهما : « أليس لكما أولاد يســـاعدونكما ؟ » . فقلت متلعثمة : « أجل .. لا .. ليسوا هنا ! » .. ولعقت شفتى المبتلتين ، فاذا لهما مذاق الملح .. لم أكن قد فطنت الى اننى كنت أبكى !

وعلى أرض ساحة المعبد ، سجى الرجلان زوجى ، فجلست الى جواره ، ومسحت الوحل عن وجهه ، ثم أسندت رأسه الى حجـرى ، ورحت أدلك أطرافه ، وهـو لا ينفك يرتعش .. وخفت هذه الارتعاشة فى منتصف الليل . ولمحته يفتح عينيه .. **وامتدت يده الى وجهى تمسح فى حنان الدموع التى كانت تنساب عليه مدرارة . وتمتم : « ما ينبغى أن تبكى يا حبيبتى فما قدر يكون !.. اننى لاحس برودة الموت ، فضمينى اليك اذا ما حان الاجل .. ولا تحزنى ! »**

ـ كيف لا أحزن يا حبيبى ؟.. كيف أحتمل الحياة بدونك ، وأنت حبى وحياتى ؟

ـ انك لن تكونى وحيدة ، فانى أعيش فى أولادى .. أفلم نكن سعيدين معا ؟

ـ دائما يا أحب الناس .. دائما

ـ ان الحياة تجرى سراعا !

وتنهد فى اعياء . وأشاح بوجهه عنى .. وهكذا غادرته روحه فى رفق ، وخبا ضوء عينيه !

* * *

ومرت الايام ، ولم يعد ناثان بجانبى ، بل احرقت جثته وتحولت الى رماد ذرته الرياح . ورحت أجمع أشلاء حياتى ، وأضعها جنبا الى جنب ، حتى اكتملت عدا القطعة التى كان ناثان يمثلها .. وأخذت أغرى اليتيم الشريد « بولى » بأن يرحل معى الى قريتى ، فأصغى الى ، ومضى ينتزع سهام الاسى من نفسى ، واحدا اثر واحد .. وهكذا لم أكن وحيدة ، حين عدت الى القرية . **فلما وصلت اليها أخيرا ـ وأخيرا جدا ـ رحت أتأمل الارض المحيطة بى ، فاذا بها غذاء لروحى الجائعة .. وتحسست الثرى الذى كنت أطأه ، وأنا أبكى فرحا . وتسلل الوقت الذى انقضى بين بعدى عن القرية وعودتى اليها ـ والذى أصبح ذكرى ـ كحية تأوى الى جحرها !**

ومن مبنى المستشفى انفلت شخص أقبل يجرى نحونا .. ذلك كان ابنى « سيلفام » . واحتضننى وهو يقول : « الحمد لله ، أبخير أنت ؟ » . وأقبلت ابنتى وهى تلهث لفرط العجلة .. ووقف « بولى » وحيدا ، مرتبكا ، فناديته وقلت : « هذا ابنى .. تبنيته أنا وأبوكما ! » . فأمسكت « ايرا » بيده قائلة : « انك تبدو متعبا وجائعا ، فتعال ! » . وتقدمانا ، فقال لى سيلفام : « لسوف ندبر الامر ، فلا تبتئسى ! » . وحاولت أن أفضفض بعض ما كان فى نفسى ، ولكنه قال فى حنان : « لا تتكلمى عما جرى ، الا حين تدعو الضرورة ! »

فقلت : « لقد فارق أبوكما الحياة فى طمأنينة وهدوء ! »



الخزي... أو الموت!

قصة للروائى الانجليزى "روبرت لويس ستيفنسون"

تلخيص : الدكتور نظمي لوقا

كان وسيما ، شجاعا ، غنيا ، وكان فى الثانية والعشرين ..
لهذا كان عريض الآمال ، وطيد الثقة فى نفسه وفى أيامه ، فما كانت الحرب تروعه ، ولا الاخطار تثنيه عن نزوة تداعب خياله!

لهذا لم يبال « دنيس دى بوليو » بمخاطر الحرب الناشبة فى المدينة ـ فى خريف سنة ١٤٢٩ ـ بين الانجليز والفرنسيين، وخرج من مستقره ليمضى بعض الوقت عند صديق .
وكان فى حسابه أن يعود قبل المساء ، ففى المساء يعربد الجند ويسكرون ، ولا يبالون من يلقون ولا من يكونون، فان هى الا طعنة طائشة وينتهى الامر ، ولا يكون له من أثر فى نفوسهم الا كأثر النكتة العابرة تتفتح لها النفس لحظة من زمان ثم تنساها بعد حين !

ولكن الحديث كان ذا شجون ، وكان الجو فى دار الصديق قريبا الى نفس الجندى الغريب عن الاهل ، فما فكر فى الانصراف قبل انتصاف الليل .

وكان غير خبير بشوارع (سان لاندون) ، بل الاوفق أن نسمى تلك الشوارع فى ذلك الزمان الذى لم يعرف لوائح التنظيم « أزقة » و « منعطفات » . وكان الليل داجيا ، ولم تكن فى ذلك الزمان ثريات كهرباء ولا غاز ، فظل يتخبط فى سيره حتى شعر بالارض تأخذ فى الارتفاع ، وكان الخان الذى يقصده على قمة التل الذى بنيت عليه المدينة ، فاطمأن وتابع سيره صعدا .

ولكن الطريق عاد الى الهبوط به ، فأدرك أنه جاوز الغاية فى الارتفاع الى الجانب الآخر من المدينة .. وأنه ضل الطريق!
وأرسل الطرف ، فاذا قبالته قصر ضخم البنيان شبيه بحصون النبلاء ، تبرز من واجهته العريضة منارة كنيسة ملحقة به ، وكان القصر مظلما لا بصيص من النور فيه ، وكانت صنعة البناء والنحات قد زينت كل ذراع منه بتمثال يبدو فى

الظلام كالحارس الرابض المتربص .. أما الباب فكانت تظله سلسلة عقود مسقوفة .

وفيما هو يتأمل البناء ، ويفكر فى الدفء الذى يتمتع به من يحتمى بهذا الباب من تلك الرياح العاتية الهوج التى تسفع الوجه وتهرأ الاطراف ، سرت اليه مع الريح ضحكات معربدة صاخبة ، فالتفت فاذا شرذمة من الجند يحمل واحد منها مشعلا ، مقبلة نحوه .

ترى هل هم من الاعداء ، أم من الاصدقاء ؟ وهل سيفكرون وهم فى هذا السكر البين فى سؤاله ، أم سيقضون عليه للتسلية واللهو ؟ .

لم يكن جبانا ، لقد خاض المعارك ونازل الاقران منازلة عادلة شريفة . ولكن الموت بين شرذمة من السكارى أمر غير محبب ، ولا مبرر له ، ما دام التخلص منه ممكنا بحال من الاحوال . وأخذ يتجه نحو ذلك الباب ، ولكن الجند لمحوه فصاحوا به أن يقف .. فزاد من سرعة خطوه واحتمى بعقد الباب ، وهو يرجو أن يحجبه عمود من تلك الاعمدة عن أعين هؤلاء المعربدين .



وأسند ظهره للباب يتلمس لنفسه مخبأ ، فاذا الباب يلين ويدور على نفسه ، فولجه واستدار ليغلقه فى وجه مطارديه ، فهاله أن يجده قد أغلق من تلقاء نفسه واحكم رتاجه !

وقف شعر راسه ، وتوهم ان فى هذه الظلمة السائدة على البهو احدا فعل هذا .. او لعلها الارواح !

ولكن قطع عليه هذا صوت الجند فى الخارج يقرعون الباب، حتى اذا يئسوا من اغتصابه شفوا غليلهم منه بالسباب وانصرفوا .

تنفس الصعداء بعض الشيء ، وحاول أن يفتح الباب ليعود الى داره ، ولكن الباب استعصى عليه كل الاستعصاء .

وتلفت حواليه ، فاذا الظلمة سائدة ، الا بصيصا من النور ينفذ من آخر البهو ، فاتجه نحوه .. فاذا به ثقب المفتاح ، وقد بدا منه — فى هذا الليل البهيم — نور الحجرة التى هو فى بابها .

لمس الباب فانفتح ، وأزاغ النور عينيه لحظة ، ثم بدأ يتبين فى الغرفة سيدا أشيب مهيب الطلعة جالسا الى نضد عليه ابريق خمر وكأس ، وليس فى الغرفة من الاثاث الا بضعة مقاعد ضخمة .

وتقدم فانحنى فى احترام ، وتبادل نظرة ثابتة مع الشيخ الذى ابتدره قائلا :

— تفضل .. لقد كنت فى انتظارك طيلة المساء !



لكنه لم ينهض من مقعده ، وانما اردف كلامه بايماءة وابتسامة .. وكانت الابتسامة كريهة شائهة . وكانت عبارته تلك مبعث ارتباك لدنيس فوق ما فى الموقف من تلك البواعث . ولهذا قال وهو يحاول ضم اشتات فكره بعضا الى بعض :

— أخشى يا سيدى أن يكون فى الامر التباس ، فلست أنا — ولا شك — الشخص الذى كنت تنتظره ، اذ ليس بيننا تواعد

على هذه الزيارة فى تلك الساعة المتأخرة ، وما كان قصدى أن آتى الى هنا ، بل ان هذا لم يخطر ببالى قط وما أردته أبدا . وبالعكس ، لعلى هنا الآن قسرا ، وليس أحب الى من مبارحة هذه الدار التى دخلتها متطفلا فيما يبدو !

وهز الشيخ رأسه ، وابتسم ابتسامته المقززة ، ثم قال :

ـ حسن كل هذا ، ولكنك الساعة هنا ، وهـذا هو بيت القصيد . فاجلس يا صاحبى ولا عليك من الاعتذار ، ولنسو ما بيننا من حساب يسير فى غير ما حقد ولا تعقيد ..

أدرك « دنيس » أن الامر لا يزال مختلطا على الشـيخ ، فاسرع يفسر له :

ـ لقد كان الباب ..

ولكنه قاطعه :

ـ بابى ؟.. لا تعجب من أمره فذلك الاختراع سر صغير من أسرارى .. ولئن كنت قد سلكته غير ظان أنه سيفضى بك الليلة الى لقائى ، فليس هذا بمانعى من أن أسر بهذا اللقاء !

ـ انك تتورط فى الخطأ يا سيدى ، فدعنى أجلو لك الامر على حقيقته ، ان اسمى « دنيس دى بوليو » وأنا غريب فى هذه الجهة ، فلا يمكن أن تكون بيننا صلة من أى نوع ، وانما أنا هنا ..

ـ لست أريد أن أسمع مزيدا فى هذا الصدد ، وأرجو ان تدعنى ورأيى فى هذا الامر ، ولئن اختلفنا اليـوم ، فالزمن وحده كفيل بالفصل بيننا ، أينا المخطىء وأينا المصيب . أما الآن فاجلس ..

وكان هذا كافيا لكى يوقن « دنيس » بأنه فى حضرة مخبول مختل العقل !

وطرقت سمعه فى تلك اللحظة أنغام ترانيم دينية فى صوت خفيض ، تنبعث من وراء ستار عن يمينه ، وكان يخيل اليه ان تلك الانغام صادرة عن شخصين حينا ، وعن شخص واحد

حينا آخر ، كما قر فى ذهنه أن ذلك الستار يحجب ابباب المفضى الى البيعة الصغيرة التى رأى منارتها وهو فى الطريق .

وانتبه من ذلك الخاطر الذى استغرقه لحظة ، فاذا الشيخ يفحصه من قمة الرأس الى أخمص القدم بعين ثابتة تنطوى على الخبث ، والقسوة ، والسخرية . وثقل هذا الصمت على سمع الشاب فوضع قبعته على رأسه ليستأذن فى الانصراف، ولكن الشيخ انفجر ضاحكا فى استهزاء مهين، فصاح به الشاب فى حنق :

ـ اننى سليل بيت عريق ، فاذا كنت يا سيدى متمالكا وعيك ، فاعلم أنك أهنتنى اهانة غير سليمة العواقب كائنا من كنت . وان لم تكن متملكا اياه ، فان عملى اكرم على من ان أستخدمه فى الحديث مع من لا عقل له . ولتعلم على كل حال انه لا صلة لى بك ، واننا هنا بمحض الصدفة ، وانه ليس لاى قوة فى الارض أن تبقينى فى هذه الدار ساعة أخرى !

ـ اجلس يا ابن أخى .. واهدأ نفسا .

ـ لست ابن أخيك .. وانك فى هذا لكاذب .

ـ اجلس أيها الوغد ، ولعل هذا الوصف يرضيك أكثر مما أرضاك سابقه . أتظن أن حيلتى اقتصرت على ألعوبة الباب التى خبرتها بنفسك ؟ حاول الخروج اذن يا صاح ، وسترى مصداق قولى .. انك اذن تقيد حتى لا تستطيع حراكا !

ـ أتعنى أننى سجين ؟

ـ وتحت الحراسة أيضا ..

وجلس دنيس مبهوتا ، يفكر فى أمر هذا الشيخ ، أمجنون هو ؟ واذا كان سليم العقل فماذا يبغى من وراء ذلك ؟ وفيما هو مستغرق فى هذا التساؤل ، انزاح الستر الذى عن يمينه وبرز منه كاهن مهيب ، حدج دنيس بنظرة طويلة فاحصة ، ثم انحنى على كتف الشيخ وهمس اليه كلاما غير مسموع ، فسأله الشيخ :

ـ هل هدأت هى الآن ؟

ـ أكثر من ذى قبل يا سيدى .

ـ حسنا .. لقد حضرت طلبة نفسها ، وانه لفتى مليح ومن بيت غير مغمور .. وهو فوق هـــذا اختيارها هى عن ارادة حرة .. فماذا تريد أكثر من هذا كله ؟

ـ الامر يا مولاى فيه على كل حال بعض الارهاق لاعصاب آنسة شابة رقيقة ..

ـ كان عليها أن تفكر فى العاقبة قبل أن تخاطر بسلوك هذا السبيل ، أما الآن فعليها أن تحتمل نتيجة عملها حتى النهاية !

ثم التفت الشـــيخ الى دنيس المذهول من هذا الحديث الغريب ، وقال له :

ـ والآن يا مسيو « دى بوليو » ، أتســمح لى أن أقدمك بصفة رسمية الى ابنة أخى التى كانت أشوق الى حضورك منى ؟

وكان الامر قد بلغ بدنيس مبلغا لا يبالى بعده ماذا يكون ، بل أنه أحب أن يعلم ماذا وراء كل هذه المعميات ، مهما يكن من سوء المغبة !

وطلع الشـــيخ ـ معتمدا على ذراع القس ، ومتأبطا ذراع دنيس ـ فدخلا المحراب وراء الستر .. فاسترعت نظر دنيس فتاة جاثية تصلى ، وهى فى بزة العرس البيضاء المعهودة !

وقال الشيخ موجها اليه الخطاب بصوته الرقيق ، الذى يفيض على رقته خبثا وقسوة :

ـ كفى صلاة يا ابنة أخى ، وتعالى أقدمك الى هذا الصديق أعطيه يدك يا « بلانش » .

ونهضت الفتاة من ركوعها ، وتقدمت اليهم على استحياء ، وقد غضت من بصرها ، والخجل يكاد يدمى ملامحها الرقيقة الشفافة .. وما بلغتهم وهى تحدق فى الارض ، حتى لمحت قدمى دنيس ، وكان من عادته أن ينتعل حذاء أصـــفر غير

مألوف الصنعة والشكل، فرفعت بصرها الى وجهه مأخوذة ، ثم تراجعت كمن رأت شبحا مرعبا :

ـ كلا .. كلا .. انه ليس هو يا عمى !

ـ ها .. ولكنك قلت أنك نسيت اسمه ، فمن المحتمل انك نسيت شكله !.. وعلى كل حال ، لا علينا أن يكون هو أو ليس هو .. فهذا هو رجلنا حاضر بين يدينا ، وليس لك ولا لنا فى الامر خيار !

فحدجت الفتاة دنيس بنظرة احتقار وحقد ، وقالت له :

ـ ألديك من الشجاعة والشرف يا سيدى ما يكفى للاقرار بالحقيقة ، وهو أننى لا أعرفك ولم أرك من قبل أبدا ؟

ـ طبعا يا آنسة .. وأرجو أن تسمح لى يا سيدى أن أؤكد لك أننى لم أتشرف من قبل برؤية ابنة أخيك ، مع ما كان فى ذلك من شرف لو أنه صح !

فهز الشيخ كتفيه .. وقال فى غير اكتراث :

ـ يؤلمنى أن يكون الامر كما تقول .. ولكن لا حيلة لى فيه . كما أن تجربتى الخاصة تجعلنى لا أعير ذلك اهتماما .. فما رأيت زوجتى المتوفاة قبل الزفاف ، ولم يمنعنا هذا ان نحسن التفاهم ، وأن نعيش معا حياة لا يحتاج البشر لاهنأ منها !

وعندئذ رفعت الفتاة رأسها وثبتت نظرها فى عمها ، وقالت له فى حزم :

ـ لا أظنك جادا يا عمى . ولتعلم على كل حال أن الموت أهون على نفسى من أن أفرض نفسى على هذا الشاب زوجة له بالقوة .. فالله لا يحل مثل هذا الزواج ، وانك لو أرغمتنى عليه لدنست شيبتك هذه حتى آخر الدهر !

ولكن الشيخ كان قد بلغ عتبة الباب ، فاستدار اليها وقال لها :

ـ أظن أن هذا الفتى فتاك ، وان لم يكن هو فما احسبنى أعبأ بهذا مثقال ذرة ! ولتعلمى يا « بلانش دى مالترو » أنك

ما دمت قد حاولت تدنيس اسم أسرتى الذى ظل رفيعا ثلاثة قرون سويا فليس أقل من أن تتزوجى صاحبك ولتحمدى الله أن أباك ليس فى مكانى ، والا كان طردك من داره دون مناقشة ولا رحمة .. ولكنه مات وترك لى أمر شرف الاسرة، **وقلبى الرحيم أملى على ان أصلح الامر بزواجك من صاحبك ، والا انتقم منك الانتقام الذى تستحقين ولا شك .. واذا رفضت هذا الشاب ، فانه سيقتل لئلا يفشى السر ، وستتزوجين على كل حال من انسان ما كما اختاره لك ، وأقسم ليكونن زوجك حينئذ أشوه خلق الله وأدناهم !**

وانصرف الشيخ والكاهن وتركاهما وحدهما فى المحراب .. فنظرت الفتاة الى دنيس وقالت له :

ـ خبرنى بربك من تكون ، وما الذى أقحمك فى هذا الامر ؟

وأنبأها دنيس بالامر كله فى اختصار .. وطلب اليها أن تشرح له القصة من جانبها .. فأطرقت برهة ، ثم رفعت رأسها ونظرت الى مذبح الكنيسة ، وقالت له :

ـ ان كبدى ليتصدع لمجرد تفكيرى فى افشاء سرى لمخلوق، ولكن من حقك وقد أقحمت فى الامر وتعرضت لمخاطره أن تعرف هذا السر .. لقد فقدت أبوى منذ طفولتى الباكرة ، وتركت بلا أخ ولا أخت ، فى رعاية عمى هذا ، وكانت حياتى معه سلسلة متصلة من الشقاء والوحشة .. الى أن حدث منذ ثلاثة أشهر أن كنت فى الكنيسة ، فلاحظت أن ضابطا وسيما يقف دائما الى جانبى فى القداس ، واننى موضع اهتمامه .. فسرنى أنا الوحيدة الشقية أن يهتم بى انسان .. ولهذا ، عندما دس فى يدى رقعة من الورق ، لم أرفضها ، وأخذتها الى البيت حيث جعلت ألتهمها بعينى التهاما .. وتتابعت رسائله بهذه الوسيلة ، يعوض بها نفسه عن استحالة مخاطبتى فما لاذن . **واليوم ، فى الصباح ، لاحظ**

عمى – ولا أدرى كيف – أنه دس فى يدى رقعته ، ففى طريقنا الى المنزل ، فتح قبضتى وأخذ الرقعة فتلاها وسار كأن لم يحدث شيء .. وكان فى الرقعة رجاء حار أن أترك باب البيت مفتوحا فى منتصف الليل ليتسلل منه فنتحدث قليلا فى نجوة من الرقباء . وكان فى هذا القضاء على ، اذ ألقى هذا الطلب على علاقتنا ظلا قذرا لا يمت الى الواقع بسبب .. ولما بلغنا الدار ، أمر عمى فألبست بزة العرس هذه ، وأمر القس فاستعد لعقد قران ، وترك عمى الباب مفتوحا « ليصيد » الفتى ، الذى رفضت أن أذكر له اسمه .. فاننى آبى أن أورط شابا فى زواجى دون ان يكون قد طلب ذلك الى صراحة. أفلا أكون صائدة أزواج ؟ انه قد يكون غير جاد فى علاقته معى ، فكيف بالله أقف منه موقف المورطة له فى زواجى بالقوة ؟

.. وكان يا سيدى أن وقعت أنت فى الفخ بدلا منه .. ولكن من أين له لعمرى أن يصدق انك لست الرجل ؟

– سيدتى .. لقد شرفتنى بثقتك فأفضيت الى بسرك ، ولكن بقى على أن أقيم الدليل على جدارتى بهذا الشرف ، فهل لك أن تعطينى ذراعك لاقودك الى عمك ، فأخاطبه خطاب رجل شريف يعرف ما ينبغى عليه نحو سيدة نبيلة ؟

ولما وصلا اليه فى قاعة مكتبه ، نهض للقائهما وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة ، فقال له دنيس فى جد وثبات :

– أحسب من حقى يا سيدى أن يكون لى فى هذا الزواج رأى . ولتعلم اننى لا أقبل ان افرض على هذه الآنسة ، ولو أنه كان لى أن أطلب يدها باختيارها لسرنى هذا وشرفنى ، لانها طيبة المعدن طاهرة الذيل بقدر ما هى جميلة رقيقة .. أما هكذا ، قسرا ، فليس يسعنى الا ان أرفض هذا الشرف !

ونظرت اليه « بلانش » نظرة شكر وامتنان ، ولكن عمها أسرع فقال بلهجة هادئة باردة كالثلج :

ـ أخشى يا مسيو دى بوليو أن تكون غير مدرك لكل ظروف الموضوع : اما ان تقبل زواج هذه الآنسة قبل شروق الشمس، واما ان تشنق فى فناء الدار .. كن ابن من شئت ، ولكن أقسم أنك لن تفلت من الشنق اذ ترفض يد سيدة من آل « مالتروا » !

ـ احسب يا سيدى ان هناك وسيلة معينة يسوى بها النبلاء خصوماتهم ، فاحتكم يا سيدى الى سيفك .

ضحك الشجاع فى سخرية ، ونظر اليه بعين مقفلة وأخرى مفتوحة ، ثم قال له :

ـ لقد اشتعل رأسى شيبا ووهن العظم منى ، فلا تؤاخذنى اذا تركت لاتباعى حمل السيف نيابة عنى .

وجذب حبلا الى جواره فأزيح ستار مقابل للباب المفضى الى الكنيسة ، فاذا قاعة مليئة بالجند شاكى السلاح فى بزة الحرب الكاملة .

وأعاد جذب الحبل ، فأسدل الستار كما أزيح .

ـ والآن ، لعلك أدركت ما أنت مقبل عليه ، ولست بالرجل القاسى الجافى الطبع ، فسأترك لكما ثلاث ساعات تحاولان فيها أن تستقرا على رأى ، وانى لارجو مخلصا ان تتمكنا فيها من التفاهم وأحكام المودة بينكما ، فذلك خير لكما على كل حال ، اذ لا محيص لكما من الزواج .. أو الموت !

وترك لهما المكان وانصرف .

وما خلت الغرفة لهما حتى تقدمت بلانش من الشاب وقالت له فى حزم ولهفة :

ـ لن تموت .. ولو اقتضى الامر ان تتزوجنى !

ـ يخيل الى يا سيدتى أنك تحسبين الموت فى نظرى ليس شرا منه شىء

ـ كلا يا سيدى ، لست أراك جبانا ، بل لانك لست جبانا أرى موتك خسارة يجب أن نتفاداها !

ــ لقد رفضت الزواج كرما منك ، حتى لا تفرضى على انسان غريب لا يدله فى الامر . وأنا كذلك أرفضه أنفة من الخضوع للتهديد والارهاب . ثم انك مقيدة القلب ! وليس لك أن تمنحينى ما تدينين به لرجل آخر !

فاحمر وجهها لهذا التلميح ، وسكتت كما سكت هو ، وجلسا صامتين بعض الوقت يحدقان فى الارض العارية والاثاث القليل المتناثر ، ولكن الوقت كان يمر فى تثاقل ، ثم صكت أسماعهما أصوات متنافرة تحت النافذة المرتفعة ، فأطلا فاذا العمال ينصبون مشنقة فى صحن الدار !

ونظرت اليه الفتاة بحزن وقالت :

ــ ألا أستطيع لك شيئا ؟

ــ سامحينى يا سيدتى ، اننى أرفض من أجلك ، لا من أجل نفسى .

ــ انك كريم يا سيدى وشجاع ، ولهذا ارجو ان تتيح لى أى فرصة لخدمتك ، الآن أو فيما بعد .

ــ الخدمة الوحيدة التى أرجوها يا سيدتى أن تنسى هذا الموقف الحرج وان تبتسمى ، واذا مت فاعلمى ان الموت فى سبيل خدمة عابرة لك شرف عظيم لا أرجو خيرا منه . فليس لك ان تحزنى ، وليس لهذه الذكرى أن تعكر صفو لياليك التى أرجو أن تكون عاطرة هينة هنية .

ــ انك رقيق سمح يا سيدى الى حد لم أحلم ان يبلغه خلق الرجال أبدا . ان لك نفسا صافية سامية كهذه النجوم التى تجنح للغروب ، فكيف بالله أنسى نبلك ؟ !

وانخرطت فى البكاء راكعة عند قدميه ..

ــ انهضى يا سيدتى ، وتذكرى انه لم يبق لى فى الحياة الا ساعة ، فلا تعكريها على بمرارة دمعك ، بل ابتسمى ، حتى ألقى الموت مرتاح القلب .

ــ سامحني يا سيدى ، ولكن كرمك أثقل قلبى بالاحزان .

واننى لا أستطيع أن اتصور مثلك يموت بينما الانذال ينعمون بالحياة والجاه ! ولماذا تموت ؟ لانك كريم ونبيل وشجاع ، ولا تريد ان تخضع للارهاب ولا ان تفرض نفسك على فتاة لتنجو برأسك !

ـ أؤكد لك ان ما من شاب فى فرنسا الا ويحسب هذا الذى أنا فيه نعمةمن السماء ومحاباة من القدر . وانك لجميلة ياسيدتى ومحببة الى نفس كل رجل له ذوق وقلب . ولكن، هكذا وبالقوة ، وانت راغمة ؟ كلا ، دون هذا الموت ، لانه أحلى منه وأشهى .

وسكت ، وسكتت ..

ولكنها رفعت رأسها بعد دقائق ، وحدقت فى عينيه وهى تقول :

ـ أرجوك ان تصدقنى القول : أترانى حقا جميلة ؟

ـ أقسم لك اننى أراك رائعة الحسن .

ـ اتحسب الكثيرين يرفضون الزواج من مثلى لو سألتهم هذا ؟

ـ سيدتى ، انك تتجاهلين انك سألتنى هذا عن شفقة لا عن حب !

ـ لست على يقين من هذا .. لقد سألتك هذا لا عن شفقة ، بل لاننى أعجبت بك وأكبرت رجولتك ونبلك ، فرأيت فى الزواج منك وانقاذك من الموت شرفا لى أزهو به أمام نفسى !

ـ دعك من هذا الآن ، وتعالى نشهد اولى خيوط الفجر من هذه الشرفة .

ـ هل طلع الفجر ، هكذا سريعا ؟

ـ نعم .. ولم لا ؟ كان لا بد أن يطلع على كل حال .

ـ وماذا ستقول لعمى ؟

ـ ما شئت .. فقد شهدت بنفسك أننى أستهين بالموت من أجلك ، بل أرحب به .

وما اتم عبارته ، حتى رن جرس الكنيسة ، معلنـا نهاية الاجل المضروب لهما .

ـ أتتزوج منى بعد الذى سمعت من صلتى بهذا الضابط ؟

ـ اننى لم أسمع شيئا يا سيدتى .

ـ انك لكريم .. انك تقتلنى بنبلك .. لقد كان اسـمه « فلوريمون دى شامد يفير » .

ـ ولا هذا أيضا سمعته !

وضمها الى صدره ، وجفف خديها اللذين بللتهما الدموع بشفتيه الملتهبتين ..

ورنت فى الغرفة خلفهما ضحكة ناعمة ساخرة ، أطلقهـا عمها الشيخ ، كأنه يقول : **لقد كنت أعلم أن هذا سيكون !**


قصة عربية
امرأة... بلا غد!
للأديب اللبناني
كمال سنّو

طردت عن شفتيها بقايا سحابة من دخان ، واغرقت أذنيها فى نغم خافت هامس ، وسمرت عينيها فى صورة قديمة ركزت فى الزاوية ، وأسلمت نفسها الى دنيا اللاشىء ..

انها تعرف هذا المكان جيدا .. تعرفه منذ خمس سنوات كاملة .. خمس سنوات حفلت بالكثير ..

سهرت كثيراً ، وشربت كثيراً ، ورقصت كثيراً ، واسندت رأسها على أكتاف كثيرة !

ان كل ركن يلهب فى مخيلتها ذكرى ، بل ذكريات ..

لقد جلست على جميع كراسى البار ، وحملها كل مقعد فى الصالة أو فى المطعم ..

حتى أصابع البيانو لامست اصابعها ..

ورأت وجوها كثيرة تتبدل وراء البار وبين الخدم ، ولكنها بقيت اللوحة الدائمة فى هذا الاطار الليلى الجميل ..

ودارت الاسماء فى رأسها كالاعصار ، وحاولت ان تتوقف عند بعض الاسماء ، ولكن الاسماء الاخرى كانت تتلاحق بجنون ..

ومدت يدها تمسح عن عينيها دمعة ، وحانت من صديقها لفتة ، فابتدرته قائلة : « لقد دخل الدخان فى عينى !!! »

وأغمضت عينيها لبرهة وهمست لنفسها : « الدخان .. كذبة جديدة فى حياتى الملأى بالكذب والنفاق والخداع .. كذبة جديدة لواحد من كثيرين يخدعون انفسهم اذ يظنون انهم أذكياء ! »

ونظرت الى الزاوية ، ورأت اثنين يتناجيان فى حديث لا يسمع ، على ضوء شمعة ركزت على فوهة زجاجة ويسكى .. رأته يمد يده الى خصلة من شعرها فيداعبها ، ثم يقدم اليها سيجارة ويشعلها لها ، ويتناول كأس الويسكى بعد ذلك ويداعب بها شفتيها ..

وكادت تصرخ بها : ((**احذرى فقد دخلت مواطىء النار !**))
ولكنها كبتت هذه الصرخة وفى أعماقها شـيطان يقول :
((**لتنضم هذه البريئة الى موكب التائهات .. ففى كثير من النفوس جوع لا يحد ، ومائدة الخطيئـة بحاجة الى طعام جديد !**))

واسترجعها صديقها من افكارها عندما قال لها : ((هـل تريدين كأسا جديدة ؟))

ومثلت شفتاها دور ابتسامة ، وتراقصت زمرة من شعر ذهبى وهى تهز برأسـها موافقة ، وعادت الى نفسـها من جـديد ..

انها تذكر ملهى ((الديسكوتيك)) تماما ..

* * *

أمسية من أمسيات الشتاء .. كانت تهيىء نفسها للذهاب الى منزلها عندما طلب اليها المحامى الذى تعمل عنده كسكرتيرة ان ترافقه فى سهرة . قال لها انه وحيد ويائس ودنياه كأنهـا سلخت من ليل طويل ..

ووافقت على طلبه .. ذهبت معه الى منزلها تقول لخالتها انها ذاهبة الى سهرة .. كانت مثله وحيدة ويائسة ودنياها ليل طويل .. كانت تريد ان تنتهى من فراغ حياتها .. تريد ان تنتهى من خالتها التى تعهدتها مذ مات والدها .. تريد ان تستقل فتشعر ان لها ارادة .. وكانت بعد كل هـذا وذاك تمنى نفسها بالزواج وبالبيت السعيد ..

كانت تجلس وراء طاولتها وتنظر الى المحامى كأنهـا تبحث عما يجب ان تحبه فيه .. حتى فى اللوائح القانونية التى كان يكلفها بضربها على الآلة الكاتبة كأن تبحث عن الكلمات الرقيقة والخط الجميل ..

وعندما دعاها لان تسهر معه حلقت فى سمائها الامنيات ..

لعله يصارحها بحبه .. لعله يدعوها الى حياته !

ووقفت معه أمام الباب الاخضر المغلق ، وهمس فى أذنها : « انه ناد خاص .. ناد لابناء الذوات .. »

وأخرج مفتاحه الاصفر الانيق ، وبعد لحظة وجدت نفسها فى عالم جديد : **اضواء خافتة .. وشوشات هادئة .. زوايا كأنها فى الجنة .. موسيقى حالمة .. طراز خاص فى الترتيب .. لوحات قديمة رائعة .. ضحكات كلها سعادة ..**

وعرفت عيناها معنى الحيرة ، بينما قادها هو الى زاوية هادئة .. وانقطع أمامها شريط ذكرياتها عندما قال لها صديقها الجديد :

ـ هل انتهى حلمك ؟ اراك نسيت كأسك ..

وتناولت كأسها وضمتها الى شفتيها وهى تحاول ان تبتسم ، والتفت صديقها الى من معه يتابع حديثه .. بينما تابعت هى ذكرياتها :

.. وشربت اول كأس !.. مانعت كثيرا ولكنه ضحك منها .. انها تكاد تسمع صوته الآن يقصف كالرعد فى اذنيها : « لا شىء .. انه (دراى مارتينى) .. »

وعرفت اسما جديدا لشىء جديد فى حياتها ، وتخيلت انها ستضحك كثيرا عندما تسكر .. ستضحك كما يضحك السكارى فى الافلام .. وماذا يضيرها ان تضحك لو سكرت ؟

وشربت أول قطرة .. واندلعت النار فى امعائها وعينيها وشفتيها .. واعتصرت قلبها يد رهيبة كالموت ..

وأغاظتها ابتسامة ميتة على شفتى المحامى ..

ـ لا شىء يا حلوتى .. لا شىء ..

وشربت القطرة الثانية والثالثة والرابعة .. وفى كل مرة كانت تشعر بالموت ينشب أظفاره فى عنقها ..

ودعاها الى الرقص ، وفاجأته بقولها انها لا تعرف كيف ترقص .. وعاد يبتسم وهو يقول لها : « سأعلمك كيف

ترقصين .. »

ونزلا الى الحلبة .. كانت تشعر بالثقل يهد كيانها ، واستندت اليه ، وأخذ يحركها وهى لا تقوى على الحراك .. اراحت وجنتها على وجنته وهى لا تدرى .. دفنت صدرها فى صدره وهى شبه لا واعية .. كانت تريد ان تتهالك على أى شىء ..

وشعرت أنها لا ترقص .. وانه هو ايضا لا يراقصها .. وسمعت من قلبها ناقوسا بعيد الرنين يحاول انقاذها ، ولكنها لم تستطع ان تتنبه .. وقالت له : « دعنا نخرج من هنا .. اريد ان اتنفس .. اريد قليلا من الهواء .. »

وبالابتسامة الهادئة نفسها جابه طلبها وقال لها : « سنذهب فى نزهة .. سأطوف بك فى السيارة على شاطىء البحر ثم نعود .. سأمنحك أكبر كمية من الهواء .. »

وابتسمت .. وعندما ضمتهما السيارة ، ابتسم لها وابتسمت له .. ومضت بهما السيارة ، ورافقا شاطىء البحر فى رحلة .. طوقها بذراعه فمالت برأسها تجعل من ربطة عنقه قبرا لانفاسها .. وقبلها فى شعرها ، ولم تجد على لسانها كلمة تقولها :

واوقف السيارة قريبا من شاطىء « سان ميشال » ، ولمحت على شفتيه شيئا لا يمكن ان يكون ابتسامة فقط ، ورأت فى عينيه ومضات .. وبسرعة ، وجدت شفتيها وقد غرقتا فى خضم من لحم وماء !

شفاه .. تنهدات .. زفرات .. جنون .. ثورة .. شعرت بقلبها يرفرف كطير صغير لم يتعلم الطيران بعد .. تمنت لو تمزقه بيديها .. لو تحفر بأظفارها فى جسده خطوطا لا يمحوها الزمن .. شبت فى صدرها نار الشهوة العارمة ، فلقد عرفت أخيرا طعم القبلة التى قرأت عنها كثيرا وشاهدتها فى الافلام ..

وعادت تبحث بشفتيها عن شفتيه وتزف اليه قبـلا لم يحلم بها ..

★ ★ ★

وعندما أضاءت فى عينيها مشاعل النقمة على ذلك اليـوم أعادها صديقها الجديد الى واقعها اذ قال لها :

ــ أراك اليوم تعيشين فى صمت وتجافين الكأس ولا تنزلين الى ساحة الرقص .. فيم تفكرين ؟

ــ لا شىء .. انى تعبة واريد ان ارتاح قليلا ..

وعاد يتابع حديثه مع أصدقائه .. وعادت هى الى ماضيها من جديد ، وأخذت تردد فى فمها المغلق همسا : « الـكأس والرقص هما مرحلة البداية والنهاية .. الكأس الاول والرقصة الاولى كانا بداية مرحلة جديدة فى حياتى .. **بعد الكأس الاولى والرقصة الاولى أصبحت صديقة المحامى .. أصبحت عشيقته .. ولم يعدنى بالزواج ، ولم يزين لى احلاما عن بيت سعيد .. كنت أعتمد على ذكائى فى اصطياده ليكون زوجى ، وكان يعتمد على ذكائه كى ينجو بنفسه من الزواج !** وقـدمنى الى أصدقائه ، وكنت بين اصدقائه الهدف الذى يحاول كل واحد منهم الوصول اليه .. كان كل واحد منهم يسعى الى اختلاس موعد لسهرة أو نزهة او رقصة .. كانوا فئة كبـيرة من الذئاب وكنت بينهم الطريدة التى يتكالبون عليها ! » .

وفتحت فمها فى تثاؤبة أطلقت سراح سلسلة من الشتائم لاولئك الذئاب .. ثم عادت تسترجع ماضيها :

بدأت الحلقة بالصديق الاول ، واتسعت بعـد ذلك حتى باتت صديقة الكل . يلاحقها الكل ، ويطمعون فى موعد وسهرة .. وكانوا يعرفون أن أقصى ما يمكن ان يناله اى واحد منهم لن يتجاوز الشفتين ، ومع ذلك لم يكفوا عن ملاحقتها بدعواتهم وسـهراتهم ..

وعرفت قدماها طريق اندية الليل فى بيروت ، وعـــرفت « الكاف دى روا » و « الكورسير » ــ عندما كان كورسير ــ ودشنته عندما أصبح « ماكومبا » .. كما عرفت «نبثون روم» و « ايف » و « الليدو » و « الكابيتول » ..

أصبحت تسهر فى كل مكان ، وكل ليلة مع رفيق ، وتعودت شفتاها ان تمنحا القبلة مع الصباح كصـدقة تجود بها على محروم قضى ليله يكافح كابوس الامل ..

وانتقلت بخالتها من المنزل القديم الى منزل جديد ، وعلمتها كيف تخرس فلا تعاتبها ولا تجادلها ..

وتركت عملها عند المحامى لتعمل سكرتيرة خاصة عند تاجر ثرى كهل لا يزال يتمسك بأذيال الشباب المتفلت منه ، ويمنى نفسه دائما بشفتيها وبضم جسدها بين ذراعيه التعبتين ..

★ ★ ★

وعرفت فى ليلة من الليالى وجها جديدا ، مؤهلاته أنه ثرى ووحيد ووجيه بين الناس ..

وحامت حوله بينما كان يحوم حــولها .. كان يستطيب الجلوس الى الطاولة التى تجلس اليها ، وكانت تفرض نفسها على أية حلقة تضمه ..

وتكررت لقاءاتهما ، وكان يظن أن الصدفة وحدها تحقق أمانى نفسه بلقياها ، فأقام للصدفة فى نفسه قداسة ..

ودعاها ذات مرة الى سهرة خاصة تضـمهما وحدهما . وقبلت دعوته لانها تريده ، ولانها تطمع فيه ..

وكانت ليلتها تلك هى الحد الفاصل بين عالمها الاول وعالمها الجديد .. فقد دخلت منزله تحصن نفسها بجدار من كبرياء ، وعندما خرجت فى الصباح تركت وراءها بقايا جـدار !!! .. مزقها بوعوده .. أرهقها بآماله .. حطم عنفوانها بالحـديث عن الغد .. جمل الحياة فى عينيها .. جعلها سـيدة المنزل

ليعبر على جسدها الى مبتغاه ..

وعاشت فى احلامها معه شهرا كاملا .. كانت له كل ليلة .. وكان لها فى كل لحظة .. تخلت عن كل شيء واحتفظت به وحـــده ..

ولم يكن لديه ما يتخلى عنه ، حتى جاء اليـوم الذى تخلى فيه عنها وتركها ، باحثا عن ضحية جديدة ..

وأرادت ان تنتقم منه .. أرادت ان تذله امام كل الناس .. ولكنها قبل ان تشرع فى انتقامهـــا التقت بالكثـــيرين من أصدقائه يعرضون عليها صداقتهم .. كلهم أثرياء .. كلهم وجهاء .. وكلهم يعرف عن قصتها الكثير ..

وتمنعت كثيرا ، وانتهت الى الســـقوط .. ولكنها كانت تختار ضحاياها .. كانت تبحث عن الثـرى الذى لا يبخل ، والمراهق الذى يتهاوى امام الجسد ، والكهل الذى يشـــترى الربيع ليدفىء به خريفه ..

واصبح للسهرة معها ثمن ، ولمراقصتها ثمن ، ولليل ثمن ..

وانطلقت فى تبذلها الجديد .. وانهال عليها المـال والهدايا .. والعشاق !!

★ ★ ★

ومر عام ..

عام طويل كأنه العمر كله ..

وكانت حصيلة العام خزانة ملأى بالثياب الفاخرة ، وبيتا أثاثه كأثاث القصور ، وسيارة انيقة صغيرة ، ودفترا صـغيرا يحوى الف اسم ، والف رقم هاتف .. والف ليلة تعطـرها الخطـايا ..

وافاقت من ذكرياتها لتشرب من كأسها ولتنظر الى صديقها .. انها لا تدرى اى رقم تمنحه بين الرجال الذين عبروا على جسدها .. وكل ما يربطها به انه انسان تافه وثرى ، تستعبده

لوجاهتها ، ويفاخر رفاقه بأنه صديق لفتاة جميلة يتمناها الكل .. انه صندوقها الذى تتناول منه ما تشاء .. انه لوح الثلج الذى يدفع ، والراديو الذى لا يكف عن حديث ثرائه ورحلاته فى اوروبا ..

ولم تدر لم ذكر صديقها لرفاقه اسم الشخص الذى تحب .. ولم تدر لماذا تلفظ باسمه فى اللحظة التى استعرضت خلالها شريط حياتها كله ..

وتناولت كأسها وأفرغتها فى جوفها .. كانت تريد ان تحرق نفسها لعلها لا تتذكر ولعلها تنسى .. كانت تلقى ذاك الذى شغفت به ، فى كل ليلة ، فلم تك تذهب الى مربع او ناد الا وتجده هناك !.. وكان جميع أصدقائها يحدثونها عنه .. واستطاعت أن تعرف عنه كل شىء دون ان تتحدث اليه ، ودون ان تجمعهما سهرة او ليلة .. انه صديق الجميع ، وانيس كل مجلس ، وزبون كل مربع .. انه الصامت عن كل سر ، العارف بكل قصة ، والضاحك دوما . يجلس دائما بعيدا عن اصدقائه فيتأملهم ويلقى اليهم من بعيد بقصة ضاحكة اونكتة .. **كان الكثيرون يحومون حولها ، أما هو فقد ظل بعيدا عنها .. كانت ترى فى عينيه قصتها كلها ، واذا ما التقت عيناها بعينيه شعرت به وكأنه يقول لها : « أنا أعرف قصتك .. انا اعرف تاريخ خطاياك .. انا اعرف كل ملمس فيك ! »**

.. الى ان كانت ليلة ساهرة اقيمت فى ملهى «الديسكوتيك» .. ليلة جاء فيها الجميع وهم يرتدون ثياب اليونان القدماء .. ورأته فى ثياب يونانية غريبة ، فاقتربت منه وقالت : « أى دور من ادوار اليونان تمثل هذا المساء ؟ »

فأجابها : « الاله سيفا .. اله الخطيئة ! »

وضحكت وهى تقول له : « لقد التقينا اذن ، فلقد اخترت الليلة دور « هيلين » ، حسناء طروادة ! »

كانت تلك اول ليلة تسهر فيها معه ، وتجلس الى جانبه ، ويخصها بحديثه .. ولم تدر كم شربت فى تلك الليلة ، ولكن ما تدريه انها لم تتركه طوال الحفلة ، ولم تأبه لجميع الذين دعوها للرقص او للانضمام الى طاولاتهم ..

وكان لا بد للسهرة أن تنتهى .. ووقف هو حائرا يتساءل : « كيف عسانى أذهب الآن الى المنزل ؟ هل ترانى اعثر على تاكسى ؟ »

وبادرته قائلة : « سأوصلك بسيارتى .. »

وضمتهما السيارة ، ولحظ أنها سكرى ولاتقوى على قيادة سيارتها ، فطلب اليها ان تسمح له بذلك .. وعندما جلس وراء المقود ، كانت هى تلقى بشعرها على كتفه ، وتدمدم لحنا عاطفيا ناعسا ، وتزيح عن صدرها الوشاح السماوى اللون .. وهمست تقول : « ومن يقود بى السيارة حتى منزلى ؟ أظننى أعجز من ان اقود سيارتى .. »

ولم يجبها .. لعله أخذ يفكر فى حل لهذه المشكلة الجديدة .. وبعد برهة سألها : « واين منزلك ؟ »

ومدت أصبعها تداعب به شفته السفلى وقالت : « هنا .. »

وتجاهل كلمتها ، فشتمته فى قلبها وتساءلت : **« لماذا لا يتمناها هذا الحجر الجامد ؟ لماذا لا يضمها ؟ لماذا لا يحطمها وينهش شفتيها ؟ لماذا لا يمزق ثوبها الذى ترتديه ؟ لماذا يرى جمالها ؟ لماذا لا يكون رجلا ؟ »**

وصمتت على مضض حتى عاد يسألها : « أين منزلك ؟ »

فأجابته : « اذهب بى فى نزهة وبعدها ادلك على منزلى .. »

والتفت اليها بنصف نظرة . وبينما كان يتجه الى طريق المطار ، كانت هى تزداد التصاقا به ، وتحرك رأسها لتريحه وراء كتفه ، تاركة لشعرها ان يداعب انفه ببقايا عطر لم يلتهمها انف الليل ..

وامتد امامهما طريق المطار بالمصابيح البيض والحمر ، وأطفأ هو ضوء السيارة وأخذ يسير على مهل ، ومدت يدها تعبث بأزرار الراديو حتى أراحتها عند أنغام هادئة . ثم قالت له :

ـ دعنا نوقف السيارة هنا ونرقص على ضوء المصابيح ..

وعند منعطف نصف دائرى ، أوقف السيارة وسبقته الى الطريق ، تقفز جذلى ، وتتمايل سكرى ، وتمد ذراعيها تريد أن تغمسهما فى قلب السماء والنجوم ..

ورقصا بثيابهما اليونانية .. وضحكا .. ومر بهما كثيرون، وضحكوا لمنظر اثنين متنكرين يرقصان فى الطريق ..

ولكنها كانت تريده هو وحده .. كانت تريد ان تطعمه من شفتيها ومن جسدها ما يشاء .. وكانت تريد ايضا ان تضم اسمه الى اسماء الكثيرين الذين عرفتهم ..

وسارا الى الرمال الباردة ، وشعرا بالهواء البارد يتسلل الى مسام جلدهما . فالتصقا ببعضهما البعض ..

وعندما عادا الى السيارة قالت له ضاحكة : « أرأيت فضائل ثياب اليونان .. انها سهلة جدا .. انها غير معقدة .. »

وقبل ان يجلس الى مقود السيارة قالت له : « سأقودها أنا وسأوصلك الى منزلك .. لقد استعدت الآن قواى .. »

وعندما هبط من السيارة ليدخل منزله قالت له : « سأتصل بك غدا .. »

ولم تتصل به فى الغد ، وتعمدت ذلك كى تثيره .. وفى الليل شعرت انها تريده ، شعرت ان هناك شيئا مجهولا فيه يجذبها اليه ، وجابت مرابع الليل كلها ولم تعثر عليه .. سألت عنه أصدقاءه فأجابوها بأنهم لم يروه ، وكانت تعلم أنها اذا لم تره فى تلك الليلة فلن تراه فى الغد ، لانه لا ينزل الى مكتبه يوم الاحد ..

هل تراها أحبته ؟ أم انها تريد اذلاله ؟ واذا كانت قدأحبته

فما الذى حببه اليها : صمته أم علامات الاستفهام التى تحيط به ؟ هل هى منقادة الى نزوة عابرة أم ان خفقات حية فى قلبها البارد اخذت تعلمها معنى الدفء والحب ؟

كانت تراه كل ليلة ، وتتأمله كل ليلة ، وتستمع الى أحاديثه كل ليلة .. ورأت فيه نموذجا جديدا فى الحياة التى تحياها .. استطاعت ان ترى الاشياء الدقيقة فيه ، حتى اذا مالقيته لم تلقه كما يراه الناس ، بل كما تراه هى من خلال اشيائه الصغيرة التى أحبتها ..

وسمعت صوته مع صباح الاثنين .. حاولت ان تعاتبه فهربت الكلمات من شفتيها ، وطلبت منه موعداً فى المساء فقال لها : « سنلتقى عند ملهى « الانكل سام » فى الساعة التاسعة ومن هناك ننطلق الى حيث نشاء .. »

لقد مرت كثيراً قرب « الانكل سام » ، ولكنه فى هذه المرة سيوحى لها بشىء جديد .

وعندما مرت بسيارتها هناك فى الساعة التاسعة ، طافت عيناها باحثة عن الوجه الذى تريد ..

ورأته واقفا عند زاوية الشارع ، يواكب بعينيه كل سيارة تعبر .. فوقفت ريثما صعد الى جانبها ، وسألته : « الى أين ؟ »

وأجابها : « الى مطعم « مانيرا » ، وأظنك مثلى جائعة .. »

وانطلقت السيارة من جديد الى مطعم « مانيرا » ..

كانا يأكلان ويضحكان ويتحدثان .. روت له ما تعرفه من حياته ، وروى لها هو ما تجهله عنه .. وسألته اين يريد ان يمضى بها ، فأجابها : « الى « ويسكى آغوغو » .. سنجلس فى الطابق الثانى بعيداً عن الناس ، ونتحدث بهدوء ، ونستمع الى الموسيقى التى نشاء .. »

ووافقت على الفور . فلقد كانت تريده وحده ، بعيداً عن كل من تعرف ..

وقبل أن يصعدا الى الطابق الثانى ، وقف عند جهاز الاسطوانات « الجوك بوكس » يختار سلسلة من الاغنيات .. وتحدثا ورقصا ..

والتقيا بعد ذلك فى ليال كثيرة .. وتحدثا عن أشياء كثيرة .. وكانت الايام والليالى تزيد ما بينهما من علاقة .. الى ان قال لها ذات يوم :

- أريد ان امسح عنك لطخات الامس . أريد ان اجعل منك انسانة جديدة . اريدك لى وحدي واريدك زوجة . أنا لا يهمنى ان اكون اول رجل فى حياتك بل يهمنى ان اكون آخر رجل !

قال لها أشياء كثيرة ، كلها حب ووفاء ورغبة فى التضحية لانقاذها .. وكانت هى تتمنى أن تحقق له واحدةمن امنياته، ورغبة واحدة من آلاف تجيش فى صدره ، ولكنها قالت له :

- انى أحبك ، بل لعل حبك هو اول حب يعرفه قلبى ، وانى اتمناك دوما ، فلم اعرف قبلك دفقا طاهرا من الحنان واخلاصا يبلغ حد المغامرة .. **ولكنى من أجل حبك ، ومن اجلك انت ، يجب أن ابتعد عنك ، وان لا أتزوجك .. انك انسان يبحث عن غد ، وامامك قمم تطمح اليها ، وكلانا نعيش فى مجتمع مغلق ، وأصدقاؤك الذين تعرفهم هم اصدقائى ، وكل واحد منهم له معى مغامرة ، وحتى أصدقاؤك الذين ستعرفهم ، عرفونى قبلك ، وعندهم منى ذكريات .. وقد تنسى انت حوادث الامس ولكنهم هم لن ينسوها** .. وشعورك انت قد يتبدل فى الغد ، وقد تؤلمك ذكريات الناس عنى . وانا لا اريد ان اكون اسهل شتيمة فى متناول اية شفة .. انا لا أريد ان أهدم آمالك وطموحك .. اننى احبك ولهذا لا اريدك ان تنتهى سريعا .. ان كبر حبى لك يعادل كبر التضحية بسعادتى معك .. وكل ما اخشاه ان اضعف امام اغرائك او تضعف امام شعور الحنان الذى يملأ قلبك نحوى ، ولهذا

يجب ان نفترق ، واذا التقينا فلنذكر قلبينا ولنبارك امنية تحطمت من اجل سعادتك انت ، ويكفيك ان تعلم انى امرأة لها ماض وليس لها غد . وكل امراة لها ماض تهدم عشرين رجلا لهم مستقبل ..

هل تراها أخطأت : « هل كان عليها ان توافقه ؟ هل تغامر بحياته وحياتها ؟ واذا لم يكن حبها ينبع من الانسان الكامن فى أعماقها وسط آلاف الخطايا ، فما معناه اذن ؟

ومرت بيدها على جبينها ، وتناولت سيجارة اشعلتها بهدوء ، وعادت تجيل طرفها فى زوايا « الديسكوتيك » ..

ـ هنا كان يجلس .. هنا كان يلهو .. هنا تعثر مرة .. على هذا الكرسى جلست بجانبه منذ ثلاثة أشهر .. هنا ..

وتوقفت عن التفكير .. لقد رأته يدخل مثل عادته ، بخطواته اللامبالية ، وبعينيه اللتين تطوفان فى المكان بسرعة ، ويجلس على أقرب كرسى الى البار ، ويمد أصبعه الى « البارمان » دون ان يتكلم ، ويأخذ كأسه بسرعة ويرشف منها قبل ان تذوب فيها اول قطرة من الثلج ..

ورآها فتجاهل وجودها ..

وبعدت هى بطرفها عنه ، وحاولت ان تتحدث الى صديقها ورفاقه ، بعد ان بعدت عنهم فى غمرة ذكرياتها ..

وفوجئت بالجميع يقفون .. وقال لها صديقها :

ـ سنذهب الى « الكاف دى روا » .. لعلك هناك تتخلصين من الصمت وتمرحين ..

أجل .. ستتخلص من الصمت .. ستوصد باب ذكرياتها .. ستغلق باب قلبها فلا ينادى الامس ..

ومرت من امامه وهو جالس الى البار ، ونظر اليها فابتسمت له وداعبته قائلة :

ـ وحيدا مثل عادتك ؟ !!

فأجابها بكلمات ابتلع نصفها مع ثمالة كأسه :

ـ بل انى دائما مع غدى ..



عرض وتقديم : الدكتور أنور لوقا
المدرس بكلية الآداب بجامعة عين شمس

الكاتب الذى خلق ٢٠٠٠ شخصية !

ست وتسعون قصة متباينة الالوان والاحجام والاساليب ، تضم نحو ألفى شخصية من مختلف الطبقات والمهن والاعمار والاجناس، وتمتد فى المكان من المدينة بأحيائها الراقية والفقيرة، الى الريف بقراه الكبيرة والصغيرة .. وتعرض صراع الناس مع الناس ، وتفاعل الفــرد مع المجتمع ، وتحلل العواطف وتتعمق النفوس ، وتصــور الحقائق الخفية تحت المظاهر الخالبة ، وتمخر بالقارىء خضم الحياة المضطرب المائج .. **تلك هى ((المهزلة الانسانية)) التى أودعها ((بلزاك)) فلسفته وفنه وخلاصــة خبرته وتفكيره ، الاثر الجليل الخالد الذى استنفد ملكات أديب عالمى .**

التاجر والموظف والفلاح والطبيب والصحفى ورجل المال والقاضى والوزير ، الطفل والصبى والفتى والكهل والشيخ ، والعذراء الغريرة والعانس الحاقدة والام الفاضلة والزوجة الشقية والمرأة اللعوب ، كل أولئك يتعاقبون على مسرح الانسانية الشــاسع الارجاء ، يتبــادلون الاطماع والاهواء والاحن والخطوب .. يفجأ بعضهم بعضا بالخيانة والغدر ، ويضحى بعضهم لبعض بالحب والســعادة ، ونشــهدهم فى بيوتهم وشوارعهم ومنتدياتهم ومحال أعمالهم . كأنهم جميعا فى ساحة قتال رهيبة ، يديرون فيما بينهم حوارا مضــحكا محزنا ، ولا يكف امرؤ منهم عن الكر أو الفر حتى يلفظ أنفاسه ويخلى الميدان ، وحتى يسدل الكاتب على مأساته الستار الاخير .

وقد أطلق بلزاك على هذه المجموعة من القصص التى أراد أن يتعقب فيها آثام عصره عنوان ((المهزلة الانسانية)) معارضا الملحمة الشهيرة التى تعقب فيها ((دانتى)) آثام عصره ولكنه اتخذ مسرحها من الفردوس والجحيم وســماها ((المهزلة الالهية))

وقسم بلزاك قصص مهزلته الانسانية ثلاثة أقسـام : دراسات أخلاقية ، ودراسات فلسفية ، ودراسات تحليلية ، أكبرها القسم الاول الذى يتفرع الى : « مشاهد من الحياة الخاصة » و « مشاهد من الحياة فى الاقاليم » و « مشاهد من الحياة الباريسية » و « مشاهد من الحياة السياسية » و « مشاهد من الحياة الريفية »

والحق أن هذه الاقســام ليست الا واجهة رائعة تخفى وراءها بنيانا سىء التنظيم، واطارا متكلفا اصطنعه الكاتب بعد لأى ليوحى للقارىء أن هناك وحدة جامعة تربط بين قصصه المختلفة .. فأين التناسب بين أجزاء هذا الديوان الضخم والقسم الاول منه يشـمل عشرات من الكتب ، على حين لا يشمل القسم الثالث الا كتابين اثنين؟ وما هذا التصنيف الذى يحدد الحياة بحدود ، ثم يميز بين أشياء هى فى الواقع شىء واحد يستغرق بعضه بعضا : كالحياة الخاصـة والحياة فى الاقاليم ، أو الحياة فى الاقاليم والحياة فى الريف ، أو الحياة الباريسية والحياة السياسية ؟ لا هو بالتصنيف الجامع ولا هو بالتصنيف المانع . والعلة فى ذلك القصور أن المنية عاجلت بلزاك قبل أن يتم عمله من ناحية ، وأنه من ناحية أخرى كان قد انشأ كثيرا من قصصه ونشرها مستقلة متفرقة قبل أن تخطر له فكرة جمعهـا وتنسـيقها تحت عنوان « المهـزلة الانسانية » .

على أن المهزلة الانســانية وحدة عميقة أصيلة تزرى حكمتها بالرابطة الخارجية التى يجهد فى خلقها اطار ملفق . تنبعث هذه الوحدة من مبدأ مقارنة الانســان فى مجتمعه بالحيوان فى مملكته ، وهو رأى طريف كان موضع جدل العلماء فى القرن التاسع عشر . وقد جهر بلزاك فى مقدمته بأنه آت بما لم يستطعه « ولتر سكوت » ، فهذا الكاتب الاسكتلندى قد رسم لوحات مختلفة لعصور تاريخية مختلفة لا تصل

بعضها ببعض صلة فنية تجعل منها أثرا واحدا .. أما هو – صاحب المهزلة الانسانية – فقد آثر ألا يقتبس موضوعاته من التاريخ وعصوره الشتيتة ، بل عمد الى عصره ، فأحال بصره فى مناطقه وأقاليمه هنا وهناك ، وسجل ظواهره وبواطنه فى مشاهدمتسلسلةمتناسقة . اذن فالمهزلة الانسانية صورة مصغرة للمجتمع الانسانى يقدم فيها الكاتب للقارىء أمثلة من كل نوع ومن كل فصيلة ومن كل بيئة ، ولا يقف فى عمله عند العرض والوصف ، بل يمضى الى التحليل والتعليل، يرد النتائج الى الاسباب ، ويصدر حكما اخلاقيا على الاشخاص يبين الى أى حد يتفق سلوك أولئك وهؤلاء مع المبادىء المقدرة التى ينبغى أن تدير دفة الكون .

أبطال مشتركون .. فى قصص متعددة !

وثمة وحدة أخرى ، عميقة أصيلة أيضا ، تحكم الصلة بين اجزاء هذا البنيان المرصوص . **تلك هى بدعةظهور الابطال القدامى فى القصص الجديدة . وقد طرب بلزاك حين أشرق فى ذهنه ذلك الخاطر ذات صباح جميل من سنة ١٨٣٣ ، كما تروى أخته « لور » ، فقد دخل عليها منتشيا بابتكاره ، متهللا ، يصيح بها :**

– هنئينى ! فسوف أكون رجلا عبقريا !

ومن المحقق أن هذه الفكرة لم تكن جديدة على بلزاك سنة ١٨٣٣ ، لانه استخدمها استخداما بدائيا ، دون أن يعى مبلغ خصبها ، فى محاولاته القصصية الاولى ، وهو يستخدمها فى « المهزلة الانسانية » استخداما جديدا ، رائعا ، بعيد الاثر .. لقد فطن الى ما تبعثه فى نفوس القراء من قوة الشعور بحياة القصة وقوة الايمان بصدق وقائعها عودة شخص بعينه سبق لهم أن عرفوه وألفوه وشاطروه بؤسه وسعده وصحبوه طوال طور من أطواره فى معترك الحياة . ان مثل هذا الشخص غنى

باسمه ، غنى بصورته ، غنى بماضيه ، يضيف الى حوادث الرواية ومعانيها ثروة غزيرة . ما يكاد يبدو ، ويلقى كلمة من كلماته ، أو يأتى بحركة من حركاته ، حتى تستيقظ ذكرياتنا ، ويشتد انتباهنا ، ويتضاعف شغفنا بمدار القصة ، اذ أننا نشترك فى تمثيلها من تلقاء أنفسنا بقدر ما نعرف من شخصية صاحبنا ومسلكه مع الناس ومواقفه فى الازمات وأهدافه التى يسعى اليها دائما . وهكذا يصبح أبطال المهزلة الانسانية ملكا لنا وملكا للكاتب معا ، وتصبح حياتهم الخيالية حياة حقيقية تمتد الى أبعد من صفحات كتاب واحد والى أبعد من غلاف مجلد واحد . ولهؤلاء الاشخاص سجل مفصل جامع ، صنفت فيه أسماؤهم بترتيب الحروف الابجدية ، وذكرت أمام كل اسم عناوين القصص التى يظهر فيها وترجمة موجزة ، وقد قام بوضع « فهرس المهزلة الانسانية » هذا باحثان بلزاكيان هما « سرفيير » و « كريستوف » ليكون مرجعا لطلاب أدب بلزاك . وأعاد الاديب « فيلسيان مارتو » هذا التصنيف أخيرا فى صورة حديثة .

المال .. آفة المجتمع !

ولعل فى عنوان « المهزلة الانسانية » ما يوحى للقارىء بأن بلزاك قد أراد أن يصور المجتمع فى ديوانه بريشة الناقد . **وأول ما راع بلزاك وأثار سخطه هو سلطان المال . فالمال يستطيع كل شىء . انه آفة المجتمع ، يخلق المساواة بين بنى آدم ويهدمها فى آن واحد ، يسوى بين من امتلأت به خزائنهم ويهدم المساواة منذ أن يملأ هذه الخزائن فيمنح أصحابها حقوقا وامتيازات جائرة ! له هيكل فى كل شبر من الارض ، وله كهنة وعباد .** ولكن طقوسه هى الفوضى بعينها ، فهو نزق متقلب ، تجلبه المصادفة وتقصيه المصادمة ، ولا أدل على ذلك من خضوعه لسعد المقامرين ونحسهم . والجميع قد أفردوا

له مكان الصدارة فتبوأها متغطرسا غاشما . هو فى مخادع الامراء ، ومكاتب الوزراء ، ونوادى الطبقة الراقية ، كما هو على موائد متوسطى الحال وفى أزقة الاحياء الحقيرة ، يأمر وينهى فاذا أمره نافذ ونهيه مطاع ، واذا النفوس خاشعة لعبثه وهزله !

ها هو ذا ((**دى تيبيه**)) قد بدأ وهو موظف صغير لدى تاجر الروائح العطرية ((بيروتو)) بسرقة بعض الاوراق المالية ، فلما كشف أمره رب العمل الطيب القلب وأنبه ثم عفا عنه ، حقد على ولى نعمته هذا .. ثم أصبح من أصحاب الملايين ، وتقول زوجته : ((ان اغتيال الناس على قارعة الطريق يبدو لى ضربا من الاحسان اذا قورن ببعض العمليات المالية !))

وها هو ذا المرابى اليهودى الرهيب ((**جوبسيك**)) ، بعد شباب حافل بالمغامرات والصفقات والكسب الحلال والحرام ، قد كز جسمه وجف قلبه ، وبات غير ذى عاطفة ، لا يشعر ولا يحس ، وانما يعيش لينعم بسلطان المال ويتلذذ بازدراء البشر ، فانه فيلسوف ساخر يحدثك فى برود عن عبر الحياة ، ويصفه بلزاك فى غرفته النظيفة الساكنة ينتظر المكروبين من الخلق لكى يقرر مصائرهم كما يريد ، ثم يصف أولئك الضحايا قائلا : ((وأحيانا كان ضحاياه يكثرون من الصياح ويحتدون ، وبعد ذلك مباشرة يرين صمت شامل ، كما فى مطبخ يذبح المرء فيه فرخا من البط !))

وها هو ذا ((**ريجو**)) مرابى القرية ، رجل طويل القامة ، أسود الجفنين ، **ينافق ويتمسكن ويبدى الفقر ، على حين يحظى فى بيته بأشهى الطعام والشراب ، ويأكل وحده ، وتقوم على خدمته زوجه التى يعرف كيف يروعها بتقطيب حاجبيه الغليظين .. وخادمه الجميلة التى لا يستبقيها لديه أطول من ثلاث سنوات ، متعللا دائما فى نهاية هذا الامد بأنه مضطر الى طردها لوقاحتها مع سيدتها ، وليته كان يكتفى بخادماته**

الجميلات دون نساء القرية المستضعفات ..

وها هو ذا السيد ((**جرانديه**)) ، أشد البخلاء شحا وتقتيرا قد أثرى من صناعة البراميل وأصبح عمدة بلدته ، فاستغل نفوذ منصبه فى تحسين أملاكه ، وانك لتحس فى حضرته خليطا من مشاعر الاعجاب والتقدير والرهبة ، فقد كانت خليقته مزاجا من طبائع النمر والثعبان ، اذ يعرف أين يكمن لفريسته وكيف يتربص لها ويواجهها طويلا ثم ينقض عليها فاغرا كيسه ولا يتركها حتى يتخمه بالنقود ، فاذا فرغ من فعلته نام نوم الافعى التى تصطنع السكون والخمود فى انتظار الفريسة الجديدة ، ويوقن أهل قريته أن له مخبأ زاخرا بالدنانير الذهبية يقضى فيه كلما أوى اليه تلك اللذة التى تملك نفس البخيل حين ينظر ويطيل النظر الى كومة ضخمة من الذهب البراق ، تلك اللذة التى خلع ادمانها على عينيه لحظ الرجل الشهوانى ، النهم ، المتكتم ، الذى يختلس النظر اختلاسا ، ويأكل بمقلتيه !

أشهر الوصوليين فى قصص بلزاك

والجميع يجرون وراء المال ويتعلقون بأسبابه . وأشهر الوصوليين فى المهزلة الانسانية الفتى ((**راستنياك**)) الذى نشأ فى أسرة متوسطة الحال ونزح الى باريس ليدرس الحقوق فرأى هناك زينة الحياة الدنيا ، ورأى استحالة الجمع بين الشرف والترف ، وعانى ضميره كثيرا قبل أن يستسلم لتأثير ((فوتران)) ويطبق دروسه . وليس فوتران أستاذا ولا عالما، **وانما هو مجرم متنكر هارب من الاشغال الشاقة ، حاقد على المجتمع ، رجل ثاقب البصيرة ينفذ الى قلوب الناس كما ينفذ الى خزائنهم ، ويشبه باريس بغابة يتصارع فيها صراع الحيوان أهل الحضارة الحديثة الذين يموهون الاطماع الوحشية بطلاء من النفاق ! .. ومبدأ ((فوتران)) فى الحياة الا مبدأ فى الحياة،**

وقانونه ألا قانون هناك ، وانما هى ظروف ليس غير ، والرجل القوى هو الذى يوجه الظروف الى ما يشاء !

ولو قد كان المال سيد جيوبنا فحسب لهان الامر ، ولكنه فى « المهزلة الانسانية » سيد الرأى العام وسيد الامة . فى قصة « الاوهام الضائعة » — ولا سيما فى الجزء الذى يحمل عنوان « رجل من كبار رجال الاقاليم فى باريس » — يهاجم بلزاك الصحافة هجوما عنيفا . وبطل هذه القصة فتى من اقليم (أنجوليم) يدعى **« لوسيان دى روبامبرى »** ، أعجبت بمواهبه سيدة عريقة النسب فشجعته واصطحبته الى باريس ، حيث لم تلبث أن تخلت عنه وتركته وشأنه ، فاتصل بزمرة من الصحفيين ، ولمس كيف ترتعد الحكومة مما تنشره أوراقهم ، وكيف يفرق الكبار من القلم الذى يذكر فضائحهم ، وكيف يربح الكاتب الذى يبيع مقاله اليوم لزيد وغدا لعمرو وبعد غد لمن يدفع أكثر من زيد وأكثر من عمرو ! هؤلاء الصحفيون عند بلزاك هتافة مروجون أو نقاد مغرضون ، يعيشون مما يدره عليهم المدح والهجاء . لا أمانة ولا وفاء ، فالعبارات والمقالات سلع متفاوتة الاسعار ، وهى لا تساوى — ما دامت تنشر اليوم وتنسى غدا — الا الدراهم القليلة أو الكثيرة التى تفيؤها على كاتبها ! ويلبى لوسيان ذلك الاغراء ، فيندفع الى محيط الصحافة ، وينجح نجاحا كبيرا ، ثم يضطرب ويترنح ، وينتهى الى البؤس . والصفحات الاخيرة من القصة تصوره لنا فى الليل ينظم — الى جوار صاحبته الممثلة «كارولى» وهى على فراش الموت — أغنية مرحة ينبغى أن يبيعها اذا أسفر الصبح ليسدد بثمنها نفقات الدفن !

الحب — كالمال — من آفات المجتمع !

ولا يعدل سلطان المال فى المجتمع الا سلطان الحب . وقد أبدع بلزاك فى تصوير الحب حين ينشأ فى القلب ، وحين يشتد ،

وحين يؤدى الى المآسى الانسانية . فالحب كالمال مصدر من مصادر الفوضى فى المجتمع . عماده الاثرة التى تفصل الفرد عن المجموع ، فيعتزل فى دنياه الخاصة ، ويزهد فى تحقيق المصلحة العامة . أرأيت الى « **فيليكس** » فى قصة « زنبقة الوادى » كيف انصرف الى أحضان « هنريت » عن محنة وطنه – وما كان أقساها فى واقعة « ووترلو » وسقوط دولة نابليون ! ؟ – والحب يؤلب الابناء على آبائهم ، ويؤلب الآباء على أبنائهم ، ويوغر الصدور ويمزق الاواصر ويفصم العرى . وقد تجمد انسانية الانسان من فرط الطمع أو من فرط البخل ، **ولكن الطمع والبخل خير من الحب ، اذ يبقيان فى نفس المرء على قوة تنفع المجتمع ، هى قوة الارادة التى يخدرها الغرام ويؤرجحها الهوى وتقضى عليها الشهوة !**

وكثيرة قصص بلزاك التى تعرض علينا عواقب الحب الوخيمة .. حسبنا ان نذكر هنا حكاية « **مدام جراسلان** » ، وهى فتاة نقية النفس رقيقة الشعور ، نشأت فى كنف أبيها الذى بدأ حياته فقيرا ثم أثرى من تجارة الحديد والنحاس فى احدى مدن الاقاليم . وكانت أجمل مثال للطهارة حتى قرأت قصة « بول وفرجينى » التى كشفت لها الدنيا وصورت لها الحب وأثرت فى قلبها تأثيرا رهيبا . وحين بلغت سن الزواج زوجها أبوها بالسيد جراسلان ، وهو رجل فى السابعة والاربعين من العمر ، بدأ حياته فقيرا أيضا ثم جاهد حتى أصبح من رجال المال . وأقبلت العروس الفتاة على العلم والثقافة لكى تتبوأ المكان اللائق بها فى المجتمع . وسرعان ما أمسى صالونها قبلة أعيان المدينة .! ولكن زوجها سئم حياة الترف ، وهاجت بنفسه شهوة الكسب ، فجردها من زينة الحياة وعاد الى أعماله . وفى تلك السنة وقعت جريمة هائلة ، فقد وجدوا الشيخ البخيل « بنجريه » – وهو ممن يدفنون ذهبهم فى القدور ! – صريعا بجوار جثة خادمته ، واتهم بالسرقة والقتل عامل فقير معروف

بالجد والامانة يدعى « تاشيرون » . وانقسمت المدينـة الى حزبين : حزب يدافع عن تاشيرون ، وحزب يدينه . وبلغ من حماسة مدام جراسلان لبراءة تاشيرون أن توسلت الى النائب العام ــ وكان يتودد اليها ــ كى يعدل عن اثبـات الجـريمة عليه ، لكنها لم تفلح فى وساطتها . **وبعد عشر سنين من اعدام تاشيرون تعترف مدام جراسلان ((لقسيس القرية)) بأن أباها عهد اليها وهو على فراش الموت بتربية هذا الفتى الفقير الذى كان يتوسم فيه الذكاء والرجولة ، فاهتمت بأمره ، وشجعته على أن يتثقف كما تثقفت هى ، فأصبح أقرب الى نفسها من زوجها الجشع المادى ، وعرفت معه السعادة ، ولما تركها ذلك الزوج دون مال ، عز على تاشيرون أن يراها معوزة ، فأراد أن ينهب لها ذهب البخيل ، ولكن الرجل استيقظ وخادمته، فقتلهما . أما هى فاضطرت الى أن تصمت من أجل الولد الذى كانت تنتظره ، وكان تاشيرون أباه !** وهكذا دفعت الى المقصلة بالفتى الذى وكل اليها مصيره .

ولكن من عساه يحمى المجتمـع من طغيان المال وفوضى العاطفة ؟ أهى الحكومة ؟ ان رجال السياسة فى المهزلة الانسانية ــ وعلى رأسـهم رئيس الوزارة **((دى مارسيه))** ــ قوم لا خلاق لهم ، يستبيحون كل شىء ويبررون الوسيلة بالغاية . وهناك قصة طريفة ينقد فيها بلزاك نظام الادارة و «الروتين» الحكومى ، عنوانها « الموظفون » . ومثل الحـكومة عند بلزاك كمثل الصحافة ، فالصحافة عدة هائلة يحركها كتاب صـغار ممن يستثمرون المنافع والاهواء ، ومكاتب الحـكومة سلطة عملاقية يحركها أقزام ضئال . جميع الموظفين يسـعون الى شىء واحد ، هو « التقرير » . فالتقرير سيدهم ومولاهم . اذا أتم « التقرير » عرض مسألة من المسائل ، فرح الموظف الذى دبجه ، واغتبط الموظف الذى تسلمه ، ورضى الموظف الذى حفظه بين الاوراق المحفوظة ، وانشرح صدر الحكومة ! وهكذا

تتكدس مشروعات الاصلاح فى الاضابير ! هل أتاك حديث ((رادوردان)) رئيس القلم باحدى الوزارات ، كيف درس فساد الادارة وكتب مذكرة بين فيها الفائدة العامة التى تنتج من اختزال عدد الموظفين ورفع مرتباتهم وتعيين الشباب منهم فى المناصب العليا ؟ هذا المشروع النافع كان خليقا بأن يصادف قبولا لدى الهيئات العليا لولا حرص واضعه على النزاهة وحرص زوجته على الفضيلة وحرص شرذمته من الطفيليات على التحالف ضده دفاعا عن مصالحهم الشخصية !

تضافر الضعفاء قد يهزم الاقوياء !

هكذا صور بلزاك المجتمع فى ((المهزلة الانسانية)) . لقد نظر الى الدنيا فرأى حقيقتين رئيسيتين تتشعب منهما وقائع الحياة : انعدام المساواة بين الكائنات المختلفة ، وسعى الكائنات جميعا الى الارتقاء . ففى مملكة الناس ــ كما فى مملكة الحيوان أو النبات ــ سلم من الطبقات ، أدناه الاضعف وأعلاه الاقوى . وبين الاضعف والاقوى فى مملكة الناس درجات متتابعة ، فصائل كثيرة وأنواع كثيرة ، كتلك الفصائل والانواع التى تمتد من دود الارض الى الفيل والاسد .. أو من العشب الطفيلى الى الدوحة العظيمة ! **وبين هذه الكائنات المتباينة صراع دائم . القوى يسحق الضعيف ، والكبير يلتهم الصغير . بيد أن قوة الاقوياء لا تكفل سيادتهم ، كما أن ضعف الضعفاء لا يحتم هلاكهم . فقد يتضافر الضعفاء ويتساندون فيهزمون القوى أحيانا ، وقد يظهر مكر الجبناء على بأس الاشداء أحيانا .** ذلك أن مملكة الكائنات من أسفلها الى اعلاها مضطربة مائجة ، تتحرك حركة صعودية ، حركة الى فوق ، يريد المنحط أن يرتفع ، ويريد الجائع أن يشبع ، ويطمح الجميع الى مزيد من الحياة !

وربما بدت الفوارق التى تفصل بين الناس والناس أهون

من الفوارق التى تفصل بين العصفور الرقيق والنسر الجارح، وبين الحشرة الطفيلية والاسد الهصور ، ولكنهـــا فى الواقع أشد خطرا لانها ليست فوارق مادية فحسب ، بل فـــوارق نفسية دقيقة ، والقوى النفسية بألوانها العديدة أبعد أثرا فى تمييز الخلائق . ومن هنا كانت حركة ارتقاء الكائنات فى دنيا البشر أسرع وأروع منها فى دنيا الحيوان . فالانســـان خليق بأن يثب فى مجتمعه وثبات يعجز الحيوان عن أن يقطع مثـــل بونها عبر آلاف من الاجيال .

الصراع الدائم بين الفرد والمجتمع !

على أن وجود المجتمع يتدخل فى هذا الصراع المتصل بين الكائنات فيزيده تشابكا وتعقيدا . هـــذا الكفاح الذى يبدو عنيفا فى دولة الحيوان على حين أنه أعنف فى دولة الناس ، نراه يشتد عنفا كلما ارتقى المجتمـــع وتحضر . ففى المدائن الكبيرة يستطيع الكائن الانسانى أن يصـــل الى درجات هائلة من الالم ، ومن اللذة أيضا .. غير أن اللذة اذا تجاوزت حدا معلوما أصبحت افراطا وبالتالى مصدر اختلال داخلى يؤدى الى العناء . ومن ناحية أخرى يضاعف المجتمع هذا الصراع اذ يضيف اليه صراعا جديدا ، أكبر ميدانا ، هو الصراع القائم بين الكائن الفرد الذى هو الانسان والكائن المشترك الذى هو المجتمع . فالمجتمع بدوره يناضل للاحتفاظ بكيانه ، ويفرض على أولئك الذين يؤلفونه شرائع معينة ، ما هى الا عقبـــات جديدة تعترض سبيلهم الى أطماعهم ، وصدمات جـــديدة تضاف الى صدماتهم ، وآلام جديدة تثقل من آلامهم ..

واذا كانت تلك المبادىء هى التى يراها بلزاك أساسا للحياة الطبيعية ، فما موقفه ازاء مشكلة الانسانية الكبرى ، مشكلة الفرد والمجتمع ؟ انه يحمل على المدنية والحضارة ، ولا يكاد يكتم دعوته الى الثورة والفوضى . أعظم أبطاله هم الخارجون

على القانون – ويمثلهم « فوتران » – ثم الوصوليون الذين يلتوون فى سيرهم مع القانون ، ويمثلهم « راستنياك » . والى جانب هؤلاء وهؤلاء يحتشد الضحايا ، أبطال البؤس والشقاء : « المرأة المهجورة » التى لا ينال اثمها من عطفنا عليها ، و «المرأة التى فى الثلاثين من عمرها » بهفواتها الكبيرة التى تستدر رأفتنا ، والمرأة التى تأبى أن تنغمس فى الخطيئة فيعاقبها المجتمع كما عاقب « الدوقة دى لانجيه » . **ولا يجد أبطال بلزاك السعادة ولا الامتياز فى خضوعهم للتقاليد وامتثالهم لنظم المجتمع ، وانما يسعد السعداء منهم ويمتاز المتازون منهم حين يقلبون الاوضاع ويتجاوزون الحدود ويقهرون الواقع ويغتصبون من المجتمع ما يريدون ! وأما الضعفاء فتنوء بهم أثقالهم ، وقد يلوذون بالموت من عناء الحياة !** ومن الحق أن « طبيب الريف » قد شذ عن سواه من أبطال المهزلة الانسانية فوجد توازن قواه وامتياز شخصيته فى اتباع شرائع المجتمع وفعل الخير والسير بالناس فى ركب الحضارة ، ولكنه حالة فردية فى قصص بلزاك ، فضلا عن أنه لم يصب ما كان ينشد من سعادة ، فقد كان قلبا جريحا .. أى ضحية من ضحايا الحياة .

نساء « بلزاك » الفاضلات أكثر من الآثمات ، ولكن ..

يا لها من صورة قاتمة ! لقد أثارت هذه النظرة السوداء الى الانسانية سخط كثير من معاصرى بلزاك ، **فرد عليهم باحصاء كتبه وابطاله ، محاولا أن يثبت أن كتبه التى تذيع الخير تربو على كتبه التى تذيع الشر ، وأن عدد نسائه الفاضلات يفوق عدد نسائه الآثمات** ، ولكن مثل هذا الدفاع لا يقنع قط من قرأ « المهزلة الانسانية » ولمس ما تعرضه من فساد المجتمع .

وعلى الرغم من هذا كله ، كان بلزاك أديبا متفائلا ، يعرف

للانسان كرامته ويؤثر البناء على الهدم . ولذا تضاربت آراء النقاد فى حقيقة أدبه ومعانيه وفى تحديد القيمة الاخلاقية للدروس التى يقدمها الى القراء . وقد ظلت فلسفة بلزاك الاجتماعية غامضة متناقضة معقدة فى نظر من تناولوها من بعض أطرافها بالشرح والتأويل والتخريج ، حتى توفر الباحث « برنار جويون » على دراستها نحو عشرين عاما ، ونشر فيها رسالته سنة ١٩٤٧ ، فجلاها وحللها الى عناصرها ، وأرخ أطوارها فى حياة بلزاك وكتبه .

لاحظ الدكتور جويون تشاؤم بلزاك منذ صباه ، فى جو الاسرة والمدرسة ، ثم فى مكتب المحامى ، ثم فى مشروعاته الفاشلة ، وعشرة صاحباته المسنات .. ولاحظ مع ذلك ما كان يمتاز به من طبيعة قوية ، من ارادة حازمة ، ونشاط خصب ، وجلد عظيم ، وحب للحياة على اختلاف صورها .
فهو من ناحية كان ينظر الى الحياة كما هى ، ويقدر الواقع حق قدره ، ومن ناحية أخرى كان يستمد لنفسه الحية غذاء من آراء الفلاسفة المتفائلين الذين ملأوا آخر القرن الثامن عشر فى فرنسا ايمانا بوجوب تقدم الانسانية ، وبقدرة العقل على تحقيق هذا التقدم .. وغذاء آخر من آراء طائفة « السان سيمونيين » الذين حاولوا اصلاح المجتمع فى أوائل القرن التاسع عشر . وحسم الاستاذ « جويون » ما يبدو من التناقض فى أدب بلزاك بأن ميز فى هذا الادب وجهتى النظر المختلفتين اللتين أنجبتاه : وجهة نظر القصاص الذى يريد أن يصور حقيقة الواقع ، ووجهة نظر المفكر الذى يريد أن يرسم مذهبه الاجتماعى والسياسى . فلا بد للاول من أن يقدم لنا لوحة صادقة لحياة الناس بما فيها من اضطراب وألم ، وظلم وشقاء . لا بد له من أن يتقمص أبطاله ويندفع معهم فى البحث عن السعادة والارتطام بالعقبات الاجتماعية ، ولا بد أن يخلق بيننا وبينهم التجاوب الوجدانى التام فيتحمس لاطماعهم

ويثـور لثورتهم ويشـاطرهم ألمهم ويتأثر لمصيرهم . ولا بد للثانى ، وهو الفيلسوف الحريص على حياة المجتمع وكيانه ، من أن يسعى الى حفظ التوازن بين مختلف القوى التى تسيطر على العالم ، فان فى ذلك وحده صيانة المجتمع من الفسـاد والعناء ، وضمان بقائه سليما مرصوصا متماسـك الاركان .

وما من شك فى أن الفيلسوف كالقصاص يهتم بسعادة الافراد ، اذ أن حظا من هذه السعادة لازم لصلاح أمر المجتمع ، ولكن السعادة الفردية ليست الهدف الرئيسى للنـاظر الى منفعة الجماعة . وهكذا نجد فى المهزلة الانسـانية ، مقابل الثورة والفوضى التى يعمـد اليها الاشخاص ، سلطانا واستبدادا ونظاما عاما يكفل سلامة المجتمع ، ويقيه شر الانحلال .

ينبغى اذن أن تكون السلطة فى يد واحدة ، يد قوية ، مطلقة النفوذ . وينبغى أن تتساند طبقات الامة فى أوضاعها الثابتة ، فلا سبيل الى المساواة بينها لان الطبيعة قد فرضت التفاوت بين درجات مختلفة ، وكل جهد يبذل فى المجتمع للقضـاء على تفاوت المراتب الطبيعى يؤدى — اذا نجح — الى فترة من الفوضى يتشكل أثناءها مجتمع جديد على أساس من فوارق جديدة . والحاكم أن يدين « بالمكيافيلية » فى سياسة الدولة فيردع التمرد بالارهاب ، وينزل الى قبول الامر الواقع الذى لا بد من قبوله ، ويمكر بالرأى العام فى سبيل تحقيق الصالح العام .. ما أعظم نابليون ! اذن وما أحكمه !

خلاصة مذهب بلزاك الاجتماعى والسياسى

ولئن استحال خلاص الفرد خلاصـا تاما من الاضرار التى يلحقها به وجود النظام الاجتماعى ، فمن المستطاع تخفيف هذه الاضرار : ضعوا حدا لامتداد المدائن وطغيانها ، **وامنعوا « كبار رجال الاقاليم » من الهجرة الى الحاضرة حيث يخيبون ويتلفون ، وأبقوا عليهم فى اقاليمهم حيث ينتجون وينفعون البلاد ..**

ضعوا حدا لاغراء المجون وفتنة الترف ، وأصــلحوا قوانين الزواج وأحسنوا تربية البنات ، كى تنتصر الفضيلة عــلى الرذيلة ويستقر المجتمع . ثم .. هناك « الدين » ، وهو فوق هذا كله وسيلة من وسائل الحكم الصالح ، لانه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فهو دافع ايجابى يحث العبــاد على فعــل الخير والعمل على رقى الانسانية ، ووازع سلبى يوقف غلواء الاغنياء وبطش الاقوياء ، ويهدىء من نقمــــة الفقراء وثورة الضحايا .

ذلك هو مذهب بلزاك الاجتماعى والسياسى كما استخلصه الاستاذ جويون ، وفيه نرى كيف ائتلفت الحزبية والاستبداد ، وكيف تمشى التجديد مع التقليد ، وكيف اجتمــع أصــحاب اليسار وأصحاب اليمين صفا واحدا . **كان بلزاك ثائرا وكان محافظا ، كان جمهوريا وكان ملكيا ، فألب عليه جميع الاحزاب أثناء حياته ، وكسب ثناء جميع الاحزاب بعد وفاته !**

بقى أن « المهزلة الانسانية » درس رهيب ، وأن بلزاك رجل يدس السم فى الدسم .. الى أى مدى يصح هــذا الاتهام ؟ **ولمــاذا يحمل أنصار الاخلاق الفاضلة على بلزاك ؟ ألانه يصور قبح المجتمع ولؤم النفوس ؟ لقد كان من الشجاعة والصراحة والجرأة بحيث قال كلمة الحق فى أخــلاق الناس ، وهاجم أصحاب المال وأصحاب النفوذ .** وفى الحياة الخــير والشر ، وبلزاك يدعو قارئه الى التفكير ويترك له حرية الاختيــار ! وكيف يقوم الفن السليم على غير أساس من تصوير الحقيقة ؟ لقد صور بلزاك حياتنا ، صور اضطرابها واختلاطها ، حلوها ومرها ، واصطراع القوى المختلفة فى سبيل الارتقاء .

انه كاتب صادق !



قصة من الأدب الإيرانى الحديث

موعد السّاعة الخامسة !



تلخيص الاديب العراقى : مهدى جاسم

كانت « زالة » و « مهين » تتجاذبان أطراف الحديث وهما مستلقيتان على الارائك المريحة فى صالون الاستقبال . لقد كانتا صديقتين . وصداقتهما بدات خلال رحلات المدارس الابتدائية وتمادت الى ما بعد زواجهما .

ـ عزيزتى « مهين » ، لماذا أنت واجمة ؟؟ كأنك منزعجة؟ هل تخاصمت مع زوجك حديثا ؟؟

ـ لا ، ليس للامر أهمية ، فانا و « محمود » كل ليلة فى خصام . واقول لك الحق **أن هؤلاء الرجال لا يفهمون الحب والوفاء أصلا ، وليس زواجى وحده كذلك . أترين بين اول طاقة الكتان وآخرها فرقا فى القماش ؟ لقد رأيت ليلة أمس شعرة تمرية اللون على ياقة سترته ، ووجدت فيها تفسيرا كافيا لتأخره عن العودة الى البيت فى الليالى السابقة . لطالما كان يقول : « كانت لدينا لجنة ، اشغالنا كثيرة فى الدائرة » حتى ضبطته أمس ، ولقد كانت واقعة أوشكت أن تنتهى الى الطلاق !**

فتنفست « زالة » بعمق وانقلبت فى كرسيها من جانب الى آخر ، ثم قالت :

ـ شكرا لله فان زوجى ليس من هذا النوع من الرجال ، والا لما عاشرته دقيقة واحدة ، فالواقع أن « هوشنج » يكاد أن يكون أنموذجا استثنائيا للصلاح فى هذا المجتمع الفاسد . انه لا ينظر الى امراة اخرى سواى ، وانه يقسم لى كل ليلة على انه يحبنى اكثر من الليلة التى قبلها ، اننى غرامه الاول والاخير ، ولهذا اشعر بالاطمئنان منه من هذه الناحية .

فضحكت « مهين » فى سرها ، وان لم يظهر عليها ذلك ، وقالت لنفسها :

ـ يا « لزالة » من طفلة ساذجة لا تعلم عن هذا السيد

« هوشنك خان » كيف يتفحصنى بنظراته الوالهة من الرأس الى القدم عندما يلتقى بى ، الويل لهـؤلاء الرجال الذين ليس للصدق موضع فى قلوبهم !

ثم قالت باسمة :

ــ يا عزيزتى « زالة » ، لا تتفائلى الى هـذا الحد ، فاننى أكبر منك بعام واحد ، ومهما يكن فتجاربى أكثر منك بمقياس خمسـة وستين وثلاثمائة يوم على الاقل . انك لا تعرفين هؤلاء الرجال جيدا حتى الآن . انهم يخـادعون حتى جن الارض ، أم تراك مطمئنة لوفاء « هوشى » ؟؟

فضحكت « زالة » وقالت :

ــ يا روحى يا « مهين » ، أرجو المعذرة ، ولكن هنالك مثلا معروفا يقول الكافر يرى الناس بكفره . فهل كون «محمود» يخونك دليلا على ان « هوشى » يخادعنى انا الاخـرى ؟ اننى واثقة بأن « هوشى » وفى ــ وسيكون وفيا لى العمـر كله ــ كيقينى من ضوء الشمس .

ومرت لحظة صمتت فيها «مهين» واستغرقت فى أفكارها . كانت تحس كأن شيئا يكويها فى سويداء قلبها ، ان « زالة » هذه تجتازها كأنها فى سباق ، مثلما كانت تتفـوق عليها فى دروسها فى المدرسة . وفجأة تبادر الى ذهنها خاطر فقالت :

ــ يا روحى يا « زالة » ، اننى لست أحسـدك لحظـك الحسن ، ولكننى أدعى فقط اننى أعرف منك بالرجال . ولقد قيل منذ القديم بأن أولئك المبطنين أكثـر خطرا من الذين يظهرون ما يبطنون . ان عزيزك « هوشى » هذا ليس ساذجا فى رأيى ، لانه لو كان كذلك لما تسلق سلم التقـدم بمثل السرعة التى وصل بها الى رئاسة دائرته . لا تعتمدى عـلى ايمانه المغلظـة كثيرا ، واذا كنت فى شـك من اقوالى فاننى

مستعدة لمراهنتك . .

فسألت « زالة » محتارة :

ـ مراهنة ؟ ما هو قصدك ، مراهنة على أى شىء ؟

ـ مراهنة على أن السيد « هوشنك خان » رجل كسائر الرجال ، مثل « محمود » والآخرين ، اذا زلت قدمه وقع وفعل كل شىء !

ـ مستحيل ، ان هذا مستحيل ، هل تستطيعين اثبات ما تقولين ؟؟

ـ بالطبع أستطيع ، اننى لست ممن يلقون الكلام على عواهنه .

* * *

ولقد طال حديث « زالة » و « مهين » فى ذلك اليوم وتشعب ، فلكل منهما وجهتها التى تريد أن تحمل الاخرى عليها ، حتى انتهى بهما الموضوع الى المراهنة . **وتم الاتفاق على أن تحرر ((مهين)) رسائل غرامية بتوقيع ((المرأةالمجهولة)) الى ((هوشنك)) تفاتحه فيها بالحب والتدله بالغرام ، فاذا رد عليها ((هوشنك)) تكون ((مهين)) قد ربحت الرهان ، واذا لم يرد تكون ((زالة)) هى الرابحة !**

ـ عزيزتى « زالة » ، اننى أحس بلذة الدجاج المحمر تحت أسنانى منذ الآن ، وعلى فكرة فاننى أحذرك من ان تخسرى المراهنة وتتملصى من دفع الرهان .

* * *

وبعد يومين ارسلت الرسالة الاولى الى «هوشنك» بعنوانه فى الدائرة . ولقد كانت رسالة جياشة مطولة ، حساسة ، ومن

كثرة الجمل الملتهبة والعبارات الحارة التى كانت مفعمة بها لم يكن من المستبعد أن تتقد النار فيها فى البريد فتحرقها ! اذ أن « مهين » استنفدت يوما كاملا فى كتابتها ، بل واستعملت فى ذلك كل مهارتها واستعدادها النسوى حتى تضمن وقوع « هوشنك » فى الشباك . وقبل أن تضعها فى المظروف ذهبت الى « زالة » وقرأتها عليها من الالف الى الياء . والحق أنها كانت رسالة مثيرة ذات تأثير ، أعادت الى الاذهان تفوق « مهين » فى موضوع الانشاء عندما كانت تحصل على درجات عالية فيه ، حتى ان رفيقاتها رشحنها لتكتب لهن رسائلهن الغرامية السرية بالنيابة ، فكانت تقوم بذلك خير قيام وبمهارة فائقة وهى طالبة ، وكأنها الآن لما تزل تحتفظ بهذه الهبة الربانية بعد . ثم ختمت رسالتها بهذه العبارة :

« والآن وقد اعترفت بهذه الحقيقة ، وبعد شهور من الحرقة والالم والمدارة والتأسى ونهش القلب ، اكشف النقاب عن سر فؤادى الملتهب . أى حبيبى السرمدى الخالد ، هل لك ان تعلم أنه فى هذه الدنيا القذرة الملوثة بالمادية لا يزال هنالك رواد الحب النقى العلوى ممن يركبون الطريق الصعبة الملتوية ذات المخاطر والمهالك ويعودون بلا شىء .. واننى اذ أكتب لك هذه الرسالة فلقد اتخذت للامر أهبته واعددت نفسى لمواجهة كل خطر محتمل ؟ ! حتى الموت نفسه سأستقبله بصدر رحيب ، لان قبلة واحدة منك تصنع لى حياة جديدة ، وتكتب لى سعادة كبيرة ابدية .. »

.. ثم أضافت فى آخر الرسالة انه فى حالة الرغبة ، يستطيع « هوشنك » ان يبعث برده الى صندوق البريد (٨٩) ، وليطمئن على سره ــ أن فعل ــ فلن يفشى أبدا !.. ولا لزوم

للقول بأن صندوق البريد المذكور هو صندوق أحد معارف « مهين » التى استعارت مفتاحه من صاحبه ، وعليه فانه فى حالة وصول الجواب المنتظر فسيصل اليها رأسا وستطلع عليه « زالة » بدون أن يقع فى يد شخص آخر ويطلع عليه .

ولم يطل انتظارهما فى الواقع كثيرا ، فان هى الا أربعة ايام فقط على ذلك التاريخ حتى وجدت « مهين » وهى تفتح صندوق البريد رسالة فى داخله ، فارتسمت على فمها ابتسامة النصر ، وارادت أن تفتحها .. ثم آثرت أن يكون ذلك بحضور « زالة » ، وعليه فلقد استقلت «تاكسيا» الى منزل صديقتها ، وحالما تقابلتا دفعت اليها بالرسالة وهى مسترسلة فى ضحكة نسوية ذات معنى ، وقالت :

ـ دونك ، افتحى واقرئى ، فاننى لم أمسسها بعد ، خشية أن تظنى بأن فى الامر خدعة !

ولقد غاض قلب « زالة » عندما أبصرت بالرسالة ، ولكنها تناولتها بيدين مرتجفتين وفتحتها ، ماذا ؟ الا يمكن ان يكون هذا حلما ؟ الا يكون هذا كابوسا مخيفا ؟ كيف يمكن أن يجيب « هوشى » على رسالة امرأة مجهولة ؟ ألم يكن هو غير الرجال كما كانت تظن الى الامس القريب ؟ ألم يكن قد اقسم لها حتى ذلك الوقت بأنه يحبها وانه لا يكاد يشعر بوجود امرأة اخرى غيرها ؟؟ .. كل هذه الافكار هاجمت عقلها فجأة كما تهجم العصافير على شجرة على حين غرة ، فانهارت أعصابها وحم دماغها ، وغاض لونها ومضى قلبها يدق بشدة .. وأيقنت بأنها مفضوحة ولا بد لدى « مهين » صديقتها ، ولكن فكرة طارئة سكنت من روعها وهدأت أعصابها : من يدرى ، لعل جواب « هوشى » على رسالة المرأة المجهولة هو جواب شتم وسباب ؟ .. **وببطء فتحت الرسالة من رأسها ، وأخرجت**

الاوراق الزرقاء ذات العطر الفواح التى كتبت عليها ، ولكن الجملة الاولى جعلت آمالها تصبح نقشا على ماء .. كانت الرسالة تبتدىء بجملة « حبيبتى المجهولة » .. ويا لهما من كلمتين كأنهما دبوسان حديديان هبطا على دماغها !

* * *

ولعل امرأة اخرى غير « زالة » او هى نفسها فى موقف آخر كانت ستفقد اتزانها وبرودة اعصابها عندما تواجه مثل هذه الهزيمة ، وتمضى منتحبة ، مولولة ، باكية ! ولكن « زالة » لم تكن امرأة تفقد اتزانها بمثل هذه السهولة وتعترف بهزيمتها تجاه خصمها ! ولكى تخرج من المأزق ، استرجعت مظهرها العادى ومضت فى برود تقرأ الرسالة حتى آخرها . ولقد كانت كل جملة تقاطع بضحكة ساخرة من « مهين » لان « هوشنك » كان موفقا ، فى الواقع ، فى اختيار الجمل المثيرة العاطفية ، مما أثبت أن له سابقة مستضيفة فى مثل هذه الامور! ولكن مع ذلك كله فلقد تماسكت « زالة » وهى تدفع بيدها الى الامام ، مصممة على الا تتراجع ولا تتخذل .. وقالت :

— أرأيت كيف سخر منك؟ لا يمكن ان يكون احسن من هذا جوابا لرسالتك ؟؟

— كيف ، ألا تزالين متفائلة بعد ؟ ألا تزالين غير مصدقة ؟ أى دليل خير من هذا تريدين لاثبات خيانته ؟ ألم أقل لك انك ستهربين من التملص من الرهان حالما تخسرين المراهنة ؟

— يا عزيزتى « مهين » ، قليلا من العدل ، قليلا فقط على الاقل .. **ان الاجابة على رسالة غرام لا يمكن ان تسمى خيانة . فمن المؤكد أن « هوشى » ظن بأن أحد الاصدقاء يمازحه ، وعلى هذا فقط اجاب على المزاح بمثله ، اننى على**

استعداد لتهيئة وجبة الدجاج المحمر لك حسب الاتفاق .. ولكن ألا تريدين الحق ؟ اننى لا استطيع ان أحكم على زوجى بالخيانة لمجرد هذه الرسالة الهازلة . من اليقين أن « هوشى » غير الرجال .. وان أصررت فاكتبى له رسالة أخرى ، أنه لن يجيب فى هذه المرة على وجه التأكيد !

ولم تعلم « مهين » نفسها لماذا وافقت هذا الاقتراح ، فلعل فى أعماقها شعورا لذيذا ، بصرف النظر عن المراهنات وسائر الملابسات الاخرى ، لكى تستطرد هذه المراسلة . وفى ذلك اليوم نفسه كتبت الرسالة الثانية وارسلت ، ولم يمر يومان حتى جاء جوابها من « هوشى » مطولا ، ذا عبارات ملتهبة ، ومنطويا على أمل أكثر . وفى هذه المرة كان زوج « زالة » يريد أن يرى العشيقة المجهولة .. لقد كتب يقول : « معبودتى .. حتى متى تريدين ان تبقى امامى مثل علامة من علامات الاستفهام ، مستغلقة ، مبهمة ؟؟ هل أنت الاخرى كسائر النساء ، تتلذذين بتعذيب الرجل الذى يحبك ؟ نعم دعينى أعترف بأننى ، وان لم ارك فاننى غدوت عاشقا لك عشقا لا حدود له ، ولكن هل تعلمين الى أى حد ستسكب معرفتى لك ورؤياى اياك ، السلوى على قلبى المشتعل ، وتعيد الهدوء والاطمئنان الى بالنسبة الى صداقتك ووفائك ؟ »

وبقراءة هذه العبارات كادت « زالة » أن تشتعل غيظا ، اما « مهين » فلقد قهقهت ضاحكة وقالت :

— اترين يا عزيزتى « زالة » .. هل عرفت هؤلاء الرجال الآن ؟

وسكتت « زالة » هذه المرة ، كانت قد أشعلت سيجارتها ومضت تسحب انفاسها بشراهة ، وقالت « مهين » :

— لا تزعجى نفسك ، اننى آسفة فى الواقع . فاننى بهذه المراهنة قد أخرجتك من أحلامك الذهبية ، ولكن لم يكن قصدى

ـ علم الله ـ سوى أن اكسبك بعض التجارب ، لئلا يخدعك ظاهر هؤلاء الرجال وكلامهم الناعم المعسول . واذا رغبت فاننا نستطيع ان نلقى على زوجك درسا جيـــدا لكى لا يظن انك ساذجة الى الحد الذى حسب !

ـ وكيف ؟؟

ـ ببساطة تامة . سأكتب اليه مرة أخرى واضرب معــه موعدا . وفى اليوم والمكان اللذين سنعينهما نذهب انا وانت ونضبطه متلبسا ، ما رأيك ؟؟

وقبلت « زالة » وجلستا واستعانتا بعقليهما معا وكتبتـا الرسالة الثالثة التى كانت أكثر اثارة وحساسية ، ثم ختمتاها بهذه العبارة : « انتظرنى مقابل متجر حلويات (شيرين) فى تمام الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء القادم . ولما كنت اعرفك فلا حاجة لعلامة تعريف . ولكن اعلم اننى من أجــل حبك الغلاب أقدمت على هذه التضحية ، وعليه فانك لن ترى منى رسالة ان لم تأت ! »

واختفت الرسالة فى المظروف ، وأخذتها « مهين » معهـــا لتلقيها فى صندوق البريد ، ولمـا بقيت « زالة » بمفردها فى الغرفة أغلقت عليها بابها وابتدأت تبكى . ما دامت «مهين» معها فانها كانت متماسكة ، تنهش فؤادها وتحتفظ ببرودة دمها لان ثمة غريمة امامها ، اما الآن فانها لم تستطع . لم تكن تطيق أن تتحمل المتاعب او ترحب بالبلوى . لقد استحالت أحـــلامها الذهبية الى سراب ، فلم يكن « هوشى » الا كهؤلاء الرجـــال الآخرين ، بل ولعله أقل وفاء واكثر مغامرات منهم جميعا ! وان اكتشاف هذه الحقيقة المرة أزعجها ، كما ان انهزامها امام « مهين » بدد اعتبارها وحيثيتها . وبكت ساعة ، ثم هــدأت واستسلمت لافكارها : **لو كانت تستطيع ان تفعل شيئا على**

الاقل يعيد لها قيمتها امام ((مهين)) فقط اذن لكانت مصيبتها أقل هونا . وتجسم أمام ناظريها منظر حضور ((هوشى)) فى الموعد وملاقاته لمهين . لقد تقرر أن تذهب ((مهين)) أولا للقائه ، وبعد السلام والاستغراق فى الحديث جيدا ، تصل ((زالة)) فجأة وتضبطهما متلبسين بالجريمة ! وفكرت ((زالة)) فى نفسها كيف تستطيع أن تلعب هذا الدور العسير للغاية ؟.. ثم فكرت فى المنازعات التى ستعقب هذا ، وفكرت فى الازمات التى ستتمخض عن ذلك ، وتساقطت الدموع من عينيها من جديد !

وفى هذه الاثناء انبعث صوت الباب وهو يفتح ، ووقف زوجها على عتبته حائرا يتأملها وهو يقول :

ـ زالة .. روحى ، لماذا تبكين ؟ ماذا حدث ؟

وأخفت محياها وانخرطت فى البكاء . لم تكن تستطيع ان تمنع دموعها ، فتقدم ((هوشنك)) واحتضنها ، ومضى يمسح شعرها ويقبل خصلاته :

ـ الا تتكلمين اخيرا ؟ أى شىء حدث ؟ ما هو سبب بكائك ؟

لم تكن ((زالة)) تعلم ماينبغى أن تقول ، ولكن لطف ((هوشنك)) ورقته هدأها أخيرا ، فان الزوج ذا الشعور المرهف كان قد خبر زوجته جيدا خلال السنتين اللتين انقضتا منذ زواجهما ، وتعلم كيف يخرج الكلام من فمها .. وبعد نصف ساعة اعترفت ((زالة)) بكل شىء !



ــ أكانت هذه نتائج وعودك التى تقطعها لى وايمانك التى تقسمها ؟ الا تخجل ؟ كيف تستطيع ان تنظر فى عينى ؟

وأحس « هوشنك » على الفور بوخامة الحالة ، ولكنه لم يكن ليستسلم ويفقد اتزانه فى مثل هذه المسائل البسيطة ، انه من هؤلاء الرجال الذين يفكرون بسرعة ويبرمون أمرهم ، وعندما يضبطون متلبسين يرممون ثغرة من الكذب بكذبة أخرى أكبر منها :

ــ اذن فان حزنك وبكاءك وعويلك كان لهذا فقط ؟ كم أنت طفلة يا عزيزتى .. يا عزيزة قلبى ، اننى عندما رددت على هذه المرأة المجهولة اردت ان اسخر منها ، والا فعودى بعقلك الى رأسك قليلا وفكرى فى أن رجلا له مثل هذه الزوجة الجميلة الرشيقة كيف يجرى وراء امرأة اخرى خيالية .. الا أن يكون قد أكل من غبائه رأس حمار كامل ؟ ولو صبرت قليلا لوجدت بان من المستحيل على بأن احضر فى الموعد المضروب ، على فرض صحته .

وبكت «زالة» مرة أخرى ، ولكنها هذه المرة هدأت بسرعة. وعندما جاء المساء ذهب الزوجان أخيرا ، ذراعا فى ذراع ، الى السينما . وبعد عودتهما مر بها « هوشنك » على متجر (ركس) واشترى لها ثوبا من القماش الفاخر ، وبجانب بعضهما البعض نسيا كل شىء فى تلك الليلة .

وفى صباح اليوم التالى ذهب « هوشنك » الى الدائرة وفتح درج مكتبه ، **وأخرج رسائل المرأة المجهولة التى اتضح الآن أنها ((مهين)) الحارة ، وألقى على الرسائل نظرة أخرى . لقد كانت ((مهين)) شيطانة وذكية جدا . كانت عيناها تمطران نارا . ان لها نظرات تأسر الانسان ، وقواما متناسبا جميلا ، وصدرها النافر ، وخصرها النحيل ، وأردافها المستديرة ، وسيقانها الملفوفة ، واخيرا هذه الخصلات التى صبغتها من شعرها ،**

بلون رمادى ، فأسبغت عليها فتنة خاصة . وبقدر ما كانت « زالة » ساذجة وبسيطة وملاكا ، كانت « مهين » ماكرة ومعقدة وشيطانة . وأحس « هوشنج » برغبة ملحة فى نفسه فى أن يضم هذا المخلوق الجميل الساحر فى أحضانه ويقبل الشفتين الحمراوين الضخمتين الشهوانيتين المصبوغتين بصباغ البنفسج على الدوام !

وكان فى خضم أفكاره هذه عندما دخل الخادم قريبا من الظهر ، وناوله رسالة وصلت بالبريد . لقد كانت هى نفس الرسالة التى ألقت « مهين » بها فى الصندوق أمس . وفتح « هوشنك » الرسالة وقرأها ، وعندما وصل الى سطرها الاخير استغرق فى تفكير عميق : « انتظرنى فى الساعة الخامسة من بعد ظهر الاربعاء القادم مقابل متجر حلويات (شيرين) .. لكن « هوشنك » يتذكر جيدا أن زوجته قالت أمس وهى تشرح الحوادث : « فى الرسالة الاخيرة التى كتبناها لك بامضاء المرأة المجهولة ، ذكرنا لك ان تنتظرنا فى الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء مقابل متجر حلويات (شيرين) » ..



واذن ما الذى غير الساعة العاشرة من صباح الثلاثاء الى الساعة الخامسة من مساء الاربعاء ؟ وعاد فاستغرق فى تفكيره ولكنه سرعان ما اهتدى الى مفتاح اللغز .. وابتسم فى رضى وهو يعيد الرسالة الى مظروفها ويقول :

ـ اننى احدس بأن « مهين » اخترعت هذه الوسيلة لتزداد اقترابا منى ، واننى مستعد لان أراهن اى شخص على أى

مبلغ بأنها ستحضر بمفردها فى الساعة الخامسة من مساء الاربعاء فى الموعد المعين ، وليس لـ « زالة » أى اطلاع بهذا الصدد . يا ويلتاه من النساء عندما يقررن أن يفعلن شيئاً !

وفى الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم الاربعاء ، وقفت سيارة (شفروليه) بيضاء مقابل متجر حلويات (شيرين) ، وترجل منها « هوشنك » فألقى حواليه نظرة فاحصة . ولم يلبث غير دقيقتين حتى لاحت من بعيد سيدة جميلة ذات لباس حسن وحلقتين رماديتين من الشعر وسط شعرها التمرى .

ـ سلام عليك ايتها السيدة « مهين » ، وأرجو ان شاء الله ألا تبقى مجهولة بعد الآن !

وركبت السيدة سيارة الشفروليه البيضاء ، ولم تلبث أن اجتازت بها و « هوشنك » شارعى « الالزار وشاهرضا » ، قبل ان تتجه الى (شمران) ، مصيف (طهران) الجميل .

* * *

وعاد « هوشنك » متأخرا الى منزله فى تلك الليلة ، وكانت زوجته منقبضة الأسارير ، ولكنه قال لها :

ـ أوه .. اننى اموت من التعب الآن فقد خرجنا من عند الوزير الذى كان يترأس لجنة مهمة جدا ، سيذكرون خبرها فى الصحف غدا ، ما أشق العمل فى الواقع فى هذه البلاد !

وتفتحت أسارير « زالة » فقد كان مظهر « هوشنك » المتعب لا يترك مجالا للشك فى صحة أقواله ، فقالت باسمة :

ـ حقا اننا مدعوان لدى « مهين » فى ظهيرة غد لتناول وجبة الدجاج المحمر ، فانك عندما لم تحضر فى الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء فى الموعد المضروب ، خسرت المسكينة الرهان .. ولكن حاذر من ان تفلت منك كلمة خلال الحديث

تنم عن انني حدثتك بالموضـــوع ، فان ((مهين)) لا تعلم ولا ينبغي أن تعلم ذلك !

★ ★ ★

وعلى مائدة الطعام ، فى ظهيرة اليوم التالى بدار ((مهين)) تناول ((هوشنك)) شريحة من اللحم بشـــوكته ، وقال وهو يضعها فى فمه ، ويرد على سؤال خافت وجهته اليه ((مهين)) ، دون أن ينظر الى زوجته التى كانت مشغولة بالحـــديث مع ((محمود)) زوج ((مهين)) :

ـ ليطمئن بالك يا عـــزيزتى ، فان ((زالة)) لن تعلم ذلك بالطبـــع !



"سندريلا" الخاطئة!

قصة "حالة" نفسيّة واقعية أخذها الكاتب
الأمريكي "جوزيف أنتونى" عن سجلات العالم النفسانى
الدكتور "لويس مونجمرى"

كان ذنبها أنها خلقت .. انثى !

• عنـدما يفضـل الأبوان الذكر على الانثى ـ فى أولادهما ـ يزعم أن زلات الولد لاتلطخ اسم الاسرة بالعار الذى تجره عليه زلات الابنة .. وعنـدما يرهق الأبوان ابنتهـما الطفلة بالشك فى علاقاتها مع أقرانها فى السن ، ولو كن من البنات .. عنـدما يفعل الابوان هذا وذاك ، هل يخطر لهما ببال أن سياستهما هـذه مع ابنتهما ، قد تقودها ـ حين تكبر ـ الى الفجور ، وتحيل حياتها الى حمأة تكون هى أول مشمئز من أسنها ، وأول كاره لقذارتها ؟!

ان مأساة « فاى » ـ التى استخرجها لنا الكاتب الامريكى « جوزيف انثونى » من سجلات المحلل النفسانى الدكتور « لويس مونجمرى » ـ درس لكل أبوين رزقا ابنة .. وخير الدروس هو ما أخذ عن الحياة الواقعية !

خبل يثير الانقباض

• **كان** التقرير الطبى يصف « فاى ليندستروم » بأنهـا سوداوية المزاج ، ميالة للاكتئاب ، تعتقـد ـ منـذ عامين ـ بأنها صريعة داء بشع ، تخاله سرطانا ـ فى بعض الاحيان ـ وسلا فى أحيان أخرى .. على أن منظرها لم يـكن يدل على اكتئاب ، بل ان عينيها الزرقاوين النفاذتين ، كانتا تطلان على العالم بنظرة تنم عن ان صاحبتهما كانت تجـد فيه تسـلية ممتعة .. وكانت فى حوالى الثانية والثـلاثين من عمـرها ، نحيلة الخصر ، رشيقة ، شقراء ، ذات خفـر يهفو بالقلوب ، ويحيط بها جو من البراءة والسذاجة !

وتلكأت عند باب حجرة المحلل النفسانى ـ الذى لم تكن قد عرفته من قبل ، اللهم الا خلال التليفون ـ حتى اذا التقت عيناها بعينيه ، قالت : « أنا فاى ليندستروم .. الفتاة التى

تريد أن تعرف كل أسرارها ! » .. وانسابت بخفة الى مكتبه ، ثم اردفت : « أهذا هو التقرير الطبى ؟ .. هل تطلعنى عليه ؟ » . وناولها التقرير ، فتجاهلت المقعد الذى دعاها اليه ، وجلست على حافة المكتب ، وراحت تقرأ ، ثم قالت : « اذن ، فليس ثمة داء بدنى ؟ .. كنت أوثر أن يكون الخلل بدنيا عن أن يكون عقليا ! » . فقال الطبيب : **« عاطفيا أو نفسيا .. أصح ! وليس فى هذا ما يمس العقل والذكاء فى شىء ! »**

وانزلقت « فاى » عن المكتب ، فجلست فى مقعد بجواره ، وقالت : « أرى انك تترفق بى ، ولكنى اوتيت من العقل مايكفى لان أوقن من اننى مصابة باختلال ما . لك أن تسميه **« خبل عقلى مقبض للنفس »** ! ذلك لاننى أصاب أحيانا بضيق كفيل بأن يدفعنى الى الانتحار ، لو اننى اوتيت عقلا يمكننى من التفكير فى وسيلة لذلك .. لقد قرأت عن الخبل المقبض ، ولدى كل أعراضه . وانصت المحلل النفسانى ، ثم قال : **« أرجو ان لايسوءك ان أقول لك انك مخطئة ، فليس بوسع شخص غير اخصائى ان يفهم الكتب العلمية الفنية ! »**

ــ انك تحاول ان تموه على .. افكنت تصارحنى اذا وجدتنى مصابة بخبل مقبض ؟

ــ لا ، ولكننى كنت احيلك الى طبيب مختص بالحالات العقلية النفسية

ــ اننى على كل حال أشعر بالاعراض .. أشعر بأننى شقية ، وأحس أحيانا بثقل يجثم على صدرى فلا أكاد اطيقه !

ــ اذن ، تعالى نبحث عما يسبب ذلك !

مومس تعتد بمهنتها !

• **وعندما** استقرت « فاى » على الاريكة لاولى جلسات

التحليل ، سوت ثوبها بعناية وكأنها تحرص على ان لاتكشف شيئا من ساقيها حتى لا تخدش الحياء ، وظلت تحدق فى السقف برهة ، ثم سددت بصرها الى المحلل النفسانى ، وقالت : « هناك أمر يجب أن تعرفه — قبل كل شيء — ولكننى فى حيرة من اختيار لفظ رقيق للتعبير عنه ، ولذلك فسأقوله لك بصراحة .. لقد كنت **موسا** ! »

وراحت تحملق فى لهفة ، وكأنها ألقت قنبلة . ولكن المحلل لم يبد أى رد فعل ، بل ظل ينتظر بقية حديثها فى صمت . فلما أبدت سخطها لجموده ، قال لها : « لماذا تحاولين أن تثيرى انفعالى ؟ » . فابتسمت فى اعياء وقالت : **« لست أدرى .. ان نصفى يتوق الى أن يبرح هذا المكان ، كما لو كنت أهرب من جحيم .. ونصفى الآخر يريد أن يذهب معك الى آخر الشوط ، وأظنه النصف الذى سيتغلب . فعم تريدنى أن أتحدث ؟ »**

ونصحها المحلل النفسانى أن تقول كل مايرد على ذهنها ، فقالت : « ان أول مايخالجنى هو أنك تموت شوقا الى أن تسمع قصتى كمومس ، ولكنك لاترى من كرم النفس أن تسألنى عنها .. بيد أننى لا أخجل من ذلك ! .. بل اننى بمهنتى ساعدت بعض الناس مساعدة لاتقل عما تفعله أنت بمهنتك ! » . ومرة أخرى ، توقعت ان تثيره كلماتها ، فلما لم تهزه عادت تقول : « لم ارد ان اذهلك ، بل اننى عنيت كل كلمة مما قلت . **اننى أعتقد ان المومس الامينة ، السليمة ، ذات نفع كبير فى هذه الدنيا . فليس كالمومس فى التسرية عن الرجل اذا كان وحيدا ، أو مهموما ، أو خائفا . ومن الجدير ان يعترف بها كطبيبة ذات اختصاص معين** ! وأحب أن تعرف اننى لم اهجر الدعارة لاسباب خلقية ، وانما كان الباعث هو اننى فقدت — منذ خمس سنوات — السيطرة على أعصابى ، فاذا استطعت أن تساعدنى على استردادها ، عدت الى

الانضمام لبنات الهوى ، ودعوت لك بين عملائى ! »

واذ أخفقت مرة أخرى فى اثارة العالم النفسانى ، أخلدت الى الصمت برهة ، ثم قالت : « لست أحاول أن أهزك ، فالواقع اننى ظللت مومسا حوالى أربع سنوات ، ولست أخجل من ذلك. بل اننى أكن لاية مومس من الاحترام مايفوق كل ما أكنه لجميع الاخصائيين الاجتماعيين .. اننى لاتذكر ان أبى راح يحاضرنى مرة عن « النساء المضيعات » ، دون أن أفقه شيئا من قوله ، ولو اننى استطعت أن أقابل هذا المخرف الهرم اليوم، لقلت له ان ليست هناك نساءمضيعات، وانما هناك .. نساء لايضعهن المجتمع فى المكانة اللائقة بهن!»

الشعور الذى يحبه الرجال

• **وظلت** « فاى » أسابيع عدة ، لاتخوض حديثا اللهم الا « مهنتها » ، ظنا منها ان البوح بأحدث تجاربها ذو اثر علاجى ، كما يخيل لمعظم رواد العيادات النفسية . ولم تذكر – خلال ذلك – سوى لمحات خاطفة عما أدى بها الى أن تكون مومسا .. ولم يتجاوز ما ذكرته : **أنها كانت يوما زوجة لرجل موسر ، وانها جرحت كرامته بطريقة ما ، فطردها من بيته فى ازدراء ، ودون اشفاق !** .. ولكنها روت الكثير عن مئات الرجال الذين اتصلت بهم فى مهنتها ، من أفراديبدونللمجتمع كمواطنين صالحين ، الى أفراد ذوى مراكز عالية ، يخشون أن يفقدوا مكانتهم ولكن حب المغامرة يتغلب على خوفهم ، الى أزواج يخونون زوجات لم يفهمنهم ، أو فهمنهم أكثر مما ينبغى ! .. أما مسلكها نحوهم فقد وصفته بقولها : **« ودائما كنت أعطى كل واحد منهم ما يعوضه عما دفع من نقود ، وما يشعره بأنه قد أحرز نصرا ، وما يوحى اليه بأنه الوحيد – من عملائى – الذى استطاع أن يغزو قلبى كما غزا جسمى .. فالرجال يحبون ذلك ! »** .

وكانت « فاى » تمتدح من كانت تسميهن « الزميلات السابقات » ، ثم تردف قائلة : « الشيء الذى لم أكن أفهمه ، هو : ما الذى كان يدعو معظمهن الى أن يدفعن نصف مكاسبهن ثمنا لحماية ينشدنها من بعض الرجال ذوى الاجسام الضخمة ، والعضلات المفتولة ؟ .. أن أحدا من هؤلاء « البلطجية » لم يستطع أن يحصل منى على مليم واحد .. لقد حاول أحدهم أن يتعرض لى فى احد المشارب يوما ، فسببته وسفهته بصوت مرتفع ، سمعه الجميع ، فلم ينبس ببنت شفة ، فرمانى بنظرة مضحكة ، وغادر المكان بحجة منتحلة . واذ ذاك قدم الى صاحب المشرب كأسا على حسابه ، قائلا أنه لم ير قط بلبلا يتغلب على صقر ! .. بيد أننى لم أفقه أنه كان يطلب « اتاوة » ، ولا عرفت شيئا عن نظام « الاتاوات » — التى يفرضها « البلطجية » على بنات الهوى — الا بعد وقت طويل ، لاننى لم أكن أخشى أحدا ، حتى لقد شاع فى حى الهوى اننى كنت على صلة بعمدة المدينة .. ولعل « البلطجى » سمع ذلك ، فانسحب حين سفهته ! »

مشكلة الانسانية الازلية : الولد والبنت !

• **ولاح** أن « فاى » كانت تنظر الى ذكريات مغامراتها فى الدعارة — وهى تستعرضها — كما لو كانت أمورا حدثت فى دنيا أخرى ، ولا صلة لها ببقية حياتها .. وكان ما عدا ذلك من ذكريات وآراء ترد عرضا — فى الحديث — وكأنها عفو الخاطر ! .. **من ذلك أنها روت يوما حلما رأت فيه رجلا كان يسير على بعد خطوات منها ، فأسرعت خلفه ، وربتت كتفه وهى تعتقد أنه كان زوجها السابق . فلما التفت الرجل اليها ، تبينت أنه كان أباها ! .. وعقبت قائلة : « وأغرب ما فى الامر ، ان كلارك — أعنى زوجى — كان أبعد الناس شبها عن أبى ! »**

وكان أبوها قد شغل — لسنوات طويلة — مركزا اداريا

كبيرا ، فى شركة تجارية بالبلدة التى نشأت فيها « فاى » . ولم يكن يهتم ـ خارج عمله ـ الا بأمرين اثنين : الخمر ، والعبادة ! .. كان يقبل على الخمر ، ثم يقسو فى محاسبة نفسه على هذه الخطيئة ، ويصب سخطه على أول شخص يقع تحت رحمته ، فكان يتسقط الهفوات لامها ، فى واجباتها المنزلية . وكانت أمها تجد لذة فى رد عدوانه بمثله ، فكانت تؤنبه وتسخر منه وتقول له انه كان يستمد عقيدته الدينية من زجاجة الخمر ، وكانت وخزاتها هذه تفحمه وتخزيه وتضطره الى أن ينكس رأسه ، ثم يبحث عن العزاء فى .. الخمر ! ! ويلقى ـ بعد ذلك ـ تبعة تصرفه هذا على الزوجة التى كانت تعيره !

وكانت ذكريات « فاى » عن أمها ، لا تقل مرارة عن ذكرياتها عن أبيها : « **كانت اذا رافقتنى فى الحمام ، راحت تدلك جسمى بأخشن فرشاة لديها ، فكنت أبكى وأتوسل اليها أن تكف . ولكنها كانت تمضى فى عملها ، قائلة ان البنات الصغيرات لا يعرفن ما فيه خيرهن ، وان من الواجب ان يكن نظيفات .. أما مع اخوتى الذكور الثلاثة ، فكانت غاية فى اللطف والترفق . ولم تقل لاحد منهم يوما ان الصبية يجب أن يكونوا نظيفين !** .. وكان أغرب ما فى الامر ، انها لم تكن تكف عن تحذيرى من الصبية منذ تفتق ادراكى .. كانت تقول ان اللعب مع الغلمان ـ ولو كانوا اخوتى ـ اثم ، فاذا سألتها عن السبب ، أمرتنى بأن أكف عن السؤال .. على أن اخوتى كانوا رفيقين معى ، وكانوا يسمحون لى بأن أشاركهم ألعابهم ، ويقفون الى جانبى اذا خشن معى أحد غلمان الجيرة فى اللعب ، وهذا هو السر فى اننى لم أنفس عليهم حريتهم »

وكان مسلك اخوتها هذا ، يحدث شيئا من التوازن فى نفس الصبية الصغيرة ، ويشعرها بأنها عضو فى الجماعة التى كانت تحيط بها !

بعد سهرة مع شابين !

• **وكانت** فى هذه الجماعة صبية أخرى تدعى « ايدنا » ، من لدات « فاى » فى السن .. واستطردت فاى تقول : « كانت هى الفتاة الوحيدة التى تشاركنى اللعب مع الغلمان ، دون أن يعاملوها كما لو كانت دمية . وقد توثقت الصداقة بينى وبينها ، فكنت أفاتحها بأسرارى ، ولكنها لم تبح لى قط بشىء عن نفسها ، وان لم يحل ذلك دون أن أشعر بأنها كانت تفهمنى ، وبأن بوسعى أن أفضفض اليها بما يثقل صدرى .. **وعندما بدأت زميلاتنا فى السن ، يشغلن بالخروج مع زملائهن من الفتيان ، كنت و « ايدنا » الوحيدتين اللتين أظهرتا استقلالا عنهن ، فكان هذا يغرى الفتيان بالتهافت علينا .** وكانت « ايدنا » ذات روح مرحة ، فكنا نتخذ من ارتباكات الفتيان معنا ، مادة للضحك .. وفى ذات مرة ، هبط البلدة « سيرك » ، فذهبت مع « ايدنا » اليه . وظلت صديقتى طيلة الوقت تقارن بين الحيوانات وبين الفتيان الذين كنا نعرفهم ، ونتخذ من هذا مادة للضحك ! »

وفى ذات مساء — وقد بلغت الفتاتان السادسة عشرة — ذهبتا معا للقاء شابين اصطحباهما الى « السينما » ، ثم الى ناد ليلى كبير فى بلدة مجاورة . وكانت نجمة الملهى ثقيلة الظل . فلما عادتا من السهرة ، ذهبتا الى دار « ايدنا » — أو «ايدى» كما كانت تدلل — شرعت هذه تقلد الفتى الذى كان معجبا بفاى . **ثم تجردت من ثيابها ، وراحت تقلد الراقصة التى كانت فى الملهى ، تقليدا دقيقا ، بارعا . أما «فاى» فان الشراب أهاج معدتها ، ولكنها خجلت من أن تذكر لصديقتها أنها كانت توشك أن تتقيأ ، فأسرعت تغادر الدار والفتاة منهمكة فى تقليد الراقصة .** وأغضب هذا التصرف « ايدى » ، فخاصمت « فاى » ، وأبت أن تسمع أى تبرير حاولت — فيما بعد —

أن تفسر به ما جرى .
واردفت فاى — بعد هذه الذكريات — قائلة : « من العجيب أن يضايقنى أمر كهذا ، بعد كل السنين التى انقضت .. اننى لا أتورع عن أن أكون جافة مع من يكونون جافين معى ، ولكنى اكره أن أوذى شعور شخص لم يبادرنى بأية اساءة .. اننى آسف لهذا أكثر مما آسف لما يسمونه اثما وخطيئة !.. على أن ثمة ما يعلل تذكرى هذه الواقعة . ذلك اننى وجدت أبى وأمى فى انتظارى حين عدت الى دارنا ، فلم تنبس أمى بكلمة ، وانما ألقتنى على ركبتيها ، وراحت تضربنى بفرشاة للشعر .. وكنت مضناة منهوكة القوى ، فلم أحفل بشىء ولكنى فكرت فى الامر — فيما بعد — فاستنكرته ! »

الطريق الى المغامرات الغرامية

• **واستطردت** فاى فى حديثها قائلة : « أما أبى ، فقد أثار ضجة ، عندما حان دوره . اذ أراد أن يعرف اين كنت ، وماذا فعلت . ولم ينصت الى اجاباتى ، بل بدا أنه كان قد كون لنفسه رأيا من قبل ، اذ راح يلقى محاضرة أحسبه كان قد قضى الليل كله فى اعدادها .. **محاضرة وصفنى فيها بأننى فاجرة ، واننى مطية الشيطان ، واننى كنت أمرغ فى الوحل اسما كان يعمل على أن يبقيه شريفا نظيفا — وقد خطر لى — فيما بعد — أنه كان يغسله بالخمر ! — وذكر اننى كنت أوشك أن أستنزل نقمة الله على الاسرة ، وعلى البلدة كلها فتصبح رمادا كما كانت سدوم وعمورة ! »** .. وقد ورد فى التوراة أن الله نقم على بلدتى سدوم وعمورة بسبب الشذوذ الجنسى ! وقد كان رد فعل هذه المعاملة التى لاقتها « فاى » من أبويها ، **أن أقدمت — فى اليوم التالى — على أول مغامرة جنسية لها ، لتعبر عن غيظها مما فعله أبواها !**

ووصفت الفتاة كيف استدرجت زميلها الذى كان معجبا

بها ، وأسلمته نفسها ، ثم قالت : « كانت مغامرة مثيرة .. لا لشىء الا لانها كانت تعتبر اثما ! .. وقد كررتها مع الفتى عدة مرات ، ولكنه أفسد المتعة بأن تدله فى غرامى ، وراح يلح على أن نبوح لاسرتينا برغبتنا فى الزواج ، ولكنى لم أكن أحبه الى هذه الدرجة ، فنفضت يدى منه ! »

وأرسلها أبوها ـ بعد دراستها الثانوية ـ الى كلية كانت معروفة بنظامها الشديد ، ولكنها خاضت مغامرات أخرى ، مع عدد من الشبان .. « ولكنى كنت أعتبر كل ذلك جزءا من تعليمى ، كالتاريخ والجغرافيا ! » . ولم تتم دراستها فى الكلية ، بل حصلت على عمل كتابى فى بلدتها ، فأبدت تفوقا جعلها ـ بعد شهور قلائل ـ رئيسة على ست من زميلاتها . ولكنها ـ رغم ذلك ـ كانت قلقة ، متذمرة ، ضجرة ! وعندما أقبل صيف ذلك العام ، زعمت لوالديها أن زميلات لها دعونها لقضاء عطلة آخر الاسبوع معهن ، ورحلت الى مركز سياحى ـ على مقربة من بلدتها ـ به فندق و « كازينو » للمقامرة . ولذ لها أن تشهد الناس وهم يقامرون .. وفى قاعة اللعب ، التقت بشاب فى أواخر العقد الثالث من عمره ، بدا أنيقا ، مهذبا .. وكان يقامر بمبالغ كبيرة ، دون أن تصدمه الخسارة ، أو يهزه الربح . وعندما همت بأن تبارح القاعة ، قال لها : « أرجو أن تمكثى ، فان وجودك طالع سعد لى ! »

تواصل شهر العسل رغم موت أمها

• **وقالت** « فاى » معلقة على ذلك : « لم أكن من الخجل بقدر ما بدوت عند ذاك ، ولكننى كنت منفعلة ، اذ بدأت أجرب فتنتى فى المجتمع الكبير ، الذى لم أكن قد ألفته بعد .. ولكننى كنت مصممة على أن ألعب دورى ! » .. وان هى الا دقائق ، حتى تبين الشاب أن الفتاة ذات العينين النجلاوين والاهداب الطويلة ، كانت أجدر من الميسر باهتمامه ، فدعاها الى العشاء

.. وقبلت متصنعة الحرج ، مشـــترطة أن لا يستبقيها الى ساعةمتأخرة .. **((وكان أعزب ممن يحومون حول النساء .. ومثل هذا الصنف يتطلع دائما الى زهرة لم تستكمل تفتحها تماما ، ولا يزال الندى عالقا بأكمامها .. ولم أر ما يدعو الى أن أخيب ظنه !))**

وكان ((كلارك ليندستروم)) ـ وهو اسم الشاب ـ رئيسا لشركة لبيع الاوراق المـالية ، وذا دخل يمكنه من أن يعيش فى رفاهية ، فى ضاحية من أفخم ضواحى نيويورك . وقد تدله فى حب ((فاى)) ، وراح يتهافت عليها ، فكانت بارعة فى رسم سياستها نحوه ـ ما بين اقبال وصد ـ حتى أنه عرض عليها الزواج ، بعد أشهر قلائل من لقائهما الاول . ولكنها استبقت العرض معلقا زهاء سنة ، وعللت ذلك بقولها : **((لعل غـريزة خفية أوحت الى بأنه لن يترتب على هذا الرباط خير ما ! .. وان كنت قد عرفت من البداية اننىقدأتزوج الشاب ، ولكننى لن أتدله فى هواه !))**

وكانت فى العام الحـادى والعشرين من عمرها ـ وهو فى الاربعين ـ حين تزوجا . فطاف بها أوربا فى شـهر العسل . ولقد تلقت ـ خلال الرحلة ـ برقية تنعى اليها أمها ، اذ ماتت صريعة السرطان ، فتكتمت النبـأ عن زوجها الى أن عادا الى نيويورك . وعندما أبدى عجبه لكتمانها نبأ كهذا ، تعللت بأنها لم تشأ أن تفسد عليه بهجة الرحلة ! .. ((وما عرف اننىكنت فاجرة ، مطية الشيطان حقا ، كمـا قال أبى .. فان أمى لم تبد لى حبا يوما ما ، ولا أنا أبديت نحوها حبا ، بدورى !))

((سـندريلا)) والامير الفاتن

• **ولم** يكد الزوجان يستقران فى البيت الفـاخر ، حتى انقلبت حياتهما الى سلسلة من الشـقاق والصلح . وزعمت ((فاى)) أن كل شقاق كان يبدأ بعمل تقوم به لخير زوجها ،

فيساء تفسيره .. كان « كلارك » يكره ــ مثلا ــ الاسفاناخ والخرشوف ، ولكن « فاى » كانت توقن من أنهما مفيدان له ، فكانت تصر على تقديمهما له . وكانت تؤمن بأن عمله يستلزم ترفيها واختلاطا بالناس ، فكانت تكثر من اقامة الحفلات الكبرى ، وكان « كلارك » يشكو من أن ذلك يحرمه من أن ينام ساعات كافية .. **كما أنه كان السباق دائما الى الصلح ، بعد كل شقاق ، ولكن هذا كان يثير « فاى » . كانت توقن بأن الحب هو محفزه على ذلك ، ولكنها كانت ترى فى عمله اذلالا لها ، اذ كان يبديه أسمى منها وأرفع !**

واذ أبدى المحلل النفسانى عجبه من ذلك ، قالت : « أجل ، لقد كان يعتذر دائما ، رغم أن أى امرىء كان خليقا بأن يرى أنه كان يعتقد بأنه على حق فى غضبه . وكان يبادر اذا ما رآنى أعجب بشىء الى شرائه فورا . وكنت مضطرة دائما الى أن أبدو مقصرة فى عرفان جميله .. كان لا يكف عن أن يبدى لى حبه ، وعن أن يسألنى عما اذا كنت أبادله الحب بنفس القوة ، فلم أكن أملك ان اعبر له عن حبى بالشكل الذى يرضيه ! .. لقد كنت انسانا أنا الاخرى ! .. **كنت زوجة صالحة له ، كما كان زوجا صالحا لى .. كنت أدبر له شؤون بيته ، وأوفر له كل ما يريحه ، وأرعى صحته .. ولم أكن من أولئك الزوجات اللائى ينغصن حياة أزواجهن ببرودهن الجنسى .. كان كلما اشتاق الى ، وجدنى رهن يديه ! »**

وذكرت أنها لم ترتكب أى خطأ يشكو منه ، سوى مرة واحدة . واستطردت : « ولكنه أمر ليس بوسع أحد أن يقدره أو يفهمه ! » .. وارتجفت شفتاها ، وصمتت برهة ، فلم يشأ المحلل النفسانى أن يضغط عليها . وظلت هى تغالب نفسها بضع دقائق ، ثم ابتسمت ، وقالت : « اتعرف ما كنت أفكر فيه الآن ؟ .. تمنيت أن أكون مؤلفة ، فهناك قصة واحدة أتمنى أن اكتبها . هل تتذكر ان قصة « سندريلا »

تنتهى بزواج الفتاة من الامير الساحر ؟ .. هنا تبدأ قصتى ، فأنا أمثل كيف كانت « سندريلا » سعيدة فى البداية ، مزهوة بحب الامير الساحر ، حريصة على أن تقـدم له كفايته من الفيتامينات ، وان تسير شؤون بيته بدقة ، وان تحـافظ له على اتصالاته الاجتماعية ، وان ترفه عنه متاعب العمـل اذا ما عاد فى المساء .. كانت « سندريلا » ترى أن الامير الساحر فاتن ، وكان يطربه أن يسمع منها ذلك ، ولكن الذى ضايقها أنه كان يريدها على أن تردد ذلك دائما ، حتى سئمت وضاقت وتمنت لو أنه لم يكن معتدا بسحره وبنجاحه فى الحيـاة .. وكانت ترجو أن تشعر – هى الاخرى – بكيانها كانسان ! »

مع سائق السيارة .. فى سرير !

• **ولاذت** بالصمت برهة ، ثم قالت : « عنـدما انبأتك يا دكتور بأننى كنت مومسا ، لم يطرف لى جفن .. ولكننى أشعر بارتباك اذ أهم بأن أخبرك بما حدث .. على أنه انمـا حدث لاننى كنت أعمل جاهدة على ارضاء مولاى . فلقد كان يحب البيض نصف المسلوق ، ذا المح المائع . وفى ذات صباح ، تركت البيض على النار أكثر مما يجب – اذ كنت أعـد له الفطور بنفسى – فجمد المح ، واذا بكلارك يثير شجارا حاميا ، ويصيح بأنه كان من الخليق بى أن أدع للطاهية أمر اعـداد الفطور ، اذا كنت لا أعرف كيف أسلق البيض ! .. **ولم اجبه ، ولكن لهجة التعالى والترفع والسيادة غاظتنى ، فشعرت بأننى أوشك أن انفجر** . ورافق النحس كل حركاتى فى ذلك اليوم ، فكسرت تحفة خزفية ثمينة ، واستعصى على فتح درج خزانة الثياب فرحت أعالجه بعنف حتى سقطت مـرآة الخـزانة فتهشمت ! »

ولجأت أخيرا الى غرفتها ، فراق لها أن تستدفىء . وأقبل « كارلو » – وكان خادما وسائقا للسيارة ، فى آن واحـد –

ليشعل النار فى المدفأة . ودار بينهما حديث ، أعربت خلاله عن عجبها من أنه كان يعامل كلارك معاملة العبد الرقيق للسيد ، فقال لها « كارلو » أن أكل العيش كان يتطلب ذلك ، وانه لم يكن يرى فى هذا المسلك مايضيره .. « فقلت له اننى كنت أجد فيه ما يضيرنى أنا ، لاننى كنت أرى فيه رجلا لا يقل فى شيء عن كلارك ، ان لم يكن أفضل منه ! .. وكنت فى قميص النوم وحده ! »

وهكذا حل كارلو محل كلارك فى سريرها فى ذلك اليوم ، وكان عنيفا ، وكأنما أراد ان يشعرها بأنه كان السيد صاحب السلطان فى ذلك الوضع .. وأصبح برنامجه اليومى ـ بعد ذلك ـ أن يقل « كلارك » الى المحطة فى كل صباح ، وهو يبدى له كل فروض الطاعة والاحترام ، ثم يعود فيلازمها فى السرير ، الى أن لا يصبح ثمة وقت سوى ما يكفى لان يسرع بارتداء ثيابه ، وقيادة السيارة الى المحطة ليقل كلارك فى عودته .. ولقد أوشكا أن يفتضحا مرة ، اذ عاد كلارك مبكرا عن موعده ، واستقل سيارة أجرة الى البيت .. ولم تنقض دقيقة على مبارحة « كارلو » المخدع ، حتى دخل « كلارك » البيت !

طلاق .. ثم انزلاق !

• **واستطردت** « فاى » قائلة : « ولكن ضميرى الاحمق ـ ولا شيء غيره ـ هو الذى جلب على المتاعب . فلقد أحببت كلارك رغم أنه كان يثقل على أعصابى ، فبدأت آسف لما كنت ارتكب . ويبدو أن أسفى بدا فى تصرفاتى ، فقد أنبأنى كلارك يوما بأننى أصبحت ـ فى الفترة الاخيرة ـ مفرطة الحنان واللطف ، وانه لذلك صار يعبد الارض التى تطأها قدماى .. وهفا كلامه بأعصابى ، فشئت أن أثبت له أن حبى لا يقل عن حبه ، وأننى لذلك لا أستطيع أن اخفى عنه امرا ، مهما

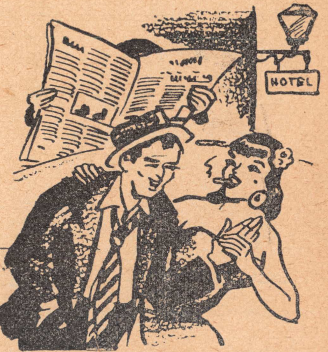
يكن .. **واعترفت له ، فما أن عرف اننى كنت أخونه مع « كارلو » ، حتى راح يصرخ : « السائق ! .. لقد ضاجعت السائق ! » .. كأنما كان السائق حيوانا ! .. ووجدتنى أقول له أن السائق كان انسانا مثله ، فأوشك أن يخنقنى .**
ثم تحول يجرد يدى من المصوغات ، وجرنى عبر الحجرة ، وطردنى من الدار دون أن يسمح لى بأن آخذ شيئا سوى الثياب التى كنت أرتديها ، ودولارات قلائل كانت فى جيبى ! »

وقضت « فاى » ليلتها تلك فى فندق صغير . وما لبث « كلارك » – من ناحيته – أن طلب الطلاق ، وفاز بحكم لصالحه . وفى تلك الاثناء ، اعتادت « فاى » أن تخرج فى جولات ليلية لتغالب الارق ، فقدر لها أن تشهد فتيات الليل ، وكيف كن يتصيدن الرجال ويصطحبنهم الى الفنادق الصغيرة .

ومضت تقول : « **وأوحى لى هذا بطريقة أغيظ بها « كلارك » .. تلك هى أن أغدو مومسا ، وان أمرغ اسمه فى الوحل ، فقد كان من حقى أن أسمى نفسى « مسز كلارك ليندستروم السابقة ! »** . وراحت تتكلم عن ذلك فى لهجة متشفية ، حاقدة .. ووصفت كيف كانت تسعى لتقع فى أيدى البوليس ، حتى تعترف أمام القضاء بأنها مومس ، فتنشر الصحف اسمها واعترافها ، وتلطخ اسم زوجها الى الابد . ولكن أحدا من رجال البوليس لم يتعرض لها .. « ولعلهم كانوا يعتقدون – هم الآخرون – ان عمدة المدينة صديقى ! »

اثارها أن زوجها كان اسمى منها !

. **وكانت** أمتع لحظاتها ، يوم رأت زوجها فى بهو أحد الفنادق الصغيرة ، فتعمدت أن تحوم – على مشهد منه –



حول رجل ثمل ، وان تعرض عليه نفسها كمومس ، وتذكر له — بصوت سمعه كلارك — أن أجرها خمسة وعشرون دولارا . ولكن « كلارك » لم يهتز ولم ينبس ببنت شفة ، مما دفعها — فى اليوم التالى — الى أن تذهب الى مكتبه ، وتحاول أن تقابله ، لتتعرف وقع عملها على نفسه . ولكنه أوفد سكرتيرته لتعتذر عنه ، وقد حملت منه رسالة قدمتها اليها ، فلم تكد تفضها — بعد أن بارحت المكتب — حتى وجدت فيها ورقة بيضاء ، طويت على ورقة من فئة الخمسة والعشرين دولارا .. وكأنما أراد أن يبين لها قيمتها .. **القيمة التى عرضت بها نفسها على الرجل الثمل !**

واغتصبت ابتسامة واهنة ، ثم قالت : على أن هذا كان كافيا لبيان شعوره .. لقد أدرك أننى أصبحت مومسا ، بفضل تخليه عنى ، وكان هذا كل ما أحفل به ! »

والنفس كسطح الماء ، اذا القيت اليه بحجر ، انداح فى دوائر واسعة ، لا تلبث أن تضيق رويدا ، حتى يرين الماء الى السكون .. كذلك كانت نفس « فاى » — أثناء علاقتها بزوجها — ما أن اعترضها حادث ، حتى راحت انفعالاتها تتذبذب ، ثم تركزت فى كراهية عمياء ، نحو زوجها . وكان الحادث الذى أثار نفسها فى البداية ، أنها طردت خادما كان « كلارك » قد استخدمه منذ أمد طويل ، لتعين مكانه خادما انجليزيا راقيا ، تشبها بالاسرات الكبيرة .. وتوقعت أن يشكرها « كلارك » لذلك ، ولكنه غضب أشد الغضب .. « **ثم صفح عنى .. كنت دائما**

أتلقى منه ((الصفح)) عن أمور كنت أفعلها لمصلحته وخيره !))

وراحت ((فاى)) تسرد كثيرا من الحوادث التى من هذا القبيل ، فتثير الذكريات وتعيد ـ فى الوقت ذاته ـ التفكير فى الامر .. وهنا بدأت تفطن الى ما كان فى تصرفاتها من أخطاء ، فقالت : ((لعلى لم أكن زوجة ماهرة ـ كما أعتقدت فى نفسى ـ ولكننى كنت صغيرة السن ، وكان ((كلارك)) يظهر ادراكه لذلك بأن يغضب ويصفح ، كشخص كبير يعامل طفلة أقل منه شأنا ! .. وهذا ما كانت تأباه !

تتعمد أن تفضح اثمها !

• **وتدافعت** الدموع الى عينى ((فاى)) لاول مرة ، ولكنها كانت منبعثة عن الغيظ أكثر مما كانت منبعثة عن الاسى ، وقالت : ((كنت أرجو أن يعاملنى على قدم المساواة .. لم أكن أحب ان اكون تحت السيطرة . وما فعلت ما فعلت الا لتخلص من هذا الشعور .. وماكنت لاعترف لكلارك بما كان بينى وبين كارلو لو لم أكن أحبه .. أفكان لزاما على أن اعترف له ؟))

ـ لم لا يكون دافعك الى الاعتراف هو نفس الشعور الذى جعلك تزدادين تعمدا أن تعرضى نفسك لان تضبطى وأنت تقارفين الاثم ؟

ـ صحيح اننى كنت ألعب بالنار ، ولكن .. أيعنى هذا اننى كنت أريد أن أحترق ؟

ولكن الذكريات التى تدفقت على ذهنها ، أكدت لها أنها كانت تسعى الى ان تفضح علاقتها بكارلو فعلا ! .. كانت تسرف فى الاستهتار ، حتى لقد نبهها كارلو ـ مرة ـ الى أن الخادم فطنت الى علاقتهما ، فبدلا من أن تكسب الخادم الى صفها ، أنحت عليها باللوم والتقريع ، زاعمة أنها كانت تهمل أعمالها .. وبات ((كارلو)) ـ من جراء استهتارها ـ يخشى أن يفقد عمله !

حلم .. من أيام الطفولة

• **وكانت** « فاى » تترفع على من وصفتهن بأنهن « زميلاتها » من بنات الهوى ، حتى لقد كانت تدخر من مكاسبها ما يكفى لتستأجر مسكنا آخر — غير الذى كانت تخلو فيه الى « عملائها » — فى حى بعيد ، لتعيش فيه ثلاثة أيام من كل أسبوع ، فى هدوء وشرف وحشمة . كما أنها حرصت على أن تحصل على عمل شريف ، تتقاضى عنه أجرا طيبا ، بعد أن نفضت يديها من الدعارة . وبهذا حققت لنفسها استقرارا اجتماعيا وماليا .. ولكنها — مع ذلك — ظلت تشعر بعبء يثقل صدرها .

وقدر المحلل النفسانى أن ما كانت « فاى » تبديه من صلابة ، وصمود فى وجه كل الاحداث والاشخاص ، انما كان خلقا مصطنعا ليستتر وراءه الفتاة الصغيرة الخائفة ، التى كانتها فى طفولتها وصباها . وكانت مهمته هى أن ينتهز فرصة التقاء الشخصيتين معا .. وقد حانت احدى الفرص ، حين ضاقت « فاى » يوما ببطء العلاج ، فقالت له : « أتعرف اننى كنت أحلم بأن أصبح طبيبة ؟ » . وعندما سألها عن الفترة التى داعبتها فيها هذه الامنية ، بدا انها كانت تبغض الحديث عنها ، ولكنها ذكرت أنها كانت تمثل دور الطبيب فى ألعاب الطفولة .

— وهل حدث أثناء اللعب ما آلم نفسك ؟

— ما هذا الهراء ؟ .. أنك — حين تحاول أن تجعل الحبة قبة — تذكرنى بالشيخ المخرف .. أبى !

وشيئا فشيئا ، انحلت عقدة لسانها : « كنت اذ ذاك فى السادسة — وربما فى الخامسة — من عمرى . وكانت تقيم معنا عمة لى معلولة ، يتردد الاطباء عليها ، ولكنها لم تلبث أن ماتت .. ولعلها كانت تشكو أحيانا من أحد الامراض الخاصة بالنساء .. **وفى ذات يوم ، سرقت احدى الحقن التى كانت**

فى غرفتها ، وقلدت ـ مع فتاة صـــغيرة كانت تلعب معى ـ ما كان الاطباء يفعلونه مع عمتى ! »

واذ سألها الطبيب عن اسم صديقتها تلك ، سخطت علـى فضوله ، ثم صاحت : « ما كنت لاخبرك بشىء من هذا ، لولا اننى كنت طفلة بريئة ، ولم أكن أرى ذنبا فيما كنت أفعل .. وما كان ينبغى لاحد أن يظن غير ذلك ، ما لم يكن عقله قذرا دنســا ! »

ذنب الطفولة يجعل منها مومسا

• **وكان** أبوها هو صاحب هـذا العقل ـ فى رأيها ـ فلما صارحها المحلل النفسانى بذلك ، غضبت .. ولكنـه ما زال بها ، حتى استدرجها فى الحديث ، فاعترفت بأنها **كانت تكره أباها ، لانه فاجأها وصاحبتها ، وهما تلعبان دورى الطبيبـة والمريضة ، فثار وراح يصرخ حتى أثار فزعها** .. وأخذ يذكر كيف أن الشيطان كان يستولى عليها ـ فى رأيه ـ وكيف أنها كانت اسوأ مخلوق ، منذ عهد (سدوم) و (عمورة) !

وقالت فاى : « لقــد ظل اسم (عمورة) يدوى فى رأسى كالرعد ، ورحت أحلم ـ ليلة بعد ليلة ـ بأننى أرزح تحت نيران حامية ، وكلما هممت بأن أتسلل من تحتها ، دفعنى أبى اليها ، وهـو يصرخ مرددا ذلك الاسم ! » .. **وأدى شـــعور الطفلة بأنها مغبونة منبوذة ، الى أن تكره أباها ، وما أن بلغت العاشرة من عمرها ، حتى كانت تشعر كما لو أنها كانت مجرمة حقا !**

وأجفلت « فاى » حين تبينت أن ما اعتادت أن تعزوه لامها ـ فى نفسها ـ من قسوة ، انما رسخ فى ذهنها عقب ذلك الحادث الذى أرهبها فيه أبوها . فقد اعتادت كلما ذكرت لها أمها أن من واجب البنات أن يكن نظيفات ، ان تتـذكر (عمـورة) ، وان تخال أن اصرار أمها على ان تدلك جسمها بفرشاة خشنة ـ أثناء الاستحمام ـ كان لونا من العقاب ! .. وكان من جراء

كل هذا ، أن تولد فى نفس « فاى » نفور نحو والديها . **كما ترتب على ذلك أن شعورها بالاثم ـ الذى أوهمـاها بأنها ارتكبته ـ هو الذى دفعها الى أن تتمرغ فى الاثم ! .. وهو رد فعل طبيعى ، ساعدها على الايغال فيه ان أخـذت أوهامها تضاعف من حقدها على والديها !**

ولقد تبينت « فاى » كل ذلك ـ على ضـوء ذكرياتها ـ فارتسمت لها صورة جديدة لابيها .. صورة رجل يكدح فى الحياة .. رجل مضطرب الذهن ، اذا أسرف يوما فى الشراب، قضى بضعة أشهر فى التوبة والتكفير . واذ ذاك،ابتدأت« فاى» تشعر بعطف عليه وعلى أمها ، وتقسو فى الحكم على تصرفاتها !

سر التحول عن الدعارة

• **وعند** هـذا الحد من العلاج ، أخـذت أعراض المرض الجسدى تبارح « فاى » ، رغم أنها لم تكن قـد تخلصت من أكثر من جزء من الشعور بالاثم ، الذى لازمها من الطفولة . كما أدركت سر الوهم الذى كان يوحى اليها مرة بأنها كانت مصابة بالسرطان ، وأخرى بأنها كانت فريسـة للسل . فان أمها ماتت بالاول كما أن عمتها ماتت بالثانى !

ولكنها لم تكن قد تخلصت بعد من أسـوأ متاعبها .. من الشعور بالضيق ، وبالهم الخفى الذى كان يثقل نفسـها . وقالت يوما للمحلل : **« اننى أعرف سر ذلك ، فما هـو الا نتيجة ادراكى حقيقـة نفسى . أبدا ما كنت أفكر فى نفسى كمومس ، وانما كنت أحسب اننى احارب كلارك لانه طردنى وطلقنى . ولكننى الآن أتبين أننى انما كنت مومسا فاجرة ، فكيف لا أغتم لذلك ؟ .. لقد هوى ذلك بى من المكانة التى كنت أضع نفسى فيها كبطل ! »**

وردد المحلل كلمتها الاخيرة فى تساؤل : **« بطل ؟ »**

ـ لعنة الله عليك !.. انما كنت مومسا لاننى خلقت لذلك ،

ولولا أن أعصابى تخاذلت لظللت مومسا !

وأدرك المحلل النفسانى أنها كانت ترجو أن يعارض قولها ، ولكن جرحها كان فى حاجة الى ان يغفل ذلك ، فسألها : **« وكيف تخاذلت أعصابك ؟.. ما الذى حدث فى آخر يوم فى حياتك كمومس ؟ »** .. وثارت عليه فى أول الامر ، وخشنت فى القول ، ثم ثابت الى نفسها ، فاعتذرت وقالت : « لقد ذكرتنى فجأة بعملائى الملعونين .. مامن واحد منهم الا سألنى : « كيف قدر لطفلة وديعة ذكية مثلك أن تتردى ؟ »

الفتاة التى ذكرتها بشبح الماضى

• **وعادت** تكرر الاعتذار فى الجلسة التالية ، ثم راحت تروى له ما حدث فى آخر أيام دعارتها .. فلقد كانت بين « زميلاتها » فتاة تبدو وحيدة ، منكسرة ، فدعتها « فاى » الى العشاء ، فى احدى الامسيات التى لم تكن تمارس فيها الغواية ، ففرحت الفتاة ، وأرشدتها الى مطعم فى قرية قريبة .. **ولكن « فاى » لم تلبث أن اكتشفت أن المكان كان مباءة لمارسات السحاق ، من ذوات الشذوذ الجنسى . واشتد تقززها من المكان ، فأرادت أن تنصرف مدعية انها شعرت بمرض مفاجىء ، واذا بالفتاة تصر على أن ترافقها** . ومن ثم اصطحبتها « فاى » الى المسكن الذى كانت تخصصه للهدوء ، بعيدا عن الفسق . ورجتها « ديزى » ـ وهو اسم الفتاة ـ أن تسمح لها بالمبيت معها . فلما أجابت سؤالها ، شرعت « ديزى » تخلع ثيابها ، حتى تعرت تماما !



واستطردت فاى : « **لم أر فى حياتى ما هو أدعى للاشمئزاز من ذلك . كان عملها بمثابة دعوة الى الشذوذ الجنسى ، حتى اننى أسرعت الى الحمام ، فتقيأت ما كان فى جوفى . وانتظرت الى أن نامت « ديزى » ، فتركت لها مذكـرة أعتـذر عن اضطرارى للانصراف .. وكان هذا آخر عهدى بالامر كله ؟** »

ـ أواثقة أنت من أن ديزى كانت من ممارسات السحاق ؟

ـ وما الذى تكونه فتاة تلصق بى طيلة الامسية ، ثم تتعرى من ثيابها ، وتتلوى فى رقاعة

ـ أو كانت « ايدى » تتلوى فى رقاعة ؟

وصرخت « فاى » مأخوذة : « من ؟ » .. ومرت لحظات ، قبل أن تقول : « آه !.. أتعنى زميلتى فى الدراسـة ؟ » . وقال الدكتور مونجمرى : « أجل ، التى قلدت الراقصة فى غرفتها ! » . فصاحت فاى : « لا أتصور شخصين بينهما من الفوارق مثل ما بين ايدى وديزى .. وليس لما فعلته ايدى علاقة بالغثيان الذى ينتابنى ، فهى وان تجردت من ثيابها ـ فى تلك الليلة ـ الا أنها كانت تقلد الراقصة ، لمجرد الفكاهة ! »

« ديزى » و « ايدى » .. فى حلم !

• **وأخذ** فكر « فاى » يحـوم ـ فى تلك الايام ـ حـول السحاق واشمئزازها ممن يمارسنه .. وقالت ، ذات مرة : « من الطريف أن انتقد الغير ، بعد الحياة التى كنت أعيشها ، ولكن ثمة شيئا فى الفتيات اللائى من صنف « ديزى » ، يثير القشعريرة فى بدنى ! » .. وهنا ، قال لها المحلل النفسانى : « **أتقصدين أنه يثير خوفك ؟** » . وبدأ عليها الضيق ، ثم فكرت برهة ، وما لبثت أن انفجرت ضـاحكة ، ثم قالت : « لشد ما أكره مجادلتك . اذا كان قد تبدى على شىء من الخوف ، فانما يرجع ذلك الى أمر آخر .. أؤكد لك اننى لم أشعر بجزع من « ديزى » ، ولكنى أصارحك بأننى ـ حين

تحدثت عنها ــ تذكرت فجأة حلما يدور حولها ، ويتصل بـ . . . بأبى ! ولقد بدأ باستيائى من اطلاع « ديزى » على مدى اشمئزازى مما فعلت ، فقد كانت ــ رغم كل شىء ــ مرهفة الحس . وقد حرت فى طريقة للتخلص منها دون أن أجرح شعورها ، فذكرنى هذا بخسة أبى ! »

ولقد تمثلت نفسها ــ فى الحلم ــ ملكة ، تجلس على عرشها ، واذا بأبيها يأتى مع « ديزى » ، وأخذ يصرخ فى الفتاة ، ثم ألقى بها عند قدمى الملكة . فصاحت فيه هذه تنهره ، وعينت « ديزى » وصيفة لها . ولكن الشيخ ظل يصرخ ، فصاحت فيه : كيف يصرخ هكذا أمام ملكة ؟ !

وأردفت « فاى » قائلة : « انه حلم غير ذى قيمة ، ولكنى لا أدرى ما الذى ذكرنى به اليوم .. المهم فى الامر ، اننى عاملت الشيخ فى المنام ، كما عامله والد الفتاة التى كنت أمثل دور الطبيبة معها فى صغرى . فقد جاء فى اليوم التالى ، وتشاجر مع الشيخ لانه أخاف ابنته بصياحه .. ولقد منعت بعد ذلك من اللعب مع « **ايدنا** » . وهنا هتف الدكتور مونجمرى : « **ايدنا ؟** » . فقالت : « أجل .. ايدى ! »

الهاربة من الشذوذ الجنسى !

• **وكان** هذا كافيا لازاحة الستار الذى كان مسدلا على نفس « فاى » ، فتذكرت أنها بهرت بما كانت « ايدى » تبديه من خلاعة واغواء ، عندما التقت بها بعد حادث الطفولة بسنوات ، وقد أصبحتا فى سن المراهقة . كما تأثرت بما كانت الفتاة تبديه من استخفاف وعدم اكتراث بالذكور .. ثم قفزت ذاكرة « فاى » الى مناسبة أخرى ، فعندما سمعت « ايدى » بخطبتها الى « كلارك » ، تنبأت ــ رغم أنها لم تكن قد رأته ــ بأن زواجهما لن يكون سعيدا . واستطردت « فاى » قائلة : « **والآن أستطيع أن أرى أن « ايدى » ظلت طويلا تراودنى**

وتحاول ان تغوينى على السحاق ، ولكنى كنت من الغفلة بحيث لم أدرك ذلك . وأحمد الله على اننى كنت مغفلة ! »

وكان من الجلى أن « فاى » لم تمارس الشذوذ الجنسى عمليا ، ولكنها كانت شاذة من ناحية أخرى .. ناحية ميلها الشديد الى « ايدى » ، ثم الى « ديزى » فيما بعد . **وفى الحالين ، كان الغثيان ينتابها كلما أحست بأن الميل يوشك أن يبرز جليا لوعيها ، ليتخذ أسلوبا عمليا .**

واذ أخذ الدكتور مونجمرى يساعد « فاى » على تبين ذلك ، بدأت الحقائق — التى كانت « فاى » تتهرب منها وتناضلها — تفقد طابعها المخيف . وشيئا فشيئا ، أخذت تواجه الحقيقة الجوهرية ، وهى ان تمردها ، ومسلكها العدائى نحو أبويها ، ومشاجراتها مع زوجها وحقدها عليه .. **كل هذه كانت أعراض اتجاه شاذ ، مبعثه الاصلى هو الرغبة فى التساوى بالذكور .** فقد وقر فى ذهنها — نتيجة تصرفات أبويها معها — ان الذكور أفضل وأعلى شأنا من الاناث .. وعندما شعرت بأن أباها كان ينبذها ويحتقرها ، وهى المشوقة الى حبه — بحكم الطبيعة — أرادت أن تثبت له ولنفسها ، أنها لم تكن بحاجة الى حبه ! .. **ولقد كانت — باتجاهها الى الدعارة — تنفس عن نفسها الشعور الذى استولى عليها نحو أبيها الذى اتهمها بأنها تمرغ اسمه فى الوحل .. كما أن أمها لم تكن تنفك تذكر لها أن الفتيات يجب أن يكن نظيفات ، فكان فسقها مظهرا للتحدى والتمرد .** أما زوجها ، فكان مجرد شخصية ثانوية بريئة ، تجلت لبصرها — الذى شوهته انفعالاتها النفسية — فى صورة العدو !

ولقد كان تجرد « ديزى » من ثيابها ، وحركاتها الخليعة ، سببا فى غثيان « فاى » .. وفى اشمئزازها — كذلك — من الدعارة التى جمعت بينها وبين الفتاة . وكانت الحالان مظهرين للصراع الذى كان يدور فى نفسها ويعذبها . كما كان

خوفها من أن تنفضح مشاعرها التى لم تكن تلقى اعترافا ولا تقديرا ـ وهى المشـــاعر التى كانت تدفعها الى الشـــذوذ الجنسى ـ سببا فى أن تولاها الخوف من كل نشاط جنسى ، كما أثار لديها الرغبة فى أن تعاقب نفسها !

* * *

واذ تبينت « فاى » هـــذا ، قالت ذات يوم : « اننى أدرك الآن اننى كنت ذات شذوذ جنسى دفين .. واننى كنت على استعداد لان أكافح حتى الموت ، لاثبت عكس ذلك ! » .. **وكان ادراكها ذلك ، علامة الشفاء .. أخيرا !**

— ❋ —

قدمنا لك فى العددين السابقين نماذج من قصص نجاح العصاميين التى تضمنها هذا الكتاب الشائق .. وفيما يلى نماذج أخرى من نفس الكتاب :

يد الله مع الجماعة

• **كان** « نادى الاستثمار المشترك » بديترويت مصدر الهام لكثيرين، حتى لقد انتشرت فى كافة أرجاء أمريكا النوادى التى أنشئت على غراره . ولقد قام هذا النادى على فكرة بسيطة جدا .. تلك هى أن يلتقى أعضاؤه مرة فى الشهر ، فيودع كل منهم ١٠ دولارات — أو مضاعفات ١٠ — ثم يستثمر المبلغ المجموع من الاعضاء ، فى نوع من الاسهم يختارونها .

ولقد انبثق مشروع انشاء النادى ، فى خاطر شخص يدعى « فريد رسل » ، كان سمسارا لبيع الاسهم والسندات ، ثم هجر هذه المهنة ، حين حصل على منصب طبيب فى احدى الشركات ، ولكنه تألم لهجران ميدان الاسهم والسندات . وصارح زميلا له — يدعى « جورج نيكولسن » بذلك ، **فاذا حديثه مع الصديق يلهمهما معا بأن يعملا على جمع عدد قليل من أصدقائهما الذين يتوفر فيهم الثقة المتبادلة ، ويؤلفون فيما بينهم جمعية لاستثمار مدخراتهم فى الاسهم والسندات .**

واجتمع أول أعضاء للنادى ، فى فبراير سنة ١٩٤٠ .. وكانوا ستة ، ثم أصبحوا اثنى عشر عضوا، وتوالت اجتماعاتهم بعد ذلك ، مرة فى كل شهر . وفى كل مرة ، كانوا يختارون — بالتصويت — نوع الاوراق المالية التى يستثمرون فيها المبلغ الذى يدفعونه . وقد بلغ مجموع اكتتاباتهم فى السنة الاولى ٨٨ دولارا ، اشتروا بها ١٠٨ من أسهم سبع شركات .

ويسعى النادى الى أن يستثمر مدخرات أعضائه — بانتظام — فى الشركات الناجحة . وكل دفعة تعطى صاحبها نصيبا فى

النادى ، وصوتا فى اختيار نوع الاسهم . أى أن الذى يدفع دفعتين ـ فى المرة الواحدة ـ يصبح بنصيبين وصوتين فى تلك المرة . **وتحفظ أسهم النادى باسمه ـ كهيئة ذات شخصية معنوية ـ فى احدى دور السمسرة . وللعضو أن يسحب بعض ماله أو كله ، بعد أن تقوم الاسهم بالسعر الحالى ، وبعد خصم العمولة ، وخصم واحد فى المائة كجزاء يفرض عليه لانسحابه .**

وقد تطورت رسالة النادى مع الزمن ، فأصبح كمؤسسة لاستثمار المدخرات وجمع ثروة منها لاعالة العضو عندما يضطر الى التقاعد !

بائع احذية ، ومحرر اعلانات ، وكاتب !

أن التاجر الناجح ، هو الذى يعرف كيف يعلن عن سلعته .. لاسيما اذا ابتكر اعلاناته بنفسه

• فى سنة ١٩٥٢ ، باع « سام سوليفان » ثمانين ألف زوج من الاحذية ، أى مايقرب من ٤٠ فى المائة من جميع الاحذية التى بيعت فى مدينة (لاردو) والمنطقة المحيطة بها ، فى ولاية (تكساس) الامريكية .. وفى العام ذاته ، كتب « سوليفان » حوالى عشرة آلاف كلمة للاعلان ، وحوالى أربعين ألف كلمة لعمود للتعليقات تنشره له صحيفة « التايمس » ـ التى تصدر فى (لاردو) ـ مرتين فى الاسبوع !

كان « سوليفان » من أنشط باعة الاحذية فى ولاية (ميسورى) و (تكساس) و (أوكلاهوما) ، أثناء دراسته فى المدرسة الثانوية . وأستطاع ـ فى الوقت ذاته ـ ان يدرس منهاجا تجاريا . ثم استقر ـ فى سنة ١٩٣٧ ـ فى مدينة (لاردو) ، واستأجر قسم الاحذية فى متاجر « ريشتر » ،

وهى من أقدم المتاجر التى تتعدد أقسامها لتوفر للعملاء أكبر عدد من السلع اللازمة لهم . **وشغف ((سوليفان)) بأن يكتب بنفسه الاعلانات التى كانت تصدر عن قسم الاحذية ، فأثارت الصيغ المبتكرة ـ التى كان يبتدعها ـ اعجاب ((وليم بريسكوت الين)) ، ناشر صحيفة ((التايمس)) فى المدينة ، فسعى الى اقناعه بأن يكتب صيغ اعلانات الصحيفة** ، على ان يمنحه أتعابا فى مقابل ذلك ، وعلى أن ينشر اعلاناته الخاصة دون مقابل اللهم الا نسبة ضئيلة ـ لاتعدو ثلاثة فى المائة ـ تخصم من الاتعاب ، مهما تكن المساحة التى تشغلها اعلانات أحذية « سوليفان ! »

وقد بلغ دخل « سوليفان » من الاعلانات ـ التى كانت تنشر بالانجليزية والاسبانية ـ ١٥٣ر٣٤٣ دولارا فى سنة ١٩٤١ ، وارتفع الى نصف مليون من الدولارات فى سنة ١٩٥١

ويتبع « سوليفان » فى اعلاناته طريقة الحديث غير المتكلف، الذى ينفذ الى أعماق السيدات بوجه خاص ، فهو يقول مثلا : « لنتكلم قليلا عن الاحذية ! » . ثم يبين أن « الكعب العالى » ليس شرا على طول الخط ، وان « الكعب المنخفض » قد يضر بأناقة الانثى ـ التى تجاوزت سن الحلم ـ وبقوامها . ويرفق حديثه برسوم تبين الضرر بشكل يكفى للاقناع . ثم ينتهى الى ان غايته هى «ان يبيع للعميلة الحذاء الملائم للمناسبة التى تعنى بالاستعداد لها » . وهناك اعلانات عامة ، لايذكر فيها الاحذية اطلاقا ، كأن يرحب بمناسبة قومية معينة ، أو يدعو الى الاكتتاب لغرض خيرى .. ولكن مجرد ذكر اسمه فى الاعلان ، كاف لاجتذاب العملاء اليه !

وازاء نجاح اعلاناته ، دعته ((التايمس)) الى ان يكتب عمودا ينشر مرتين فى الاسبوع ، فاذا بسوليفان يصبح من أحب

الكتاب الى القراء ، وقد اصبح عموده يترجم الى اللغةالاسبانية كذلك .

وهكذا أصبح بائع الاحذية من أقطاب الاعلان ، ومن أشهر الكتاب.. ولم تشغله أية ناحية من هذا النشاط عن الناحيتين الاخريين !

سمكرى مرشح لان يكون مليونيرا

ليس يكفى أن تجيد حرفتك وتتقن اداءها ، ولكن الاجدى أن تواصل الدراسة لتبتكر مايميزك فى ميدانها

. **من** أعجب الحقائق ، أن أكبر مؤسسة تنتج أجهزة الرى الصغيرة فى أمريكا ، هى شركة صغيرة متواضعة ، فى (هيكتستاون) ، بولاية نيوجيرسى . وقد كان مؤسسها ومديرها سمكريا (سباكا) فى أول امره . وكان قد أتم منهجا دراسيا وعمليا فى هذه الحرفة ، عندما فقد أبوه عمله فى شركة كان قد قضى فيها الشطر الاكبر من عمره .

وكان هذا الحادث كافيا لان يوحى الى «هارولد اومستاتر» ـ الذى كان فى السادسة عشرة ، اذ ذاك ـ بأن العمل لدى الغير لا يتصف بالاستقرار المطمئن ، ومن ثم فانه قرر ان لا يعمل أجيرا لاحد ، وأخذ يفكر فى شىء مبتكر يمتاز به فى حرفته ، فهدته التجارب الى صنع مرذاذ للمراحيض (سيفون)، لمحطات البنزين التى ينتشر عدد كبير منها خارج المدن . وكان أبرز ما فى ابتكاره ، انه صنع الجهاز من براميل الوقود القديمة . واستطاع بلباقته ان يحمل مدير فرع اقليمى لشركة « ستاندارد اويل ـ نيوجيرسى » ، على ان يسمح له بتجربة الجهاز فى احدى المحطات التابعة له . وسرعان ما أغرى النجاح الشركة على أن تحاول شراء الاختراع . ولكن « اومستاتر » أصر على ان يحتفظ بحقوق الاختراع ، وكان

أن حصل على عقود بصنع كميات كبيرة من الجهاز ، حتى ان ارباحه بلغت — فى ثلاث سنوات — ٥٥٠٠٠ دولار .

وفى سنة ١٩٣٦ ، قبل ان يشرك معه فى الانتاج تسعة من العمال ، وحول مؤسسته الى شركة . ولكن ولاية (نيوجيرسى) كانت — فى تلك الاثناء — قد حصلت على كفايتها من الجهاز ، فهبطت المبيعات هبوطا شنيعا ، اضطر معه الشاب الى ان يبيع سيارتين ، والى ان يقترض من احد المصارف .

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية ، توقع « اومستاتر » ان شركته لن تستطيع الصمود ، فعمل على تصفيتها ، والتحق بادارة الهندسة الحكومية ، التابعة لسلاح المهندسين بالجيش الامريكى . وسرعان ما لمع فيها ، اذ أنه لم يكن ليرفض الاضطلاع بأية مهمة يعهد بها اليه . وقد كلف مرة بأن يضع تصميما لشبكة لتصريف فضلات المراحيض فى معسكر كبير ، ولم يكن قد خبر مثل هذا العمل ، فما كان منه الا ان حصل على أجازة لثلاثة ايام ، تفرغ فيها للدراسة ، ثم ابتكر الشبكة المنشودة بكافة ما كانت تحتاج اليه من آلات ومضخات !

وفى سنة ١٩٤٤ ، أعفى « اومستاتر » من عمله ، لعاهة كانت قد استفحلت عنده من الصغر ، فعاد الى السوق ، ليجد ان مجال نشاطه السابق قد ضاق عن ذى قبل . وهنا تذكر ان فى ولاية (نيوجيرسى) مساحات شاسعة لا تستغل فى الزراعة لصعوبة الرى ، فخطر له ان من الممكن أن تستحيل الى بساتين ، اذا ما توفرت آلات متنقلة لريها .. وقضى اعواما فى التجارب ، حتى اذا كانت سنة ١٩٤٩ ، توصل الى جهاز مثالى .. وفى الشهور الاربعة الاولى من انتاجه ، استطاع ان يبيع ما قيمته ٢٥٠٠٠٠ دولار . وازدهر عمله منذ ذلك العهد ، حتى بلغ مجموع مبيعاته فى سنة ١٩٥٢ وحدها اربعة ملايين من الدولارات !


المسبحة!
THE ROSARY.
القصة العاطفية الإنسانية الخالدة، التي صنعت
مجد مؤلفتها الانجليزية "فلورنس باركلي"
، والتي تجري نقطة التحول في حياة بطلتها
في شرفة فندق "ميناهاوس" تحت سفح الهرم الأكبر!
ترجمت الى جميع اللغات - ماعدا العربية! - وبيعت
منها ملايين النسخ، وطبعت عشرات الطبعات..
والآن جاء دورها كي تترجم إلى العربية!
دراما عنيفة حافلة بالانفعالات، يقول كل
من قرأها أنه سيظل يذكرها.. مدى الحياة!
يصدر بها العدد القادم من
شركة فن الطباعات ٥٨١٤٩
يصدرها
حلمي مراد
مطبوعات كتابي
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية